عِزبَتْ تُونسْ

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 4642 / 2020

الترقيم الدولي: 2 – 464 – 838 – 977 – 978

الكتاب: عِزبَتْ تُونسْ

المؤلف: حبيب درويش

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

عِرِبَتْ تُونسْ

رواية

حبيب درويش

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

الإهداء

أُهدي هذا الكتاب إلى زوجتي المصُون، تلك السّخية الكريمة، التي فيها الكثير من نادية وبعضٌ من ياسمين ولا شيء من هاجر. تلك التي تعطي بلا مقابل، تلك الّتي إن خيّروني يومًا في أن أختار شكل موتي لأجلها، لاخترتُ موتةَ خالدٍ، لا لشيء إلّا لأموت فأحيا بين أحضانها، فهي الوحيدة من إن تناثرت أشلائي، جمعتْها تُعيد غسلها وترتيبها.

عيناكِ نَـيْـسَـانَـانِ... كيف أنا
أغـتـالُ فـي عينيكِ نَيسَانا؟

نزار قبّاني

مقدّمة المؤلف

تعرفت على خالد بطل الرواية، ليس تعارفًا بالشكل المتعارف عليه، بل هي ألفة روحية جمعت بيننا، فيها الكثير من الواقع والكثير كذلك من الخيال العلمي، فشخصية خالد هي التوليفة الوحيدة-في نظري- الأكثر عمقًا وعطاءً وتمرّدًا، يمثل تلك الشخصية، ريفي خارج لتوه من عالمه الخاص والمميّز، وقد اخترت له أن يكون صعيديًا بالذات، من أرياف مصر، لا لشيء، إلّا لكون الصعيدي يحمل تلك الجينات العريقة والأصيلة، والذي أردت له كذلك أن يولد بقرية تونس-محافظة الفيوم، أو كما يسميها أهلها عزبت تونس، ويطلق عليها الأجانب بسويسرا الشرق، الذي قد يوحي لك اسمها منذ الوهلة الأولى وحتّى تلك القباب البيضاء التي تعلوا منازلها، بأنهّا تقع على أرض تونس الخضراء، لكن حين تدقق في ملامح سكانها ولهجتهم، وفي ارتفاع ضحكات أطفالها العالية، تتأكّد أنّك بأرض مصرية، حولتها الصدفة من مكان بدائي بحت إلى لوحة خلّابة يعشقها السائحون.

كان خالد بتلك العزبة، دائمًا ما يبحث عن الحبّ، وما الحبّ عنده إلّا ابنة عمه ياسمين -إحدى بطلات الرواية- يسافر مهاجرًا إليها بعيدًا عن أمّه -أمّ خالد، ليلتحق بها بإسبانيا، وبالضبط بغرناطة الحمراء، مدينة التاريخ وقصص العشق الخالدة، لكنّ تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، ليعيش البطل وسط أحداث مثيرة للغاية، بين مدنٍ كثيرة -عزبت تونس، القاهرة، غرناطة، ونيويورك- تجمع بين الحبّ في أقصى درجاته، وبين الحزن والألم في أغمق صوره. خليط بين الواقع المثير والخيال العلمي الذي ينقلك إلى أبعد ممّا تتصور. فيه شيء من الجنون ومن التمرّد وكثير من الهيام، يرحل فيه حبّ هذا الصعيدي الغامض من امرأة لأخرى، وينتقل قلبه من جسد إلى آخر، من عالم واقعي لعالم خيالي علمّي أكثر غموضًا، وفي الأخير يُكتب له أن يموت بأرض ليحيا بأخرى.

حبيب درويش

الفصل الأول

مرّت أيام طويلة، كان خالد يجمع فيها المعلومات التي تخصُّ مدينة التاريخ غرناطة، تلك العروس الساحرة التي قرّر أن يسافر إليها بغية الحصول على شهادة الدكتوراه من إحدى مدارسها العريقة، وقد بذل مجهُودًا خُرافيًا لتحسين لُغته الإسبانية إلى أقصى حد مُمكن، وأخيرًا وبعد ثلاثة أسابيع من الانتظار –منذ أن دفع طلب التأشيرة– وصله إشعارٌ من وكالة الهجرةBSL، فراح يجري بخطى متسارعة على محل «سيبر نت» الوحيد بقريته، وجد به عددًا لا بأس به من السياح، فقريته منطقة سياحية يهواها الأجانب كثيرًا، كان مُضطرًا للانتظار، بعد مضي نصف ساعة، خرج سائح سويسري بعد أن أنهى تواصله بالواب–كام، ليتقدم خالد من أمام شاشة الحاسوب بيدين ترتجفان من الفرحة، جلس ينتظر من صاحب المحل إشارة البدء، بلع ريقه وسمّ بسم الله، كانت تدفق الإنترنت بطيء نوعًا ما، لكنّه كان مصممًا حتى على المبيت هنا إذا تطلّب الأمر ذلك، المهم أن يتأكّد من الموعد من على الموقع الإلكتروني للوكالة، لكي لا يقع في الفخ كالموعد الأول المزيّف.

بعد لحظات استطاع أن يلج إلى ذلك الموقع، قام بإدخال المعلومات المطلوبة منه ليجد أخيرًا ما كان ينتظره. قفز من مكانه يرقص، لكنّه عاد وهدأ عندما وجد وجوه الحاضرين كلها متوجهة إليه بنوع من الانزعاج.

-يا الله، قد تمّ تحديد الموعد فعلًا..

خرج مسرعًا رافعًا طرف عباءته وقد نسي أن يُحاسب صاحب المكان، لكن أكيد أنّ الكلّ هُنا يعرف بعضه البعض، لذا لم يكن ليوقفه وهو ينظر إلى الفرحة تتراقص بين عينيه، مسرعًا حتى وصل أخيرًا بيتهم يلهث، واقفًا يتوسط فناءه الأمامي المكشوف، أخذ لحظات يجمعُ فيها أنفاسه المتطايرة، ثم راح يرقص رقصة الصعيد بعباءته البيضاء المغبرّة الواسعة، فرحانٌ يُغنّي ويُردّد..

-سلام شحط محط يا عم لرجالة الصعيد..

..الناس الرجولة إللي تفوت في الحديد..

ثم راح بأعلى صوته يُنادي على أمّه..

-يا أمّ خالد، أمّ خالد.. باركِ لي، قد حُدّد لي الموعد..

خرجت مُسرعةً تجرّ ثوبها الفضفاض، حافية القدمين المُحنّيتينِ بحنّاءٍ سوداء اللون، تُغازلها تُربة فِناء بيتِها، لتتهامسُ عليها جُدران سورهِ الطِّينيّ اللّبنيّ.

-ما بك يا ولدي تنادي كالمجنون؟ قد أفزعتني..

-فرحان يمّا، فرحان..

-فرِّحني يا ولدي!

-قد حدّدوا لي موعد اللقاء بالقنصلية أخيرًا.

فجأة اختفى لون قدميها تحت عباءتها، وطارت تلك البهْجَة التي كانت تتلألأ تخرج من على وجهها السمري، اقتربت من مقعد صغير من القش، مُديرةً ظهرها لجدار المنزل كأنّها أحَسّت فجأةً بالتعبِ وجلست كأنّها تحمل حملًا ثقيلًا، تقدّم ناحيتها بخطوات هادئة ثابتة مبتسمًا بعد أن توقف عن تلك الجلبة، يفرك شعره..

- ما بها أمّ خالد! ما أَن سَمعت قولي حَتى انطفأت لهفتها؟!

استدارت بوجهها إليه، تنظر في عينيه تحاول أن تخفي شيئًا ما بخلدها..

-لا شيء يا ولدي..

كان صوتها ساكنًا حزينًا بعض الشيء، يعكس موجات نبضات قلبها التي تسارعت حين سمعت جوابه..

ابتسم وقال..

-أنا خالد يا أمّي! من يعرفُك غيري؟!

صمتَ للحظات ينظر لعينيها لربّما يجد منهما ردًّا، لكن خاب ظنّه فأضاف..

-أظنّ أنّنا تكلّمنا في هذا الموضُوع مرّات عدّة! ولا أرى فائدة في فتحه من جديد، صدّقيني..

هزّت برأسها لتأكيد كلامه، لكنّها قرّرت أن تردّ عليه..

-أعرف هذا يا ولدي، لكن رغمًا عنّي أشتاق لك قبل أن ترحل! فما عساي أن أفعل! قد تعلّمتُ على يد مدام-إيفلين- عمدة صناعة الفخّار بالعزبة- كنت لا أزال شابّة صغيرة، وعندما تزوّجتُ ولد بِكري، كان بالنّسبة لي قطعةَ عجينة دسمة من الطين الأحمر الصعيدي الأصيل، شكّلته بكثير من الحبّ، أعطيته الكثير من روحي، ومن سحر وطبيعة المكان الريفي هذا، لكنّي اكتشفت مع الوقت، ومع السنوات التي سُرقت منّي، أنّي صنعت طائر عقاب من الفخار الفاخر، يريد بعد كل ذلك أن يرحل منّي، فيهجُرني.

أجهش بالبكاء، ثمّ انحنى مثنيًا ركبتيه على الأرض جالسًا، يحضُن ركبتيها بذراعيه الإثنتين، يُقبّلُ يدَيها ورأسها، لتحتضن بدورها رأسه، تُمرّر أطراف أصابعها على شعره القصير المُجعّد، كان يعشق تلك اللحظات الصامتة رُفقتها..

-أنا ولدك، ابن هذا الريف والفخار..

-أصبحت من المدينة يا ولدي، حتى لكنتُك صارت مصراوية! لا أسمع لهجتنا الصعيدية من فمك إلّا عندما تفرح!

- تغيّرت لكنتي كوني عِشت بالقاهرة مدّة دراستي الجامعية الطويلة، يعني أمر طبيعي جدًا..

-وهل سمعت عن عقاب يهجر عشه ويرحل!

صمت ولم يرد..

بعد أسبوع من ذلك، خرج من بلدته- عِزبةُ تُونس، عروسُ الفخّار والخزف، تلك الواحة الخلّابة واللوحة الطبيعية المُترامية أطرافها بين أحضان الريف المصري الأصيل، والمَبنيّة على ساحل بُحيرة قارون، هي أوّل مدن صعيد مصر- مُتّجهًا إلى قاهرة المُعزّ.

الساعة 11 :00صباحًا..

أخيرًا وصل شارع إسماعيل محمد بالزمالك، أين يوجد مقر السفارة الإسبانية..

-وصلنا يا بني..

نزل من سيارة التاكسي، غير بعيد عن مكان السفارة مبتسمًا كله ثقة وعزم..

-تفضل يا وجه الخير، ادعُ لي بالتوفيق..

فرح السائق بالمبلغ المضاعف الذي ناله..

-روح الله يوفّقك ويسهلّك، بركاتك يا سِيدْنا البَدوي..

تقدم من الأمن ليقدم ورقة الموعد، بعد تفتيشه سمح له بالدخول إلى قاعة الانتظار بالقسم القنصلي، لينتظر دوره بعد الإعلان على رقمه التسلسلي..

كان بهندام متوسط وعادي، مُحترِمًا عُرف المكان وقوانينه، رتّب ياقة قميصه وأخذ مكانًا وسط أولئك الذين ينتظرون دورهم مثله، كان المشهد شبه صامت، يبدو على وشوشهم بعض القلق والتوتر..

بعد مرور نصف ساعة نادوا على الرقم 126، كان دوره، ليتقدّم مُتّجهًا إلى شباك رقم05، متوقعًا الرفض كما القبول..

وقف أمام مسؤول غجري الملامح، مبتسمٌ، أومأ برأسه مُحيّيًا، ليردّ عليه..

-صباح الخير سيد خالد، تتكلم الإسبانية طبعًا..

أخذ شهيقًا ثم زفيرًا ليرد ابتسامته..

-أكيد سيدي Hablo espanol con fluidez..

كانت إسبانيته لا بأس بها توحي باجتهاد واضح..

-Buena،لكن لماذا تريد السفر إلى إسبانيا بالأخص؟

-لتحضير ونيل شهادة الدكتوراه بمدرسة الدراسات العربية بغرناطة تخصص تاريخ الأندلس..

-Excelente،هل لك معارف هناك؟

تذكر فجأةً وصية ابنة عمّه -ياسمين.. «إيّاك أن تقولَ أنّ لك أقاربًا بإسبانيا وإلّا رُفض طلبك».

عاد ليجيب..

-لا يا سيدي، لا معارف لي هناك.

توالت الأسئلة حتى انتهى اللقاء، قطع له ورقة وطلب منه دفع الرسوم. خرج من المكان مرتاحًا ليس برأسه غير قصر غرناطة وابنة عمّه، ليعود إلى قريته بعد أن زار بعض الأماكن بالقاهرة، وصل مع المساء ليجد أمّه تنتظره أمام فناء البيت، كعادتها عندما يكون مسافرًا..

-مساء الخير يا أمّ خالد..

-تأخّرت يا ولدي، قلقتُ عليك فبعثت أخوك مَحمّد، لينتظرك هناك بمكان الوصول..

-لم يكن هناك! لكن لا بأس، أنا ميت بالجوع يامّا.. ههه.

بعد مدّة تحصّل أخيرًا على تأشيرة السفر، بدأ يُجهّز نفسه للسفر..

اقتربت منه بعينين حزينتين، تسكنهما عبرات ربيعية دافئة، هو بكرها لا تتخيل أيّامها من دونه، لكنها تُدرك جيدًا ومنذ سنوات دراسته الطويلة بالقاهرة، أنّها سوف ترى وتعيش هذا اليوم، بل منذ طفولته حين أحبَّ وتعلّقَ بابنةَ عمّهِ، كانت تدرك أنّها في يومٍ ما سوف تجرّه بعيدًا عن العزبة وعن البلد كله، كما فعلت أمّها من قبل، حين تزوجت حموها وعادت به إلى بلدها.

اعتدل في جلسته واستدار إليها ممسكًا بيديها يُقبّلهما..

-أعرف يا أمّي، كم تُحزنكِ هِجرتي وسفري إلى مكانٍ بعيد عنك! لكن اعلمي أنّني مهْما ابتعدتُ، فاشتياقي وحُبّي لكِ يبقى لا يتغير، فلا تحْزني فتُصعّبي عليّ الأمر كلّه، وإلّا ألغيتُ كل شيء لأجل دمعَ عينكِ!

- سوفَ أشتاقُ لكلامِك يا ولدي..

اليوم هو أوّل لقاءٍ لخالد مع عالم غير عالمه الريفي المعتاد، يُسافر تاركًا كل شيء وراءه، البلد والأهل، العادات والتقاليد، ذِكريات طُفولته ومراهقته، ليرحَل مسافر إلى منطقةٍ مُغايرة تمامًا، شعبُ سَمعَ عنهُ وعن ثقافتهِ من أفواهِ الأجَانِبِ الّذين كانوا لا ينقطعُون عن قريته،

بلدٌ قرأ الكثير عن تاريخِه العريق خلال مرحلة تخصُّصِهِ الجامعي، إنّه السفر إلى تلك الفورَة الأندلسية العريقة، حضارة لها طابعٌ خاصٌ جِدًا، لا يزالُ حاضرًا حتى السَّاعة، تَمدّنٌ اِمتدَّ على مَدى قُرونٍ طويلة يحاكي عبقرية أجدادنا هناك.

سفره اليوم لنْ يكونَ بغرض الدراسة فقط، بل لاكتشاف لغزٍ آخر مُغرٍ من ألغازَ غرناطة الحمراء[1]. لم يكن ذلك اللغز سوى عيون حبيبته ياسمين ابنة الأندلس.

كانت ذاكرته العلمية -وهو المتحصل على ماجستير في التاريخ- تُعيدهُ إلى مشاهدٍ خياليةٍ من ذلك العَبَقْ والزخم الأندلسي الفوّاح، مُسْندًا ظهرهُ على كرسي الطائرة، مُبتسمًا ابتسامةً خفيفةً تنمُّ عن سرورٍ داخليٍ هادئ، رغم أنّها أوّل رحلة له جوًا. كان يجلسُ بالجهة اليُّمنى من الطائرة، على الكرسي الثالث المُطلّ على الرواق، تحت رقم F12، بجوارهِ شيخٌ عجوز مَحني الظهر قليلًا يبدُو بشوشًا ذا ملامحٍ طيّبة، مِمّا شجعَّ خالد على أن يطلُب الإذنّ منه، لينتقِل إلى الكرسي الذي بينهما ليتحدّثا معًا بعض الشيء، فلم يُمانع ذلك المسنُّ بل رحّب بالفكرة.

استدارَ نحوهُ يفتح معه حوارًا..

---

(1) نسبة إلى قصر الحمراء بغرناطة.

-أهلًا بك يا حاجّ..

-أهلًا بُني..

-إلى أين وجهتُك؟

-مدينة مالقه[1](2)، أزورُ ابني هناك، هذه ثالثُ مرّة أزورهُ فيها، وأنت! أظنُّك تُسافر للدراسة!

-بالضبط، ذاهب إلى غرناطة..

-تلك المدينة الساحرة، لكن من أين أنت في مصر؟

-من عِزبت تُونس..

-تقصدُ سويسرا الشرق..

كان الحديث شيّقًا، لكنَ الرِّحلة كانت طويلة، فاضطر خالد لأخذ قسط من الراحَة بعد أن غلبهُ النُعاس، لأنّه لم ينم منذ يومين..

الوصول إلى مطار مالقه الدولي 12 :10 صباحًا..

ما إن حطّت الطائرة على أرضية مطار كوستا ديل سول(Costa del sol)، حتى بدأ الازدحام على طول رواق الطائرة، اختنق خالد من وقوف الركاب على رأسه، لكنّه انتبه لجاره العجوز الذي بقي هادئًا يُتابع منظر ذلك الازدحام..

(1) Malaga مدينة أندلسية تقع جنوب إسبانيا، بنيت من قبَل الفينيقيين قبل حوالي 2770 عامًا.

-يا حاجّ ألا تُريد النزول؟!

-لا أستطيع بُني! عمُّك عاجز، سوف أنتظر المرافق، شكرًا لإهتمامك.

عادَ لِيستند على كُرسيَه في انتظار أن تَخفّ الحَركة قليلًا، سارحًا بخيالهِ بعيدًا، ملأ قلبهُ اليقينَ في أنّ الأيام الآتية ستحمِل لهُ الخير الكثير. يبدو ذلك المطار مُبتلًّا وخالٍ من الحركة، إلّا من بعض سيارات الصِيانة والتوجيه، أخيرًا خَفّت الحركة، فقام خالد من على كرسيه واقفًا وسط الرواق ملتقطًا حقيبته الصغيرة، يهمّ بالخروج أوقفته نظرات جاره له لينحني منه بعض الشيء هامسًا..

-يا حاجّ نلتقي في خير إن شاء الله..

-مع السلامة بني.

وقفَ أخيرًا على عتبة مَخرج باب الطائرة الأمَامي، ليدخُل بعدها في ممر زجاجي طويل يؤدي إلى داخل المطار، يتبعُ خطوات بقيّة المسافرين الذي سبقوه، منهُم المُسرع المُزاحم ومنهم المُبطئ الذي ما إن خَرج حتّى راح يتحدَث في هاتفه بلغة تركية، لربّما يخبر أهلهُ بوصوله، تقدّم خالد يجُرّ حقيبته في سكون حتى وصل إلى صالة كبيرة جدًا، ليس بها غيرهم، ممّن كانوا على متن الخطوط الجوية

التركية، لم ير –وهو يبحث في أرجاء تلك الصالة– عن أي أثر لرجال الشرطة أو الجمارك، استغرب الأمر وقد ترك مطار القاهرة يعجّ بهما! بدا وكأنه مُضطربًا نوعًا ما، يبحث عن شيء أو مكان ما، يقرأ اللافتات من حولهِ، أخيرًا وجد ما كان يبحث عنه، مدخلَ المرحاض، كان عليه لافتة كتب عليها Bano publico تشير لاتجاهينِ مُنفصلينِ، على اليمين للسيدات وعلى اليسار للرجال، لكن ما أدهشه هو مستوى تلك النظافة وخُلو المكان من الناس تمامًا..

رجع بعد دقائق من الراحة إلى غَوغاء تِلك الجّالية المُختلطة بين مصريين وأتراك وجنسيات أخرى، ينتظرونَ وصولَ حقائبهم، كان ذلك المُسنّ–جارهُ بمقعد الطائرة– غير بعيد عنه، يجرّ كرسيه مرافقه شاب وسيم بزيّه الرسمي الخاصّ بالمطار، كان الشيخ يحمل على ركبتيه حقيبة متوسطة الحجم بها قطعة قماش حمراء رقيقة ظاهرة للعيان، وضعها على إِحدى طَرفي حقيبته، هو ذلك ما يفعله عادة كبار السنّ خوفًا من ضياعِ حاجياتِهم عند السَفر، كان يحضنها، بل يخنقها بكلتا يديه، فجأة تذكّر خالد أنّه لم يُسافر إلّا بحقيبة واحدة، ولا داعي لانتظاره هنا أمام هذا المسارَ الدائري للحقائب، فتح مقبض الحقيبة، وهمّ بجرّها، لكنّه تذكّر جَواز سَفره، فتوّقف ليُخرجهُ من جيبه، أكيد تذكّر أنه لم يمرّ بعد أمام رجال الجمارك، لكن ما إن

وصلَ مقرهُم حتى وجدهُ فارغًا، كانت الناس تمرُّ منه مُباشرة إلى بَهو المطار الخارجي الفسيح.

أخيرًا دخل مالقه! تلك التي سمّاها الفينيقيون بضوء اللّيل[1]، كان المكان يعجُّ بالناس، أكيد ينتظرون خروج أهاليهم أو أصدقائهم، بدأ يلتفتُ يُمنة ويُسرة، يتوجّس حيرةً من غياب وجهُ حبيبتهِ من بين الأوجه الكثيرة التي يكتظّ بها المكان، وعدتهُ أن تكون أوّل وجهٍ غرناطيٍ يراه! لكن يبدُو أنّ أمرًا ما قد أخّرها عن الحضور في الموعد، جَرّ حقيبته ليأخذ مكانًا وسط الجالسين في انتظار أن تَصلَ، فأكيد لن تتأخّر أكثر من ذلك، مُستغلًا الوقت في مراقبة المشهدَ الذي أمامه، كان يجلسُ عن يمينهِ عَجوزٌ بخيزرانتِها الخشبية البنّية، متّكئةً عليها، تحمل نظّرات رُؤية بإطار مذهّب، تبدو مُتوترة بعضَ الشيء مِثله تمامًا، وعن يساره فتاةٌ في العِشرينيات من عُمرها، نحيفة تبدو بملامحٍ شرقية، بيدِها هاتفٌ خلوي، تُحاول أن تضيّع من خلاله بعض الوقت، خليط من أجناس مختلفة تتوجه لصالة الذهاب، تكاد تكون مُنضبطة في كل شيء، يحملُ جُلّهم حقائبًا صغيرةً جميلةً، يجُرُونها بلا مجهود يُذكر، عكسَ مُسافري

(1) وذلك لانعكاس ضوء القمر على شاطئها المطلّ على البحر الأبيض المتوسط.

الخطوط الجويّة التركية، الذين سافر معهم، والذين كانوا يجُرّون حقائبًا كبيرة مملوءةً عن آخرها.

فجأةً خرجت امرأة من وسط ذلك الانتظار المُملّ لتقف على رأسه، تسارعت نبضاته لكنّه ما نبسَ بكلمة، رفع عينيه مبغوتًا، وهو لا يزال جالسًا، كأنّ شيئًا يشدّه، فيمنعه من الوقُوف، أو كأنّ دِماغه لا يريد الاستجابة له من فرط هرمون السعادة، أمّا هي فكانت تنظُر إليه بابتسامة رقيقة ساحرة، صنعت سحابة شوقٍ ساخنٍ وبريق يشِعّ من عَينيها كإشعاعة نور شمس في يوم ربيعي جميل. وقفتْ أمامه بكامل أناقتها، سمراء بلون فاتح قمحي، بجسمها الممتلئ بعض الشيء، يسكُنه هدوءٌ أنثوي فاخر، وقف فجأة من على كرسيّه فاتحًا ذراعيه، كأنّه يدعوها لعناق فيروزي طويل من ذلك الزمن الجميل.

الفصل الثاني

غريبٌ أمرُ هذا الريفي! لأوّل مرّة ينسَى خجلهُ وتردّدهُ السابق، كأنّه أُطلق سراحُه لتوهِ من قسْوةُ تلك العادات الرِيفية التي رسّختْ بذهْنه حرمة عناق الأحبّة! رغم أنّهم عاشوا بقرية سياحية وسط الأجانب! لكن هنا بغرناطة، صار شخصًا مُتمرّدًا، اقترب منها يشمّ عطرها الفواح، تحسّدهُما وأنت تُراقب ذلك العِصيان الذي لفّهُما، كأن جسميهما التحما فجأة!

أكيد هُنا بهذا البلد الأوروبي، لستَ بحاجةٍ لكتالوغٍ أو برنامجٍ تعليميّ مكثّف، يُلقنك لغة الالتحام والانصهار في من تحبّ! هنا الأمر مختلفٌ تمامًا! فبمُجرد أنَّ تنْوي تجدُ نفسكَ قد فعلتَ العجَب! أكيد لن تكُونَ الأمُور-رغم ذلك التمرّد الذي يبديه- بهذه السهولة بالنسبة لهذا المهاجر الحالم! لكنّه رغمَ كل ذلك، يبقى أقلَ تعقيدًا من أولئك الذين تركهم هُناك، سواءً بقريته -عزبة تونس- أين يجلس بعضُ الشيوخ الريفيين تحت الظل طوال النهار، أو بمقاهي القاهرة أين يجلس معظم الشباب العاطل طوال الوقت، تُرافقهم قهوة بنّ أو شايٌ أحمر، أقلّ ما يقُال عن حالتهم أنّهُم ينتظرُون مُعجزة ما، تجعلهم أغنياءٌ فجأةً، شبابٌ

لا يعَجبُهمُ العجَب، الجميع مُذنب لديه، والكلّ فاسدٌ عندهُ إلّا هُم طبعًا! ينتظرون نبيًّا مخلصًا آخر، يُخرجهُم من تلك المتاهَة والبِطالة، المِسكينُ-خالد، كان قابَ قوسين أو أدنى في أن ينضمّ إليهم، فيعيش مهزلة أبدية، أو يسيرَ صاحبَ فخّار يُجالس أمّه، مُعلّقًا شهادته على الجدار. لذا كان قد قرّر أن يَفُرّ بجلده، بعد أوّل فرصة للرحيل، حين تشجّع- بمساندة حبيبته- وأقدم على طلب التأشيرة.

وقفتْ أمامَه لأوّل مرّة ترتجِفُ منِها شَفتُها السفلى-يبدو أنّها علامة مميّزة عند هذه الغرناطية ذات الأصول الصعيدية- كان قلبها ينبض بشدّة أمام قهر نظراته الصعيدية، فيهتزّ مِنها صَدرُها كأنّها في سِباقٍ ماراثوني أنهته لتوَّها.

-أهلًا بكَ حبيبي، آسفةٌ على التأخير، اليوم بالذّات كانت كلَّ الطرق مزدحمة عن آخرها! وكأنّها تقصدُ تأخّيري عن رُؤيتك نكِاية في قلبي ههه!

كان وجهها مشرقًا لدرجة أن ذلك المُتمرّدُ الغامضُ لم يُزحزح َنظرهُ المغازل لعينيها مطلقًا، أكيد قد اشتاق لهفةً لعيونهِا السوداء الجميلة!

-لا عليك حبيبتي، كذلكَ قلبي مُزدحمة طُرق أوردته، تُريد نبضاته أن تعانقكِ بِشدّة ولآلاف المرّات.

-افعلها ثانية إذًا، ههه.

كم كان كلامه يفسد هرموناتها، ويعبث بها حنانه الرّيفي الدافئ! فيهِ أشياء كثيرة تشبهها، وأخرى من قريته، ذلك التعايش بين أهلها والأجانب السيّاح أو المقيمين بها، ذلك التناغم بين هدير بحيرة قارون وتلك القبب التي تزيّن منازلها، لأجل كلّ ذلك أغرمت به، تعرفُه بلمسة يده التي تدغدغ كلّ جسمها فتجعله كتلة تهتزّ بقوة بركان(ماونا لوا)[1].

كانَ عليهِما أن يَخرُجا من ذلك المطار المزدحم، فالطريق إلى غرناطة ما زالَ طويلًا، أقلعت بسيارتها مُسرعة بعد أن أطلقت العنان لصوت فيروز، كانَ الجو باردًا جدًا، أكيد أنّ خالد لم يتعود على بردٍ كهذا، وهو القادم من بلد تغمُره شمس قِباب منازل عزبة تونس بدفئها الرائع، مدّت يدها تشغِّلُ جهاز التدفئة بالسيارة، بعدما رأته مُنكمشًا في جلسته من البرد..

-أحسنتِ ابنة العمّ، حقيقة لا أحتمل البرد مطلقًا..

أخيرًا خرج من وضعية الانكماش التي تقمّصها، ليعود فينبسط في جلسته، ينظُر تارة من خلال نافذته إلى كلّ تلك الأرض الخضراء

(1) من أكبر البراكين على سطح الأرض مساحة وحجما، يقع بجزيرة هاواي.

والمساحات الشاسعة المزرُوعة بأشجار الزيتون، وتارة أخرى يَشدّه اشتياقه الشديد لها، وكأنّه لا يُصدّق بعد أنّها بجانبه يتنفس عطرها.

رمت نظرها نحوه تغازله مازحةً..

-خفّف من نظراتك لي ابن العمّ، إن كنت تبقي على حياتك طبعًا ههه!

ابتسم وراح يُدندِنُ مع فيروز..

-فايق ولا ناسي عالمفرق شو بكينا..

يا حبيبي يا قاسي يا ناسي ليالينا...

فايق ولا ناسي عالمفرق شو بكينا..

يا حبيبي يا قاسي يا ناسي ليالينا..

لتُقرّر مرافقته في دَنْدنته في جو حميمي جميل ودافئ، تشهد لهما فيروز بذلك الحبُّ الجميل..

كان الطريقُ إلى مدينتها يبدُو طويلًا، جعلهُ يُغادرها، ليلبَسَ عباءة الصوفي الصعيدي، الذي لا يؤمن بحدود الزّمانِ ولا المكانِ، ليُحلّق عائدًا إلى فخّار أُمّه، التي كانت حينها كعادتها في هذا الوقت من الشتاء أمام فرنها البلدي التقليدي، المُلتهبَة نيرانه من تحتهِ ومن فوقه، فالشّتاء بعِزبةَ تونس صباحِه دافئٌ وليلهُ بارد جدًا، يراها

تُخرج آخر قطعة كبيرة من الفطير المْشَلتِتْ[1] بلونهِ الذهبي ورائحتهِ المشهّية والمُغرية.

كانت كثيرًا ما تجمعها لقاءات مع نسوة القرية يتبادلن فيها الأخبار، يجتمعن حول إبريق من الشاي بالنعناع، الموضوع على منقدَ نار مملوء بالجمرات الحمراء الملتهبة، يغازله ذلك الفطير الساخن، بجنبة بضع فناجين فارغة تنتظر أن تمتلئ، أخيرًا التقطت أمّ خالد فنجانًا من بين تلك الفناجين تملؤوه شايًا ساخنًا، تناولها ابنها البعيد، حتى قامت ياسمين تهز خالد، تعيده من سفره الروحي الغارق في العسل. ابتسم لها وهو يلعُق شفتيه، كأنّه يتذوق فطير أمّه، وشاي أمّه.

- أين سافر ابن العم؟

اعتدل في جلسته ليجيبها..

-صدّقيني قد سافرت إلى أمّي! إلى تلك التي قال فيها محمود درويش شعرًا..

-ماذا قال يا حبيبي؟

-أتحبين الشعر؟

---

(1) من أشهر فطائر المطبخ المصري، يُشبه المْسَمّنْ الجزائري أو المغربي.

-من شفتيك الحُلوتين أكيد!

إذًا اسمعي...

-أَحِنُّ إلى خُبز أمّي..

وقَهوةُ أمّي..

ولمسَةَ أمّي..

وتكبرُ في الطُفولة..

يومًا على صدر يوم..

وأعشقُ عُمري لأنّي..

إذا مِتُّ..

أخجَلُ من دمْعَ أمّي..

اغرورقتْ عيناهُ فأخفاهما بيديه عنها خَجلًا، اِضطرّها للتوقُف في أقربَ مَكانٍ، نزلت من مقعدِها متُّجهةً جهته تفتح بابه، تُمسكه من يده تُخرجه من عالمه، لتحضُنَهُ بشدّة وكأنّهُ طِفلٌ يشتاقُ لِريفِ أُمِّه وقهوة أمّه!

-لا عليكَ حبيبي، أعرف جيدًا أن فراقكَ لهَا وللبلد شيءٌ صعبٌ في بدايته! لكن تأكّد أنّي سأُعوّضُك من الحُبّ والحَنان ما لا طاقة لكَ به! فإن كان دَرْويشُك اِشتاق لخبزِ أمّه وقهوَة أمّه، فياسمين

كذلك اشتاقت لعيونِ خالدٍ ولمسة خالدٍ وعشق خالد. فقد كبَرتْ تلك الطِفلة وكبُر الحُبَّ عِندها، يومًا بعد يوم، لستُ أخجلَ مِن عِشقي لكَ، فأنتَ حَبيبي وحُبّي قُدُسيّ لا أبُوحُ سِرّهُ سواكَ!

أيُّ عشقٍ وأيَّ بوحٍ يلملم كلَّ هذا الانفجار! أكيد هو عِشقٌ صعيديٌ بألوانٍ غرناطية زاهيةٌ تَتراقُص كلماتها أمام هذا المُسافر الصُوفي التائه.

ابتسم، وراح يضمّها بدوره بِشدّة للحظات طويلة حتى سُمعَ بوق السيارات المارّة من جنبهما، ضحكا لذلك الموقف المحرج. خليطٌ عجيبٌ، قد جمَع الدّمعَ بالضَّحِكِ، لتعُودَ فتمسحُ دُموعها ودمُوعهُ لينطلقا من جديد، عائدين من جديد إلى ذلك الحلم السائر بهما بسرعة جنونية.

نظر إليها بعد أن تذكّر قولها..

-أصبحت شاعرة وحسّاسة أيتها الغرناطية الفاتنة!

لتردّ عليه..

-لا أبدًا، بل حُبّك هو منْ أفقدَني عَقلي..

كان دائمًا ما يرى في لِقائهما مُعجزة طالما آمَن بها، وها هو اليوم في طريقه إلى ريف غرناطة، يعيش ذلك الإعجاز في العشق.

وصلا أخيرًا البيت، أين تُقيم زوجة عمّه -أم ّياسمين، كانت بانتظارهما تلوّح بيديها، تُطِلُ من نافذتِها المُطلّة على الشارع. ليلة سادتها ذكريات أمّ ياسمين الغرناطية الأصيلة، وحكاياتها عن زوجها المتوفّي، وحنينها إليه وإلى ماضيها البعيد، كان خالد استسلم للنوم من فرط التّعَب وحكاياتَ الحنِينِ التي لا تنتهي، اقتربت منه ياسمين تُغطيه ببطّانية شتوية تمنعُ عنه البرد، جلست بالقرب منه مُبتسمةٌ، مُستغربة نومَه الطُفولي الغريب. لتجيبها أمّها عن ذلك الاستغراب..

-هُوَ ذلكَ طبعُ أبناءَ- عزبت تونس- يا بنيتي، ينامُون بهذه الطريقة العَفوية، خاصّةً إنْ كانَ الجوُّ، جَوَ الحِكايات والذكريات، يصحبه بعض البرد. إنّه يُذكِّرُني بوالدك، فحين تعرّفتُ عليهِ بنفس تلكَ القرية، كان ذكيًا جدًا، ومختلفٌ عن سُكان تِلك المنطقة، حنونٌ جدًا، أحببتُه من ثاني يوم لي هناك، كنت سائحةً مغرمة برِيف تلك العِزبة، الذي يُشبه كثيرًا رِيفنا هنا، بل أروع بكثير، بعدها تزوجنا وعدتُّ به إلى هنا.

-كيف كان؟

-طيبٌ للغاية، لكن رغمَ مستواه الأكاديمي العالي، إلّا أنّه بقي يحِنّ لريفيته وتعصُبه، تلكَ كانتْ مأسَاتي معه..

لتكمل ياسمين..

-أظنّ أنّ هذا يُشبه ذاك!

استسلمت بدورها للنعاس، بعد أن أسْدلت شعرها الغجري، على الوسادة تأمَلُ في غدٍ جميلٍ ومختلفٍ.

بالغد، كانَ أوّل لقاءٍ لهُما جمعهُما وجهًا لوجه بمطل -سان نيكولاس بغرناطة، مع دهشة النظرة الأولى! فهنا بهذا المكان، لنْ تهتمّ أبدًا بالسرحَان في كلّ تِلك النظريات المُتعلّقةَ بالتّأمّلَ العقلي! بل الفضاء هنا غنيّ عن كل تلك التعقيدات المُملّة. لا محل هنا إلا للنّشوة وممارسة الجمال، وتبنّي البسَاطة المُريحة وارتشافَ خمرَ الهذيانَ الحَلال.

هُنا قمّة البيازين بغرناطة الحُبّ، مشهدٌ بانوراميٌ منفتحٌ على قصرَ الحمراء، ذلك السِّحر والعلّة في وجودَ هذا المكان المُبهرِ، جَوٌّ من الزمن الأسطوري الذي لم يعُد موجودًا إلّا هنا ببيازين العشقُ السَّرمديُّ، هو فعلًا فضاءٌ يختِمُ كلّ المواعيدَ التي عُقدت من قبلُ، وموعدَ اليوم يحْكي ذلك العَهد القديم الّذي كانَ بين جميلة غرناطة وذلك الريفي المُتمرّد في شُموخ.

كانَ خالدٌ وسط كل هذا، وكأنّه سُحرَ في ذلك المساء البانورامي الفخْم، تحتَ أنغام فِرقة هُواة الفْلامِنكو الغجريّ، الذين يبحثون عن المُتعةَ تحتَ صَخبَ رنين قِيثارتهِم الثائرة، غناءٌ يُرافقه إيقاعٌ مُمتع،

الناس من حولهم كانوا قد صَحِبوا معهُم مشروباتهم، يجلس بعضهم على بضعةَ كراسٍ مُترامية هنا وهناكَ، والأكثرية تفترش الأرضية، ليصنعوا من ذلك المَطلِّ فضاءً فريدًا ومُختلفًا تمامًا.

هنا فقط، ومن هذا المكانُ المدهش، ترى الزاوية الوحيدة التي تجعلك تأمل أجملَ غروب للشمس بالعالم! حيث تتَحرّش حُمرة الغروب الدافئة بحُمرة قصر الحمراء، لتخترقَ نوافذها المُغبرَة، والمُغلقة منذ زمن التسليم البائد، ليبدأ وجه الأندلس بالتشَكّلِ من جديد، منظرٌ يذكّرك حتمًا بمشهد غروب الشمس وأنت على مطلّ بُحيرة قارون بعزبة تونس.

المنظر هنا يغسِلُ بالسّحر أتعابُ الدّهرِ، هنُا الطبيعة تشربُ من كأس الطَرب، غُروبًا ورنينًا من العزف الأسطوري الخُرافي، الذي ولا بد له أن ينتحر هنا يومًا، فلا جَمال يعلو جَمال الحمراء المدوّي، إلّا جمال فخّار وخزفَ- إفلين، لتمُرّ آخر بقايا أشعة الشّمس على خُدود ياسمين، تستفزُّ صبرَ ذلك العاشقَ الولهانِ كأنّها تستدرجُ غيرته..

ابتسمت الساحرة الغرناطية لتنطق..

-ما رأيك، سحري أم سحر بيازينَ الحمراء؟!

كان قد تعلّق بندى شفتيها، يحاول أن يستفزّهما، يتجرأ على اغتصابهما، لكن كان وجود من حوله يمنعه، لا يحبّ أن يشاركه لذّته خيال إنسان آخر، لكنّه اُستفزّ كفايةً ليردّ بثقة وذكاء..

-أرى أن أُقيم لكُما حفلًا من الحُبّ الشّامي، فأعبثُ بكما كالمجنون.. ههه.

كانت دعوة صريحة للعبث الحميمي، لكنّ التاريخ هنا، يمنع العبث به وبقدسيته.

كانت تلك سهرة من الخيال المَخمريُّ، نَقلَ كلاهما إلى عالمٍ من الجاذبية الفيروزية التي لا تُقاوم أبدًا، بها الأيّام تمرّ بسِرعة جنونية، يرافقها التاريخ والحكايات الجميلة. حتّى يوم قرّرا فيه أخيرًا القيام بحفل عائلي صغير بمناسبة خطُوبتهما، في انتظار تحديد موعد الزفاف من طرف سلطات الحمراء!

هِيَ انطلاقةَ تألقٍ وثباتٍ لقصة حُبّ جمعتهُما، حكِاية جَميلة بدأت منذ أن كاناَ طِفلين بَريئين، لم يمنعهُما ذلك البُعدُ ولا طول المسافة- بين ذلك الريف الخَزفي البعيد، وبين سحر فلامِنكو الغجر- من أن تستمر لألأة ذلك العقد اللؤلؤي، وأن يشهدَ لهُما الجميع بذلك الاختلاف، علاقة كسرَت كل تلك الحواجز والأعراف الثائرة ضد

الحب بذلك الرّيف الهادئ، لقّنوا الجميع هناك وهنا درسًا في الحب، ذلك الذي لا يعرفُ ماضيًا كان، أو عُمرانًا افتراضيًا، أو جنسية بيضاء كانت أو ملوّنة، قِصّة ربُما يفوق جمالها قِصصَ الحُبّ المُكرّرة والمقررة في أذهانَ الفراعنة كقصّة رمسيس ونفرتاري، حين وصَف هذا الأخير حبيبته بخط فرعوني على جدار معبدها ب أبو سنبل فكتب..

«إنّها الفَريدةُ المحبوبةُ التّي لا نظيرَ لها، أجمل جميلات العالم، أنظرُ إليها كنجمةٍ متألقةٍ في العام الجديد، على مشارفَ عامٍ طيبٍ، تلك التي تتألّقُ والتي تبرقُ بشرتهُا بريقًا رقيقًا، ولها عينان ذاتَ نظرةٍ صافيةٍ وشفتانِ ذاتَ نُطقٍ رقيقٍ».

أمّا ببيازين غرناطة، فكان التاريخ يحفظ قصّة أخرى جميلة وخالدة هي كذلك، هي لابن السرّاج والفاتنة شَريفَة، والتي جَرتْ في ظروفٍ عصيبةٍ صعبةٍ ساد فيها التطاحُن، والتقاتُل والمُواجهات، وعشْعَشْت فيها الضغائنَ والأحقادَ بين مُختلف العَوائل، ومع ذلك انتصرَ ذلك الحُبَّ الحكيم، الّذي كان مُغلّفًا بالعفّة وموسُومًا بالصدقِ والوفاء وسط تلكَ الأجواء الحالكة.

أمّا اليوم فالقصّة مُميزة ومُختلفة تمامًا وفي كل شيء، حِكاية خالد وياسمين، وُلدتْ أحداثِها الأولى بذلك البيت الريفي التقليدي

المُتواضع لأمّ خالد، بعِزبة تونس، لتكتمل فُصولها على أرض الحمراء، أينَ تُخلّد كل قصص الحُبّ الاستثنائية فتموت كلها هنا لتحيا هناك.

كان موعد الزواج قد حُدّد بعد شهر، لينشغِل المُتيّمينِ بتحضير بيتهِما الصغير، الذي سوف يجمعُهما عن قريب، والذي اُختير موقعه بحيّ البيازين العتيق، لم تكُن التحضيرات بمستوى حفل زفاف كبير، بل حفلٌ متواضع صغيرٌ يليق بعقلية الحَبيبين اللذين يُريدان فرحًا يجمعُهما، بعيدًا عن فوضى الأعراس والرقص حتى الفجر، بل كانا يُريدان حفلًا يلمّهما ويكفُلَ لهُما الإشهارَ المشروط في مثل حالته الحالات، في حضور العائلة وبعض الأصدقاء وقلّة من المدعوّين.

ليلة الزفاف..

عادا لتوّهما من مقر بلدية غرناطة، رفقة الحضور، في مشهدٍ رسميٍ لزواجٍ مدنيٍ مُوثّقٍ، استأذن خالد ليغير بدْلة العرسَ العصرية، لتبقى ياسمين على فستانها الأبيض الناصع، بدأتِ السّهرة العائلية بشيء من الطّرب الأندلُسيّ الأصيل، وبعدها تبعه موسيقى ورقصٍ صعيديٍ، شارك فيه خالد بجلّابية والدهِ المُتوفّي، ليعود بعدها الهدوء نسبيًا، اِستأذن العَروسين ليغيّرا ملابِسهما، لكنّهما انسحِبا يتسحّبان كالسارقين خفية إلى الخارج، ركبا السيّارة لينطلق بها خالد

مُسرعًا وسط ضَحكاتٍ هستيرية لكليهما، أكيد أصابهما مسّ من الحُبّ الفرعوني المجنون، كان خالد يعيش ذلك الهبلُ الرومانسيُّ، وهو لا يصدق نفسه! كأنّه يُشاهد مشاهدًا من فيلمٍ أمريكيٍ أو هنديٍ رومانسيٍ هُما بطلاه بلا منازع! يُراقب بين الفَينَة والأخرى وهو يقود، مدى سعادة حبيبته وزوجته ياسمين، وضحكاتها العذريّة العسليةَ، حتى وصلا أخيرًا لمنزل الزوجية.

رافقها حتى باب المنزل، أين أوقفها يريد حملها بذراعيه ليدخل بها المنزل، لكنّها تردّدت قليلًا، فراحت تسأله..

-أمتأكّد ممّا تنوي فعله!

ليرد عليها بثقة..

-أجل.

لكن بعد المحاولة الأولى، قرّر أخيرًا أن يحملها على ظهره ليدخل بها رّدهةَ المنزل، كانت مُولعةً بجو الشُموع المُعطّرة، هي فتاةٌ مُنظمة جدًا، كانت قد حضّرت كل شيء من قبل، لتتناول ولّاعة من على الطاولة المقابلة لباب المدخل، تُشعل بها تلك الشُموع المُوزّعة في كل مكان، تُشعركَ وكأنّكَ بمشهدٍ رومانسيٍ سينمائيٍ، يُصوَّرُ بأحدثَ الآلاتَ التصويريةَ، ترافقها المؤثرات السمعية والبصرية التي تجعلك مندهش لتلك الدِّقة، حتى تصلَ لمستوى

الانبهار، لكن الشُّموع في ثقافة ذلك الصعيدي، لا تعني له الكثير بقدر ما تعني انقطاع الكهرباء المُتكرّر بقريته الريفية تلك البعيدة! لكنّهُ اليوم مُجبرًا في أن يتصالحَ مع عالم الشموع، ليدخل مِن خلاله صَرحَ حبيبتهِ المُضيء حتى السماء.

أوّل مرّة يجتمعان تحت سقف واحد، ليس هُنالِك من يمنعُهُما اليوم عن بعضهما البعض، إلّا مسافة الأمان، تلك التي طالما كانت تُؤرّقهما لسنوات من الحضْر، مسافة عليهما الليلة بالذّات أن يُهزِمانهِا بشيء من الشجاعة مع كثير من الحُبّ والحنَان والشموع.

شموع تتراقصُ خيوطُها القُطنية المُشتعلة، لتأْسرُ قلب ذلك العريس، ترافقها صرخة فيروز الحاضرة بينهما دومًا..

-بكتب اسمك يا حبيبي..

بكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيق..

تكتب اسمي يا حبيبي ع رمل الطريق..

كره بتشتي الدني ع القصص ل مَجَرَّحة..

يبقى اسمك يا حبيبي واسمي بينمحا..

كلمات أُغنية تحاكي ذلك الحبّ الأحمر الفاخر، الذي تُعبّر فيه العروس في هذه الليلة، عن وفائها لحبيبها، بعدما زرعت اسمه في سماء حيَّ البيازين، أين وُلدت، وعلى شجر الحور العتيق، كانت ما

تزال تحتفظ بالوردة الحمراء بين رسائله القديمة، التي تحمل غُبار ذلك الريف الساحر، لتُقرّر في حركة مفاجأة مسكَ يديه، تدعوهُ لمرافقتها في رقصة تلاحمٍ جديدة، على نغْم العِشق الهَائج، يتمايلانِ على صوت فيروز الثائر..

لتهمِسُ في أذنيه..

-أحبك، Te quiero..

تستفزّه فيرد..

-وأنا بعشَقْ أُمّكْ ههه..

ليعود فيضيف متسائلًا..

- أحلمٌ هذا الذي نعيشه أم من الخيال؟!

-هو كلاهُما يا حبيبي، حتّى أنّ قلبيَ ينبضُ بشدّة، يرُيد أن يطيرَ منّي بعيدًا!

اهتزّ للحظة..

- أتُحسّين بألمٍ ما!

-بلا، يطيرُ ليرحل إليك، فلن يكون الألمُ ألمًا إلّا إنْ كُنتَ أنتَ صاحِبُهُ!

عاد ليعانقها بشدّة، يُداعب خصَلاتُ شعْرها، يُمرّر أطراف أصابعه خلفَ رقبتها فترتَعشَ منهُ أطرافَها وكتِفَيها، يبدو اللّيلة مُصمّمًا

على القتال حتّى الموت، فحتى تلكَ القُبل السّاخنة المُتبادلة لم تمْنعَ إعلانهُما عن بدء المعركة الحقيقية، معركةُ العذريّة المرتعشة، لتنتهي بعد ساعات خيالية وحميمية مُتفجّرة، يتخلّلُها بعض الشِعْرِ والحُبّ، كانا في غاية الانسجام والسعادة لآخر لحظة، ليُختتمَ المشهدُ بعناق جميل، لم تستطع حَبس دُموعها اللؤلؤية الخجِلة التي راحت تُخفيها عنه، بشعرها المُتدلّي على جانبي خدّيها، لكنّ ضوء الشموع المُحترقة -ممّا ترى وتشهد- كشف بريقها له. نظر إليها بحنان العاشق الفرعوني الخارج لتوّه من جنّة الخلد، تناول منديلًا ومسحُ بِهِ دُموعها من على خدّيها ليهْمسُ لها..

-ما بها حبيبتي؟!

لتردّ عليه بصوت عذري رقيق..

-لا شيء حبيبي، هي الفرحة فقط والغبطة ما يعبثُ بي!

ضمّها إليه بشدّة مُضاعفة، حتّى أنّه شاركَها تلك الفرحة والدموع، لينامَا على وقعِ فجْرَ ذلك اليوم كعاشقين لمْ يَشهد لِحُبِّها ليلٌ قبلَ تلِك اللّيلة.

الفصل الثالث

بعدَ مُرور أيّام قرّرا الخُروج بهدف التغيير بعيدًا جو المنزل وأكل الديليفري، لكنّ غرناطة الحبّ، صمّمت أن تكون قاسيةً في عيدِ حُبّهما، تُريهما هديتهما، فتكشف لهُما عن وجهها الآخر، عن حقيقة المهاجرين غير الشرعيين بإسبانيا، تلك الحقيقة الغائبة عن مفهوم خالد لتاريخ الأندلس الحالي، حقيقة مرّة تنمُّ عن مفاهيمٍ أدنى من مُفردات الذُّلِ والدُونية والإحبَاط.

وهو يتسلم هديته راح يتساءل بينه وبين نفسه..

-ما أقسى الوطن حين يُصدّر أبناءه إلى المجهول!

نعم مجهُولٌ يجعلهم يعُودون مُجرّد أرقامٍ في مزارعٍ فلاحيةٍ يُتعامل معهم ليس بناءً على أسمائهم الشخصية، بل من خِلال ذلك الرقم الذي يحتفظون به، فيُنادوا به وتُدفعَ لهم أجُورهم من خلاله، وحتّى حين يُسجنوا أو يُرحّلُوا، يكون ذلك دائمًا بنفس ذلك الرقم الغامض!

أيّ حظّ حالفهُم حتّى بلغوا هذا البلد ذو الوجهينِ المُتناقضينِ، وتاريخٌ أسطوريٌ عريق! ليُضيعُوا في مساحات فلاحيةٍ حيث يمنحُ

لهم صاحب المزرعة بيتًا مُنعزلًا، وضيعًا مُلحقًا بحقُوله لا يحتوي على أدنى مُستلزمات الحياة الكريمة التي كانوا يحلمُون بها! يُذكّرك كلّ ذلكَ بأفلام هوليوود، عن مُعادلة الزنوج والبيض، في تلك البدايات المُتكررة في كلّ مكان.

تلكَ هي غرناطة، مدينة العِشق والهُدوء، مسرحُ الحاضر والماضي، التي ينتابُها بعض المرّات شغب الجيل الجديد من أبناء المُهاجرين، فتُحاول مسحَ علاماتِ ذلكَ التوتُّر وذلك الغليَان من على وجهِها الصبُوح، الذي تعلُوه أطيافٌ وألوانٌ مختلفةٌ، لثقافاتٍ ولغاتٍ، وأعراقٍ، ومعتقداتٍ عِدّة، لكنّ إخفاءُ التجاعيد عن وجهٍ جَميلٍ يُعتبرُ خَطيئةٌ لا تغتفر. نعم خطيئة في ظلّ اختصار وجود الإنسان في مجرّد رقمٍ غامضٍ وصامت! فكُلّما عادَت غرناطةَ الحمراءُ إلى صمتها المُطْبّق -الذي يُشبه ذلك الصّمت الذي يعقُب العاصفة أو سكوتها المُهيب الذي يُمكنُ وصفَهُ بسكوتِ النّهر الذي لا ينبغي الوثُوقَ بِه- حتىّ يعُودُ حضُور وتنَامي ذلكَ اليمينَ المُتطرّف على أبواب الحمراء الشاهدة على التسليم الأوّل.

عاش خالد لسنوات أربع، وسط كلّ ذلك التناقُض، بين الحُبّ الجُنوني والرفض المُبهم، بين سِحر الحمراء وتزاحم ضَيعَاتِه بالأرقام! ليعُود فيجْلسُ على كرسي نفس الطائرة السابقة التي جاءت به إلى هنا، عائدًا إلى ريفَ أُمّه وقهوة أُمّه!

وضع كتمان هاتفه على أذنيه لينْعزِل عن العالم الذي لم يعد يهتمّ له، اِختار لِحزنهِ أغنية الأسطورة- الدُكَالِي، المُغنّي المَغْرِبي الكبير..

..أنا والغربة ومكتابي، عايش جوال...

لا تقهرني بحور الشوق..

ولا توقف في طريقي جبال..

رمال الصحرا عارفاني...

وأرض الله...

وصوت الحب ناداني..

وتهت وراه...

عيونٌ مُحمرّة بها عبرات يُحاول مُداراتها، يخفيها عبثًا، فالحزن حين يُغطّي على وجهك وأنتَ عائد من بعيد-منهك القوى، تأنّ نفسك فتضيّق عليك تنفسك- مستحيلٌ أن تُداريه أو تُلونه بألوان لا تحمل حزنك. يعود اليوم وقد فارق حبيبته وزوجته بعد خِصام أدّى إلى طلاقهما مرتين خلال تلك السنوات الأربع، كانت حالته النفسية مُزرية للغاية، مُكتئب جدًا، تضيقُ عليه الدنيا حتّى أن السحاب اسودّ من حول نافذة الطائلة التي ينظر منها إلى ذلك العلُّو الشاهقِ من السّماء، كان قرار عودته يبدُو قرارًا صعبًا جدًا، تاركًا وراءهُ قِصّة حُبٍّ

تنزفُ بشدّة، وابنةً معاقةً ذات الثلاثِ سنوات، المسْكينة لن تعي أبدًا، ما جرى بين والديها، بعد كلَّ ذلك الحُبّ الأسطوريُّ الهائل!

لم تكُن حالةُ ياسمين بأخفَّ وطأة من حالتهِ، بل ربُّما أتعسُ وأعمق منه، خاصّة حين تنظُر لبراءة اِبنتها فيروز-تلك الصعيدية الصغيرة- وهي تلعبُ أمامها، تتخيّلها تسألها..

-أين أبي؟ لماذا لم أعد أراه؟!

يتقطّعُ قلبها لمجرد تخيّل ذلك الصوت الفيروزي الرقيق، فتنفجر باكية، بكاءً هستيريًا بعيدًا عن عيون طفلتها، أكيد تُحسّ بمرارة الفشل، ذلك الذي تتقاسمه مع ابن عمّها في صمت!.

وصل أخيرًا إلى مطار القاهرة بعد رحلة طويلة ومُتعبة جدًا، لتحُطّ به بعد تأخير ساعة عن موعدها الرسمي، لم يكن ذلك التأخير قد صَنع أيّ ردّة فعل عِنده، فقد كان يسبح في سماء عالم آخر مُغايرًا تمامًا، سماء تجمعُ بين ماض قريبٍ لم يستسِغ بعد حجم فشله، وبين مستقبلٍ لا يتوقعُ منهُ الشيءَ الكثير! وضع قدمه على أوّل المَمرّ المُؤدي للمطار، الشمس مُلتهبة بالخارج، في ذلك اليومَ من أيام صيف القاهرة القائظ، تنهّد تنهيدة طويلة تنُّم عن تيهٍ عميقٍ وتثاقلٍ بنفسه، كأنّه لا يرغبُ في أخذ ذلك الطريق الذي سوف يفضح فشله آجلًا أم عاجلًا. أنهَى كل إجراءات المُراقبة وسطَ ازدحامَ المسافرين

الكثيرين، كان كل واحدٍ منهم يريد أخذ مكان استراتيجي ليلتقط حقائبه في أسرع وقت مُمكن، ليخرج من زحمة المكان، إلّا هو، قرّر الجلوس ومراقبة ذلك المشهد من بعيد، لم يكن مُضطرًا لدخول معركة الدائري المملّة، فقد حسم أمره على المَبيتَ تلك الليلة بالقاهرة، يشعر بأنّه جدّ مُرهق ومُتعب نفسيًا ولا يريد أن تراه أمّه وهو في تلك الحالة السيئة. استلم أخيرًا حقيبته، ليخرج وقد تذكّر أوّل مرّة غادر فيها هذا البلد منذ أربعَ سنواتٍ مضت، ليعود اليوم بنفسَ تلك الحقيبة الأولى، لكن بوجه مغاير تمامًا، وقف لحظاتٍ يسحَب فيها شهيقٍ يتبعه نفيرٌ من الزفير المُتقطّع، كادت عَبراته تخنُقه، لولا أنّه ضبَط حسرته، ليسجُنها بداخله في انتظار القادمَ المجهول.

ركب سيارة أجرة توصله إلى أحد فنادق المدينة..

-عودة ميمونة يا باشا..

-شكرًا..

-الأمور هناك تمام..

-.....

حاول السائق أن يفتح معهُ حديثًا لكنّه فشل فصَمت، كان يتأمّلُ الوجُود من على نافذتِه، وسط تلك الحرارة الخانقة، أدرك أن ما ينتظِرهُ لا يبعدُ كثيرًا عن مُعاناة هؤلاء جميعًا.

كانت ليلة تعيسة وثقيلة على قلبه إلى درجة الغثيان، لم يتناول أيّ شيء، ما كان يهمُّه هو النوم، تلكّ الوسيلة الوحيدة، التي تحنّ عليه ليهرب من خلالها من فشله لساعات طويلة دون أن يفكر أو يهتمّ لشيء، كأنّها بداية الهروب من كل شيء يتعلق بالماضي الحزين، لكنّه رغم التَّعب، لم ينم إلّا مع حلول فجر اليوم التالي، لم يكن يُصدّق ما حصل له! كأنّ لعنة أصابت ذلك الحلُم الأوّل الجميل، أم هي هَبّة ريحٍ قويةٍ أتتْ على كل شيء لتنثُرهُ بعيدًا على أرض الحمراء!

الساعة 12 :00

خرجَ من ذلك النزلِ، مُتوجها إلى أقرب مقهى، في طريقه اشترى جريدة يومية، يُحاول أن يعرفَ الأخبار، لربّما تُساعده في أن يتأقلم مع وضعيته الجديدة، جلسَ على الطاولة بعد أن ركنَ حقيبته أمامه، طلب شايًا، هي عادةٌ قديمةٌ في أن يجمع بين الشاي والجريدة، يُمضي بهما بعض الوقت، مُستمتعًا بتلك التوْليفَة- حين كان يعيش بالقاهرة أيام الدراسة الجامعية- فيعود بذلك إلى ذاكرته السابقة بعد أن أنسته غرناطة طبائعًا كثيرة، لكنّه فشل حتى في هذا، فقام من مكانه مُتذمرًا يشُكو نفسهُ لنفسهِ.

تحت أشعّةَ شمس حارّة، راح يوقف تُكْتُكًا كان مارًّا بجنبه، ليوصله ناحية ميدانَ لُبنان، أين حجَز على أوّل باص يذهبُ لقريته،

وهو داخل تلك الحافلة، تذكّر فجأةً ملامحُ فتاةٍ من الجيزة اِسمها هاجَرْ، كانت تدرسُ بالقاهرة بكلية الطبّ، قد تعرّف عليها هُنا بهذه المدينة التي لا تنام، تذكّر سنواتٍ طويلة أمضاها بشوارعَ القاهرة وأحيائهَا، لكن حُزنه اليوم كانَ أكبرَ من أن يحِنّ لأيّ شيء، لتنطلق رحلة العودة. جلس بآخرِ الحافلة لربّما يداري خيبته، وراح يعيد شريط ذكرياتهِ الّذي أصبح يُعيده في الساعة ألف مرّة، لدرجةِ أنّه نسيَ الواقعَ الذي هو مقبلٌ عليه، تذكّر كذلك والده الذي رحَل عن الحياة منذ سنوات طويلة مضت، كان رحيله حينها قد كسَر ظهرهُ، أعانه بعده رفقة أمّه وأخيه.

وصل بعد ساعتين تقريبًا، نزل أخيرًا وسطَ خليطٍ من السياح والزّوار الذين يأتون عادة لزيارة سحر المَكان، بدأ يشُمَّ رائحة العَبير الصّافي الذي يمتزجُ بروائحِ الخُبزَ الطازجِ التي تملأ جَنباتَ المكان، ليتقدّمَ بطريقٍ تنتشر فيه الأواني الفخّارية المُزخرفة بألوان وأشكال رائعة، مُبهجة وعصرية، لم يكُن باستطاعته التغافُل عن مَحبّة أهل القرية له، وهم يُسلِّمون عليه مرحبين..

-مرحبًا يا حْبَيِّبْ..

وقفَ أمام باب بيتهم الخشبي أزرق اللون، يتأمّلُه بسكون وصمتٍ متواصلٍ للحظات طويلة، وكأنّه مُترددٌ في أن يدُقّ بابه!

رفع يده أخيرًا فدقّ الباب بنفس طرقهِ المُعتاد، تخيّل لوهلة صوت والده ينادي..

-مينْ علْ البابْ؟

فُتح الباب ليجدَ نفسهُ وجهًا لوجهٍ أمام أمّه، مُبتسمة على وشك البكُاء، احتضنته بشدة، استفزت دموعه، فأجهش بالبكاء كأيّ تائه عاد ليجد أهله بعد عناء طويل! أو كالدرويش الذي كثيرًا ما اشتاق لخبزِ أمّه ولقهوة أمّه. كانت كلّما ضمّته لصدرها ترتعش، كأنّها تحسُّ نبض حزنه وألمه الخفي، لتمسكه من يده لتقول له..

-تعالى يا ولدي، ادخل واترك عنك البكاء.

رافقتهُ إلى داخل غُرفة الاستقبال دون أن تسأله، مسحَ دموعه ليسرح للحظات بنظرهِ داخل الغرفة، كانت تراقبه دون أن تزعجه لتضيف..

-أكيد لم يتغير شيء منذ ذهابك يا ولدي.

راودهُ السّؤال عن أخيهِ، لكنّه فضّل الاستفسار عن شيء آخر تمامًا..

-خُيِّل لي أنّك قبل أن تفتحي لي الباب، كنتِ قد عرفتي أنّني أنا الطارقُ، أليسَ كذلك يا أمّي؟!

ابتسمت لتطمئنه..

-يا ولدي، أنا أحفظ دقّكَ للباب كما أحفظُ رنينَ نبضاتَ قلبكَ تمامًا، وأكيد إحساسي بكَ لم يُخيّبني يومًا ليخُوننيَ اليوم!

ابتسمَ بشيء من الحزن ليقول..

-أين مْحمّد؟ أما يزالُ غاضبًا مِنّي؟!

-لا، لا أظنّهُ كذلك، عادةً لا يتأخّرُ في العودَة! أاتركنا منهُ الآن، وقل لي ما لي أراك شاحبَ الوجهِ، حزينَ النفسِ، متُعبَ الجَفنين؟ ولماذا لم تُخبرنا بموعدَ زيارتك؟ وأين بنتَ عمّك؟

-مهلًا يا أمي، ما كلّ هذه الأسئلة!

أكيد وجد نفسه أمام أسئلة لا يريد الإجابة ولا على واحدة منها، لكنّه لن يستطيع إخفاء شيء عنها، يعرفُ جيدًا أن إحساسها عالٍ جدًا كأي أم، إضافة إلى أنّ تعابير وجههُ قد كشفتهُ أمامها. لذا حكى لها ما وقع له وما عاناه طيلة تلك السنوات، بحُلوها ومُرّها-كان قد أخفى عنها كل ذلك خلال مهاتفته السابقة- عن ذلك الفشلَ والألمَ والمعاناةَ التي كان يتقاسمُها مع ابنة عمّه.. لم تستطع حبسَ دُموعها، بعد أن أحسّت بألم قد سكَن أضلع ابنها فاخترق فؤادها.

ليضيف..

-كم أنا فاشلٌ يا أمّي، فشلتُ في كل شيء! حتّى أنّي أبٌ فاشلٌ بكل المقاييسِ، تركتُ ابنتي فيروز هناك، وهي كما تعلمين، مُعاقةٌ لا تحتملُ المزيد من الألمَ والخيْبةَ!

كانت حسرتهُ -وهو يصف لها ما كان يُسميه فشَلًا- حارّة ومرّة، لم تتحمّل أمّهُ المسكينة ذلك الحزن الصارخ، تلك أوّل مرّة تراهُ في تلك الحالة الشَجيّة الصّعبة، لكنّها تحمّلت عبءَ نارَ حُزنها عليه، فحبسَتْ دُموعها لتواسيه..

-هوّن عليك يا ولدي، حالك من حال الدنيا! ما رأيتهُ، هو غَمٌّ ساعةٍ وسوف يزول بإذن الله تعالى، لكن لي سؤال لا أقدرُ أن أمنعَ نفسي عنه..

كانت -رغم أميَتها- ذكيّة بالفطرة..

-هل ما زلت تُحبّها يا ولدي؟!

رفع عينيه مبغوتًا، به شيءٌ من الاستغراب، وكأنها ذكّرته بشيء كان طوال سفره يحاول محيُهُ من ذاكرتهِ المتعبة، ليردّ على فِطرتها تلك..

-الحقيقة يا أمي لم أنسها بعد، تعرفين ماذا تُمثّل لي ابنة عمّي..

-وهل تحِنّ لها؟!

-لا أعرف! رأسي توقّف عن التفكير تمامًا، لكن قلبي يلُومني ويؤلمني بحُرقة..

-بماذا يلومك يا ولدي؟

-أنّي لم أُحبّها كفايةً لأصبرَ عليها أكثر!

- إذا اترك الأمور تأخذ وقتها ولا تتعجَل الأمرَ يا ولدي.

دخل أخوه مَحَمّدْ عليهما فجأة، وقفَ مكانهُ مضطربًا، وقد تغير لونه حين شاهد خالد جالسًا بجانب والدته، لكنّه تقدم وعانقه مُتمتمًا ببعض الكلمات مُرحبًا به، كان ذلك اللقاء والحديث الذي دار بينهما لدقائق قد أضَاف لمعاناة خالد معاناة إضافية، القصّة القديمة كانت ما تزال، تأخذُ حيزًا واهتمامًا كبيرًا من فكر الأخ الأصغر! لم يكُن أبدًا راض عن كتابة عقد ملكية البيت العائلي باسم أخيه الأكبر، الذي لم يكن له يدًا في ذلك، فعند وفاة والدهِما كتبتْ أُمّهما المنزل باسم ابنِها البكْر، لكن عندما كبر مْحمّد، لم يستسغ ذلك، حاول خالد أن يُصحّح الأمر إداريًا، لكنّ أمّه عارضته بشدّة حينها، كانت تخاف من طيشَ ابنها الأصغر! ومُنذُ ذلك الوقت بقي الوضعُ على حاله، وبقي مْحمّد يحملُ بقلبه بعضَ الضغينة لأخيه.

كانت ياسمين في الجانب الآخر من العالم، ضيفة عند أُمّها بريف غرناطة، صارت بلا هدي وكأنّ روحها فارقتها، صامتة طوال الوقت، فقدت تلك الابتسامة السحرية وذلك الجُنون السابق..

-هوّني عليكِ بنُيتي، الأمر لا يحتمل أن تُحمّليه فوقَ طاقته، ألا تُريدين أن تُعيدي لي ما حصل بينكما؟ هي ليست المرّة الأولى التي تتَخاصمان فيها، أليس كذلك؟! قد حدث الطلاقُ من قبل وعدتُما بعدها، واليوم يتكرر نفس الأمر! لا أريد أن أفتح عليك الجِراح، لكن حاولي أن تُفضفضي معي لترتاحي.

لم تتحمل كلام وأسئلة أمّها الكثيرة، لتصرخ فجأة في وجهها..

-أنتِ وأبي السبب في كل ما حصل لي، وما سوف يحصل!

لتحمل ابنتها وتغادر عائدة إلى بيتها بغرناطة في عصبية شديدة، رغم أنّ كل شيء هناك كان يذكّرها به، حتى أنّها فكرت بتغيير المدينة لكنّها فشلت، كان هنالك شيء يمنعها من ذلك.

بعد مرور أشهر من ذلك الفراق، أصبحت حالة خالد تتأزم يومًا بعد يوم، كثيرًا ما تراه أمّه يُحدث ابنته وكأنّها أمامه! يلُوم طليقته وكأنّها بجانبه! أرعبها ذلك المشهد كثيرًا وأثّرت فيها حالته! لكن الأمَرَّ والأصعبَ من ذلك، هو ما وصلها من حديث الأقارب والجيران، من أصحاب القلوب الضيّقة والضعيفة، كانت تأويلاتهم لأزمة ابنها وطلاقه من ابنة عمّه، جارحةً جدًا، حتّى أنّها وصلت مسامعه، أقاويل تخوض في عرض من أحبّ وتزوج، جنّ جنونه، أصبح لا يُجالس أحدًا، ويتحاشى لقاء النّاس بالقرية، ورغم كل ذلك الحزن، حاول

مرارًا أن يعود فيتأقلم من جديد مع ريفية عقول بعضهم، وتحجّرها وتعصبّ بعضهم، أكيد أنّه يعرف طيبتهم وعفوية كلامهم، لكنّه فشل في العودة إليهم، بعد أن كان قد تعوّد على تفتّح الغرناطيين ومعاملتهم الحسنة له، وتعوّد بالأخص على رؤية ابنته.

أصبح يعيش الملل والرّوتين القروي المُملّ، لكن بعد شهرين من ذلك، ووسط تلك الظروف النفسية الصعبة التي كان يعيشها، تواصلت معه ياسمين تحثّه على العودة، إن لم يكُن لأجلها فلأجل ابنتهما التي أكيد تحتاج لكليهما معًا، في البداية لم يهتمّ لتلك الرسائل الإلكترونية، وتلك الاتصالات اليومية، كان كلّما تذكّر ذلك العِناد والخصام وتلك المشاجرات اليومية، ينفرُ قلبه فينسى أمر العودة، لكن إصرارها لأيام متتالية- يرافقه اشتياقه لابنته- كان كل ذلك قد أعاد له بريقًا من الأمل، وسط فشله في التّأقلم وهوسه بحبّها، الذي صار محبوسًا بداخله يطالبه مرارًا بالحرية، فيرجع لنفسه من جديد يخاطبها..

- لربّما تكون قد تعلّمت ممّا فات، فينصلح بذلك حالها!

بل بعض المرات، كان يُخيّل له أن ابنته تناديه..

-عد يا أبى فيروز، أنا محتاجة إليك، لقلبك الحنون ولوجودك بيننا! تعرفُ أنّني لا أستطيع المشي لأزورك! فأنا معاقة! أراك تخجل من كوني معاقة؟!

كم كان ذلك التخيّل يفترسهُ، يُبكيه لساعات وربّما لأيام متتاليه، لكن بعد شهر من ذلك اشتدّ عليه الحُزن والاشتياق، فقرّر أخيرًا العودة مرّة ثانية مُودعًا أمّه وأخاه، كان يبدو عليه التفاؤل والأمل.

الفصل الرابع

تكرّر نفس سيناريو ذلك اللقاء الأسطوري الأوّل تمام! نفس ذلك العناق والقبلات الحارّة، مشهدُ من البهجة والفرح، يعانق ابنته فيروز المبتسمة في وجهه، ربّما بسبب إعاقتها تجدُها أقلّ انسجامًا مع ذلك المشهد، عكس أيّ طفل في سنّها، لكن ذلك لم يمنعها من أن تلمس شوق والدها وحبّه لها وهو يداعبها، يُدغدغ أطرافها الصغيرة فتضحك ضحكتها الرائعة، بوجهها الملائكي الجميل، الذي أخذ ملامح ووسامة والديها في مزيج صعيدي عجيب ومذهل.

يقترب من وجهها يلتصق به ليهمس لها..

-اشتقت لحبيبتي الصغيرة..

ليعود فيحضنها برفق، يقبّل خدّيها وشفتيها ثم يديها، ليلتفتَ أخيرًا لأمّها التي تراقب المشهد مُبلّلة الجفنين، يقترب فيهمس لها بأذنيها..

-اشتقت لك يا أم فيروز..

فتردّ بخجل..

-أنا كذلك..

ليعود فيشحن نبرتها..

-أنت ماذا؟

تضحك لترد..

-اشتقت لأبى فيروز..

عادوا إلى البيت الذي جمعهم لسنين أربع طويلة، بحلوها ومرّها، لكن يبدو كأنّه ينتظر ردًا معينًا يصدر عنها! لربما الاعتذار له مثلًا! أو أن تفتح نقاشًا لسبب خلافهما الماضي!

معروفٌ عن الرجل أنّه لا يستطيع على العموم، الانتقال من مربع حديث إلى آخر، إلّا إذا أغلق الأول، عكس المرأة تمامًا، فهي تملُك قدرة عجيبة في أن تفتح عشرات الملفات، وتتحدث فيها دون أن تضطر لإغلاق أيّ منها، دماغها كالشبكة العنكبوتية تمامًا.

كانت توحي له بعدم رغبتها في العودة إلى الحديث عن الماضي.

اختلافٌ واضحٌ في تحليلهما للأمور والتعامل معها، ربّما هذا طبيعي، لكن الشيء الأكيد والواضح في طبيعتهما تلك، هي قوّة شخصية كلٍ منهما، وكذلك محاولة كل منهما السيطرة على بعض المواقف! أكيد أمرٌ مخيفٌ وغير صحّي تمامًا، يُعمّقهُ ذلك الاختلاف في الطبائع والتربية والبيئة.

تفطّن خالد لهذا العائق، فقرّر أن يكون المُبادر في الاعتذار كرسالة غير مباشرة لها..

-آسف حبيبتي قد كنت قاسٍ جدًا معك في ما مضى..

لتردّ عليه برقّة..

-لا بأس حبيبي، نحنُ أبناء اليوم.

اغتاظ من ردّها البارد، لم يستطع تفويت الأمر أو الصبر عليه أكثر من ذلك ليضيف..

-أنت كذلك عليك أن تعتذري عزيزتي! أليس كذلك؟!

لتجيب تصميمه بشيء من العصبية..

-لكنّي لم أفعل شيئًا يستحق الاعتذار! كنت دائمًا أردّ على كلامك الجارح لي فقط!

تعصّب أكثر...

-وهل كان يصيبني الجنون هكذا دون سابق إنذار! أكيد أنتِ من كان يستفزّني، تمامًا كما تفعلين اللحظة..

عادت تلك النقاشات تسكن يومياتهما رغم ذلك الحبّ، يتصالحان لأسبوع، ثمّ يعودان فيتخاصمان لأكثر من أسبوعين، في خضم ذلك، عاد هو لعمله بإحدى المدارس الخاصة كمدرس

تاريخ إلى جانب عودته لتحضير مذكّرة التخرج التي كان قد أجّلها بسبب مشاكله معها، مُذكّرة اختارها أن تكون عن تاريخ غرناطة بين الماضي والحاضر! يبدو أنه يشبه مدينته المدلّلة في أجزاء كثيرة من شخصيته، أكيد أنّ الوقت كفيل بأن يكشف لنا، وجهُ الشبه الغامض بينهما! أمّا ياسمين فكانت تذهب بعد انتهاء عملها- كمعلمة بالصف الإعدادي الحكومي- مباشرة لتستلمَ ابنتها من الحضانة، كان كثيرًا ما يغيب طوال اليوم، لم يكونا يلتقيان إلّا بالمساء، ومن عنادهما صار الخِصام يأخذ وقتا أطول مع الأيام، كلٌّ منهما ينتظر مبادرة الآخر، كانت مبادراتهما القليلة للصلح، لا تكفي لكي تجعل الأمور تستقر بينهما، ومع الوقت انعزل كل منهما في عالمه الخاص، تحت سقف واحد وفوق سرير واحد، لكل منهما عنادٌ يتملّكه.

كان كثيرًا من المرّات لا يجد طبخة بالبيت، ليضطرَ لتحضير الأكل بنفسه، كم كان يُغضبه ذلك كثيرًا وهو الذي تربّى في بيئة ريفية مُحدّدة المعالم، الرجل فيها يتعب ويشقى والمرأة هي من تتكفل بشغل المنزل، قرّر بعد مدّة أن يغيّر من أسلوبه أملًا في أن يغير شيئًا من يومياتهما البائسة، فقام بتحضير طبقًا من الكشري الشهيّ، مجهزًا طاولة الطعام يزيّنها بالزهور والشموع ليطلق العنان بعدها لصوت فيروز، تقدم واقفًا أمام غرفتهما، كانت الصغيرة بالغرفة المجاورة

نائمة بسلام، استأذنها بالدخول بعد أن طرق باب الغرفة، دخل بهدوء وقلبه يكرّر عليه نبض حبّها، كانت مستلقية تقرأ كتابًا، وما أن رأته يقترب منها، حتى وضعته جانبًا، جلس على حافة السرير يتنفس ببطء، لم ينطق ببنت شفه، بل لامسَ يدها، نظر لشفتيها فإذا به يلاحظ اهتزاز شفتها السفلى، يعلم جيدًا أنّ تلك العلامة اللا إرادية، تعني الضوء الأخضر لممارسة الرغبة الحميمية.

كانت ساعة من الحبّ والثورة، قد أنهت ذلك الخصام الطويل والمملّ، ليعودا فيجتمعا على طاولة الشموع يُرافقهما طبق الكشري الذي أعاد تسخينه، لتعود بعدها المياه لمجاريها.

لكن لم يدم ذلك التصالح-كالعادة- إلّا أيّامًا معدودات، ومع الوقت صار لا يتحمّل تصرفاتها وإهمالها له، كان قد حفظ عنادها جيدًا، كما كانت تعرف ماذا يريد منها بالضّبط. فكثيرًا ما كانت تردّد عليه -أثناء تلك المناوشات التي تؤدي دائمًا للخصام-أنّها ليست كنسوة الريف اللواتي يعرفهنّ في قريته، وليست خادمة عنده! بل امرأة حرّة مثله تمامًا، لا يوجد فرق بينهما البتّة.

كان ذلك الكلام يستفزه كثيرًا، ويحزّ في نفسه ..

يبدو أن مشكلتهما لها جذور نفسية عميقة، زادها العناد تأزمًا! فكلاهما لم يتغيّر فيه شيء رغم الفراق الأخير، وكلاهما أيضًا يعاني

بصمت وأنانية، ليعود ذلك الصمت البشع واللا مبالاة تسكن البيت لأيام طويلة، هي أكيد ليست المرّة الأولى، لكن هذه المرّة قرّر خالد العمل بسنّة -واهجروهنّ في المضاجع-، ليهجر غرفة النوم، ويعتكف بالصالون. لكن بعد ليلتين من ذلك الهجر، وفي ليلة لم يُرَ فيها ضوء القمر، اشتدّ خصامُهما لرب السماء، فطلبت منه أن يخرج من بيتها فورًا.

تقطّب جبينه واتسعت حدقتي عينيه حتى كادتا تخرجان من مقلتيهما، فشاطَ به الغضبُ مما يسمع ليسألها كأنّه عصي عليه فهم ما قالت..

-بيتك..

كان باديًا عليها هي كذلك الغضب، مُحمرة العينين من قلّة النوم، عُدوانية بعض الشيء..

-نعم بيتي! بما أنّك قد تركتنا المرّة الأخيرة، كنتُ مضطرّة حينها أن أغيّر عقد الإيجار باسمي وحدي لغيابك عنّا مدّة أشهر كاّملة..

بدأ يلوح بيديه منفعلًا، إشارة منه لعدم فهم قصد كلامها، ليضيف..

-أو ليس بيتي؟! أليس كلّ الذي حولك، قد تشاركنا في شرائه!

-لم يعد بيتك من الآن، احمل معك كل شيء إذا أردت، فقط اغرب عن وجهي..

تمالك نفسه قليلًا ليردّ عليها..

-كم أنت عنيدة وقليلة الأدب..

-بل أنت الصّعيدي والريفيّ المتعصّب.

صمت طويلًا وهو لا يزال لم يصدّق ما سمع وما يراه منها! أحسّ أنّ كرامته قد هُدرت وأنهّا أهانته لأوّل مرّة في حياتها، رمقها بنظره لحظات ثم نكس رأسه ناحية الأرض لثوانٍ، ليقرّر بعدها جمع ملابسه وهمّ بالخروج يجرّ حقيبته، لمحها جالسة بغرفة الصالون تبكي، لم يبلع بعد قصة أن تتجرأ عليه وتطرده من بيت الزوجية! وأكيد لن ينتظر اعتذارًا لن يأتي أبدًا، لم يعد يحتمل عنادها كما لم تعد هي تحتمل ريفيته وعصبيّته الزائدة، ومحاولة سيطرته عليها من وجهة نظرها.

غريب أمرهما! كيف وصلا إلى هذا الحد من الضعف والاستهتار! أم أنّ العلاقة من البداية كانت يشوبها الفشل؟ كل تلك التساؤلات كانت تدور في مخيلة كلاهما، دون إجابة واضحة ومقنعة.

خرج غاضبًا بعد أن طلّقها الطلقة الثالثة، ليمضي ليلته بسيارته يفكّر بما حدث لهما، أمّا هي فبقيت بمكانها جالسة على كنبة الصالون، لا تصدّق جرأتها فيما فعلت! لكن وسط كل ذلك، لا

أحد منهُما فكّر في الصغيرة، والتي أكيد أبكاها صوتهما العالي وخصامهما المرّ.

ذهب في اليوم الموالي إلى عمله كعادته في انتظار أن يجد حلًا لمشكلته، وقد غلب عليه النّعاس والتّعب، حاول أخذ إجازة قصيرة لكن طلبه قوبل بالرفض، ليصطدم بمصيبة أخرى كانت في انتظاره، حين تشاجر مع أحد زملائه الذين لا يجمعَه بهِ ودٌ، فلكمه بعد أن استفزّه، وبعد التحقيق تقرّر فصله من العمل. مضطرّ إلى البحث عن عمل آخر ومسكن آخر يأويه، كانت الظروف جميعها تعاكسه! لم يكن يحتكم على أيّ مبلغ من المال، لذلك لم يجد في البداية غير المبيت ببيت الشباب، لكن الأمر لم يدم طويلًا لقلّة الأماكن الفارغة، فقرّر الذهاب إلى مُصلّى صغير قريب من مكان تواجده، بعد أن أغلقت كل الأبواب في وجهه، صلى وقت العشاء جماعة، ثم ركعتين لعلّ الله يفرجها من عنده، بعدها بدأ المكان يخلو من رواده شيئًا فشيئًا، فلم يبقَ في الأخير غيره، باديًا عليه التعب والإرهاق الشديد من قلّة النوم، وقلّة الراحة، ليتقدم نحوه المسؤول عن غلق المُصلّى.

-السلام عليك بني..

اعتدل خالد في جلسته، ثمّ ردّ عليه السلام وهو بالكاد يفتح عينيه من شدّة النعاس..

انحنى الرجل واثبًا على الأرض، ربّت على كتفه ليقول له..

-أظنك تائهٌ إن صدق حدسي؟

-أجل يا شيخ، تائه في ملكوته..

ابتسم بلطف ليضيف..

-أكيد تعلم يا بني، أنّ القوانين هُنا تمنع على أي أحد النوم بهذا المصلّى، لذلك أستأذنك في الرحيل، كي أغلق الأبواب، لكن قبل ذلك لك أن تحكي لي لربّما أساعدك!

صمت خالد ولم يردّ، وقف مرتكزًا على ركبتيه مغادرًا المكان، لم يكن أمامه غير الجلوس بسيارته المركونة أمام باب المصلّى، بعد أن ضاقت به سماء وأرض وتاريخ غرناطة، كان الجوّ قارصًا جدًا، ولم يكن وجوده داخل سيارته يقيهِ من ذلك الصقيع!

فجأة طرق ذلك الشيخ زجاج النافذة جهة خالد..

-آسف بني لإزعاجك مرّة ثانية، لكن وجودك هنا حتمًا لن يروق لرجال الشرطة، شكلك ابن عائلة والزمن قد جار عليك..

يبدو حزينًا، يكاد ينفجر، لكنّه تماسك نفسه وراح يستنشق بعض الهواء دون أن يردّ..

ليضيف ذلك الرجل..

-لن أسألك شيئًا، يبدو أنّك تمرّ بمرحلة صعبة جدًا، كلّنا قد مررنا بأزمات معينة، وكلّ ما أستطيع تقديمه لك هو أن أدعوك إلى المبيت عندي الليلة، فأنا وحيد مثلك وغدًا يفرجها ربي.

كان اقتراحه ذاك قد شرح قلب خالد وفرّج عليه كربته ليرافقه بسيارته إلى شقّته، كان الأمر يحزّ في نفسه كثيرًا! يسأل نفسه.. كيف وصل به الأمر إلى هذا الحد!! بعد دقائق قليلة، وصلا حيًا شعبيًا غير بعيد عن المصلّى، الشقّة عبارة عن ردهة صغيرة بها كنبةُ سريرٍ، وطاولة منخفضة صغيرة، يوجد على يمينها، شبه مطبخ ضيق، بجانبه غرفة ذلك الشيخ الذي غاب للحظات ليعود ببعض الطعام وبطّانية شتوية، ثم غادر إلى غرفته في صمت بعد أن تمنّى له ليلة مريحة.

أكل خالد ذلك الطعام بشهيّة، فقد نسي من همّه أن يتزود بالأكل، ثم تهيّأ للنوم لفرط تعبه، لكن رغم ذلك الإعياء والإنهاك الكبير، لم يستطع الخلود إلى النوم، بقي يتقلب على تلك الكنبة طوال تلك الليلة حتى قرُب الفجر، لينام بعدها كما لم ينم في حياته، حتى وقت منتصف النهار، حين أيقظه..

-صباح الخير بُنيَ، لم أرغب في إزعاجك مع الصباح، تركتك تنام فتستريح، كان يبدو عليك الإرهاق والتّعب..

استحيا منه، ليرد عليه خجِلًا..

-آسفٌ شيخي لنومي كل هذا الوقت، يعلم الله أنّي كنت متعبًا لدرجة أنّي كنت أستطيع النوم لعدّة أيام متتالية..

ابتسم لعفويته، وراح يحضّر له فنجانًا من القهوة..

-تفضل بني فنجان قهوة، لتصحصح فنتحدّث قليلًا..

حكى له قصّته وما جرى له، كان الشيخ متفهّمًا وصريحًا..

-أكيد لستَ الأول ولن تكون الأخير، مشكلتنا نحن المهاجرين، أنّنا عندما نترك بُلداننا نحمل معنا كل شيء، همومنا، وأحلامنا الجاهزة، طموحاتنا الكبيرة، تربيتا وعاداتنا السابقة، حتى عُقدنا تأبى إلّا أن تسافر معنا! والنتيجة كما ترى، هي أنا وأنت والكثير منّا هنا بإسبانيا وبكامل أوربا، هنالك من تخطى مرحلة التخبّط، وشقّ له طريقًا، وهنالك آخرون، فشلوا ورجعوا على بلدانهم الأصلية، والبعض بقي تائها في الشوارع يخجل من فشله، يفقد أجزاء من نفسه يومًا بعد يوم، دون أن يشعر أو يدرك ذلك، وحين يعي ذلك فجأة، يكون الوقت قد فاته، لا أعرف أيّ طريق سوف تسلكه أنت بالذّات! وكيف سيكون مصيرك! لكن أنصحك بالعودة إلى أهلك، فأنت مثقفٌ وصاحب شهادة عليا، تستطيع أن تجد عملًا وتستقر

ببلدك، وتتزوج من جديد إذا رغبت، خاصّة كما قلت لي بأن لك أمّ وأخ يحتاجان لرعايتك! في الأخير ما لي إلّا الدُّعاء لك بالتوفيق.

كان خالد وسط تلك الزحمة التي تلفُّ رأسه، لا يفكّر إلّا في مصيبة حُبّه الذي يخنقه، يبدو أمره مُحيرًا جدًا، هائم بخياله يتذكّر ما فات ليحضره قول –فورستر– وكأنه يخاطبه هو بالذّات..

–باستطاعتك تغيير الحبّ، تجاهله، التشويش عليه، لكنّك لا تستطيع أبدًا طرده منك! قد تعلمتُ من خبرتي أنّ الشعراء على حقّ عندما قالوا أن الحب... خالدٌ!

تنهّد طويلًا..

حقيقة إنّ الذين أحبّوا بكلّ ضُعفهم مثل خالد، يُدركون تمامًا قولَ– فورستر، فهُم لا مُذلّونَ ولا مُهانونَ، أمام جبرُوت الحبّ الكبير، الذي يتملّكُ كلّ كيانهم، هُم لم يسألوا قلوبهم البتّة! تمامًا كما فعل خالد، لم يسأل نفسه يومًا لِم أُحبّ ياسمين بعينها؟! الإجابة بسيطة حتى درجة التعقيد، وهي لأنّ الحبّ أحمقٌ لدرجة الهذَيان، نحتاجه بكلّ ما فيه من تعقيدات لا نستطيع إدراكها، ليوصلنا في الأخير إلى حالة ضياع مَهيبٍ! وأكيد أنّ خالد اليوم في حالة ضياعٍ شبه كاملة! ليس لفُقدانه السّكن والعمل فقط، بل لضياع روحه منه بضياع ياسمين.

كان قد اقترح عليه ذلك الرجل الطّيب، أن يعمل مدرسًا لأطفال الجالية، يعلّمهم العربية وبعض أمور الدين، في انتظار أن يجد شيئًا يناسب دراسته، لم يكن خالد ليتردّد في قبول ذلك العرض، الذي حتمًا سوف يفتح له صفحة جديدة بعيدًا عن المعاناة وقلّة الحيلة. ليتسلّم العمل لبضع ساعات في الأسبوع، لم يُغنه ذلك عن العمل في مجالات إضافية أخرى مختلفة، مرّة في مطعمٍ يغسل الأواني، ومرّة يرافق البنّائين بورشهم، خاصّة بعد أن استأجر غرفة تقاسمها مع شخص يُدعى- بيدرو، بحي البيازين، بشارع قديم يُسمّى شارع التائبين، كان المكان ما يزال يحتفظ برونقه وتاريخه، رغم أنّ الحداثة زحفت عليه كما زحفت على كل شيء، لتُضيف إليه بعض اللّمسات العصرية في شكل مطاعم كانت قد انتشرت بالحي، والملفت للنظر أن المنزل غير بعيد عن كنيسة كانت في زمن الأندلس تسمّى مسجد التائبين، ما تزال هي كذلك تحتفظ ببعض ذلك التاريخ الغابر، حيث أُبقي على المنارة القديمة للمسجد، كأنّها رسالة من القدر توحي أو تدعو خالد للتوبة!

لكن التوبة ممّا؟! أو ممّن؟!

الفصل الخامس

كان النزل الذي وجد به غرفة، عبارة عن بيت أندلسي قديم، له مدخل يدعى بالإسبانية بالكرمن، أو بمعنى حديقة المنزل الصغيرة، بها أشجار من البرتقال، وبئر تبدو قديمة جدًا، لم تعد تستعمل، حتّى أنّ أطرافها تبدو عليها أثر الحبل من زمن الأندلسيين، تُقابله رّدهة تمثل المجلس الصيفي للمنزل، كان أجمل شيء في المنظر هو إطلالته على قصر الحمراء البعيد، حيث يقع البيت على ارتفاع منخفض من حي البيازين ككل. تشعر وكأنّك امتطيت آلة الزمن ليرحل بك إلى ماضٍ متخفٍ في زي أندلسي يصعب الشفاء منه!

قرر خالد أن يعيش عيشة يزهد فيها عن أشياء كثيرة، إلّا من التوأمين- الماضي والتاريخ، فهو مُولعٌ بكلاهما لحد الهوس، يعشق زيارة الأماكن التاريخية الأثرية وذلك الماضي الأندلسي الثري والغامض جدًا، لكنّه وسط كل ذلك الزخم الحاضر، لم ينسَ ابنته، اشتاق لها وقد بلغت عامها الرابع دون أن يراها منذ أن غادر البيت آخر مرّة، لذا قرّر أن يتّصل بطليقته لربّما تتفهّم اشتياقه، كان له الحقّ في الزيارة وضيافة ابنته عنده، يضمنه له حكم الطلاق الصادر

عن المحكمة، لكنّه لم يكن يريد خلق أي نزاعٍ قد يفقده حقّه في رؤية ابنته، خاصّة أنّه صار يحفظ جيدًا عناد أمّها الغالب على طبعها، لذا اتّصل بها ضاربًا لها موعدًا وسط المدينة بإحدى ساحاتها، كان اللقاء مفاجأة حبست أنفاسه حين رأى لأوّل مرّة طفلته تمشي على قدميها، رغم أنّها تفتقد لبعض التوازن -لطبيعة إعاقتها- كان شوقه لها لا حدود له، حتّى أنّه لم يُلقي السلام على أمّها، ليس عن قصد، لكن حسّ الأبوة والاشتياق كان أكبر من أي شيء حينها.

حملها وراح يشمّها بدموع لم يستطع إخفائها عن أعين المارّة، كانت فرحته أنْستهُ العالم بأكمله، جلس واضعًا الصغيرة على ركبته اليسرى، أكيد هي كذلك لم تنسَ وجهه، لينتبه فجأة لطليقته..

-آسف ابنة العم، نسيت أن أسلّم عليك! شوقي لابنتي غافلني..

-لا عليك، المهمّ أنّك تذكّرتها، حاول أن تتقرّب منها أكثر، أكيد هي مُحتاجة لك كأي طفل عادي، حتّى ولو كانت معاقة، فهذا لا يمنع، كونها تحسّ بمن يُحبّها ويهتمّ لأمرها.

سبحان الله، لم يعدا يستطيعان النظر إلى بعضهما البعض أكثر من ثوان قليلة جدًا، كأنّهما يغضّان النظر عن الحب! خاصة هو! ربّما الخجل أو الكبرياء يمنعهما من ذلك، تبادلا بعض الأخبار، واتّفقا على أن يأخذ الصغيرة عنده مرّتين في الشهر، كان باديًا عليهما أنّ في

جعْبتهما الكثير من البوح لكنّه لم يخرج إلى النور! ليفترقا على تلك الصورة المبهمة من الحبّ.

إنّه الفراق وما أدراك ما الفراق! سنّة من سُنن الكون والحياة البشرية، ماضٍ فينا كوحشٍ بغيض نخافهُ دائمًا في مسيرتنا الحياتيّة فلا نتورّع في اسْتنكاره، ولا في المضيّ قدمًا من إثباط محاولاته وتربصاته بنا. ربّما في موقف كالذي مرّ به الاثنين -ياسمين وخالد- يصبح الكُره سهلًا ميسّرًا لكليهما، وربّما يصير رفيقهما بل ملجأهما في الضعف الذي يعيشانه! لكنّه لم يحصل لهما كل ذلك! رغم الادّعاء باللامبالاة الفارغة! بل كان الحبّ بالنّسبة لهُما، ذلك الشيء النقيّ الوحيد الذي خرجا به من الدّنيا، لا يُمكن لأيّ كان أن يُزايد عليه أو يقتُله بداخلهما!

هنا بهذه اللحظات ما لنا إلّا كلمات الشاعرة- ميسون السويدان حين تقول..

-قد كان يطرق بابي وهو مُغلق...

لمّا فتحت فؤادي...قلبهُ انغلقا!

كأنّه لم يكُن يومًا ليعشقني..

كأنّما وحدهُ قلبي الّذي عشقَا!

ممّا لا شكّ فيه، أن الاضطراب والتردّد مُتأصلان فينا، فإمّا أن يكون نهاية ذلك الحبّ، التشبثُ أو الرحيل! ذلك ما كان يؤرق حياتهما، رغم نهاية قصّتهما كزوجين، لكن قصّة حبّهما هي أكيد حكاية أُخرى وتاريخ مؤجل.

مرّت شُهور لم يكن خالد في أحسنِ حالاته، أتعبه التنقل للعمل هنا وهناك! أرهقه كذلك الحزن وسكنتهُ الكآبة، لكن ما كان يؤرّقه فعلًا، هو عودة تشاجره وخصامه المتكرّرَ مع ياسمين لأتفه الأسباب! لدرجة ينقطع فيها عن رؤية صغيرتهِ لفترة طويلة لكي لا يصطدم بأمّها، التي كان عنادها يزداد حُمقًا كلّما غاب عن ابنته، تُجازي عِنادها ولامُبالاته فتمنعُ عنه أخبار طفلته، كانت علاقتهما تزداد سوءًا مع الوقت، وفي بعض المرّات يشعر بالذّنب تجاههما، ومع الوقت كذلك ازدادت وحدتهُ وتذمره من كل شيء، لحد اضطرابَ نومه وشهيته، فقد الكثير من التركيز حتى أنّه فشل في تحضير مذكّرة الدكتوراه التي طالما حلم بها، استمرّ على تلك الحال لعامين متتاليين، لكنّه رغم كل ذلك كان قد حسّن من ظروفه المالية بعض الشيء، حتى أنّه استأجر ستوديو صغير يسكنه لوحده.

وفي يوم من الأيام راح يتصفح صفحته على -الفيس بوك- كعادته، يحاول أن يجد شيئًا ذا قيمة يشغله عن التفكير في حاله، لكن

وككلّ مرّة -بعد أن يملّ- يضطرُّ إلى إغلاق صفحته، حتى جاء يوم وصلته برقية من على الماسنجر..

كان الشخص الذي يحاول الدخول معه دردشه فتاة تُدعى نادية، حسب ما كان ظاهرًا على بروفايلها. لم يهتم فتجاهلها، كان دائمًا ما يوجد بداخله شيء من ياسمين، يقاوم أي تواصل بامرأة أخرى، لم تكن له طاقة للتواصل مع أيّ كان، خاصّة إن كان شخصًا مجهولًا، لذا أغلق صفحته واستسلم للنوم.

بعد أيام عاد ليفتح حسابه على الماسنجر، ليجد رسالة كتابية من نفس الشخص يقول فيها..

-أردت أن أشكرك على قبولك طلب الصداقة..

يبدو أنّه قبل طلب الصداقة الذي أرسلته له منذ أيام، لكنّه نسي أمره. لكنّ الغريب، أنّه قد تغلّب على ذلك الحاجز النفسي الذي كان يرافقه، بدليل أنّه دخل معها في دردشة خفيفة، كشفت له بعدها، أنّها تعرفه، وأنّها من العائلة، لكن حجم القرابة بعيد نوعًا ما، ومحدود جدًا. اسمها نادية، مهندسة معمارية من القاهرة، تصغُره بثلاث سنوات. بدأ التواصل مع الأيام يأخذ حيزًا أكبر، كان شيئًا غير معتاد يحدثُ له في تلك الآونة.

إن كان فعلًا لا يبحث عن الحبّ! بما أنّه مهووسًا بحبه الأول، فماذا كان يريد إذًا؟!

قرّر أن يفاتح أمّه في الموضوع ليعرف رأيها في الفتاة التي أكيد تعرفها، فاتّصل بها..

-أهلًا أمي كيف حالك؟

-مساؤك طيب يا ولدي، طال غيابك! اشتقت لك! فكيف هي أحوالك؟

-الحمد لله بخير، كيف هي صحّتك وحال محمّد؟

-كلنا بخير، لا تنقصنا إلّا رؤيتك..

-قريب إن شاء الله، هناك أمر أريد معرفة رأيك فيه..

-خيرًا إن شاء الله!

أخبرها التفاصيل وكل ما كان يشعر به حينها..

-أرى أنّك تخطيت أمرًا كان يمنعك من مجرد التفكير في الارتباط مرّة ثانية!

-أتمنى ذلك..

- لكنّي أشعر بترددك بعض الشيء!

-لا أبدًا،بل بالعكس أحسّ بارتياح عجيب تجاهها، رغم أنّني- كما تعرفين عنّي- صعب أن أرتاح لأيّ امرأة! لكن هاته بالذات قد ارتحت لها نفسيًا ووكّلت أمري لله..

-هل رأيتها من قبل؟!

-أبدًا..

-أمّا أنا فقد رأيتها من قبل، آخر مرّة على ما أتذكّر كانت العام الماضي، في عرس ابن خالك بالقاهرة، أهلها من أقربائي، هم أصلًا من عزبتنا، وكما أنّي أعرفك يا ولدي، سوف أصارحك بشيء..

صمت للحظات ..

-أما زلت على الخط يا ولدي؟!

-آسف أمّي تفضلي، تابعي، أسمعك..

-هي ليست في مستوى الجمال الذي كنت مهووسًا به من قبل! كجمال ياسمين مثلًا!

-بمعنى!

-جمالها متوسط، وقوامها كذلك..

-هي مثلك تمامًا ههه، أمزح معك طبعًا، فأنت أروع امرأة في الوجود..

-هو بالضبط ما قلت! فأمّك ليست ذات جمالٍ ولا قوامٍ تحسدُ عليه! لكن لديها ما ليس عند نساء كثريات!

-أظنك غضبت من كلامي يا غالية!

-لا، لم أغضب أبدًا، أعرف مزحكَ يا ولدي..

-أصارحُك شيئًا أمي! بعد الذي رأيته وعانيت منه من قبل، لم أعد مهتمًا إلا لشيء واحد فقط..

-ما هو يا ولدي؟

- الراحة والهناء مع شخص، يفهمني ويتحمّل عُيوبي وما يسمى عُقدي الريفية! أصبح هذا حلم بالنسبة لي، لا أعرف إن كان قابل للتحقيق أم لا؟!

-إذًا أتركني أستشير خالك بالقاهرة، فهو يعرفهم جيّدًا وله تواصل معهم، بعدها أعلمك خيرًا إن شاء الله..

-على بركة الله إذًا، دعواتك يا أمّي.

-قلبي وربّي راضين عليك.

أنهى المكالمة أخيرًا، أحسّ بهدوءَ نفسه، وبارتياح لم يحسّه من قبل تجاه أي امرأة، لم يخبر تلك الفتاة-نادية بخطوة السؤال عنها، ولا حتّى الحديث الذي دار بينه وبين أمّه، بل استمر في التواصل معها بنية التعرف عليها أكثر، كان تفاعلهما وانسجامهما مع بعض، سريع لدرجة غريبة جدًا! حتى عاد بعد أيام يسأل نفسه..

-ألا يكون القدر يُريد لي التوبة هاته المرّة، وعلى يد هاته الفتاة؟! ألم يكن منزل التائبين بحي البيازين الذي سكنته يوما يُنادي بهذا؟!

ألم تكن كنيسة التائبين المحاذية له تُقرّ بالتوبة؟! فأكيد لم أسكن ذلك المكان الساحر عبثًا!

كان إحساسهما من خلال ذلك التواصل النصّي أحيانًا، والصوتي في أغلب الأوقات، كأنّهما يعرفان بعضهما البعض منذ زمن، كلاهما مرتاح للآخر، بلا تكلّف ولا تردّد، لم يشعرا أبدًا بحاجتهما لرؤية بعضهما البعض عن طريق الواب كام-Web. Cam، بل تركا الأمر على الطريقة التقليدية، حتى أن الخوف من المفاجآت -كأي علاقة عادية- لم يكن ليحضر خيالهما ولا مرّة!

استغرب أمرَه، ليرجع فيحدّثُ نفسه..

-ما بك يا خالد؟! أراك قد اقتنعت بالفتاة، لدرجة أنّك لا تفكّر في العواقب! وكأن الفتاة مُسطّرة لك تمامًا؟

ليعود فيجيب..

-يا نفسي يا أيتها المتعبة، كلّ ما في الأمر أنّني هذه المرّة، قد رميت حملي على الله، كنت من قبل دائمًا ما أبحث وأفتّش وأجري وراء الحبّ حتى لاقيت الأمرين..

فتصمّم لتضيف..

-هذا لا يعني أن تترك الأمور تسير بلا ضوابطٍ وبلا حبّ، خاصة!

يعود فيتمرّد عليها قائلًا..

-هذه المرّة بالذّات أفعلها،نكاية فيكِ.. ههه!

-وما تسمي هذا التواصل؟ أليس بداية حبّ على الأبواب؟!

-ليس الحبّ ما شدّني إليها، لكنّي وجدت ما هو أفضل لحالتي!

-لم أفهم؟

-حتى أنا لم أفهم بعد، ربّما مع الوقت تتّضح الأمور لكلينا..

-وياسمين!

هنا فقط توقف عن حديثه لنفسه وانسحب، يبدو أنّه يتحاشى ذلك السؤال!

بعد يومين عاد واتّصل بأمّه ..

-هلا بالغالية، خيرًا إن شاء الله، خبّري؟!

-أراك مستعجلًا لتعرف النتيجة..

- طبيعي، أليس من حقي؟

- بلى، لكن حصل أمر ربّما يغضبك منّي يا ولدي!

خطر بباله أن أهلها لم يرضوا به، كونه مُطلقٌ وله طفلة صغيرة! خاصّة أن طليقته من العائلة! لكنّه أراد أن يتأكد من الأمر، فراح يلحّ ليعرف السبب..

- أفصحي أمّي من فضلك..

-حسنا، عندما فاتحت خالك أوّل مرّة على الهاتف، كان قد شكر في تربيتها وخلقها وسمعة أهلها، هو يعرفها جيدًا وقد بارك علاقتكما، لكن المُشكل في ما حصل بعد ذلك..

-خبّري يا أمّي، لم يعد لي صبرٌ..

-قد ذهبَ إليهم البارحة، وفاتحهم في الأمر مباشرة، مبدئيًا رحَبوا بالأمر، في انتظار أن نُقْدِم على الخطوة الموالية، خالك فَهم منّي الأمر بهذا الشكل وتصرف من خلاله!

عاد فصمت، لم يُبدِ أيّ انفعال أو ردّة فعل..

لتضيف..

-آسفة يا ولدي، أمّك أمّية ريفية لا تحسن التعبير، أعرف أنّي قد تسببت لك بحرجٍ غير مقصود!

عاد ليكلم نفسه مرة أخرى..

- إنّه القدرُ يا خالد! إنّهُ نداء التَوبة الأخير..

ليرد علي أمّه أخيرًا..

-لا عليك يا أمّي، لربّما خيرًا..

تفاجأت لردّة فعله غير المتوقعة..

-انتظرتُ ردًا غير هذا يا خالد! أراك تغيّرت! لكن لا بأس، أنا كذلك أشعر بارتياح تجاه هذا الأمر، لربّما الله تعالى الذي تركتَ له أمركَ، قد اِختار لك فعلًا..

-أظنّ ذلك، فما حدث له سببٌ وأكيد ليس بعبث، اتّصلي بهم إذًا وحدّدوا موعد الخطبة..

-بهذه السرعة! تمهّل يا ولدي، استخر الله أولًا..

-حسنا أمّي، نتواصل غدًا إذًا، إن شاء الله.

قبل أن ينام صلى ركعتي الاستخارة كما نصحته والدته، ومع الفجر رأى في منامه كأنّه دخل كنيسة البيازين- التي أخذت مكان مسجد التائبين الأندلسي- كان المكان يبدو خاليًا تمامًا، يسُوده صمت رهيب، تقدم منه فجأة راهب بملابس بيضاء يحملُ شمعة مشتعلة يُحدّثه فيقول..

-لا شك أنّ الحبّ أقدس عاطفة على قلبك يا خالد! بدون الحبّ تبدو حياتك جحيمًا لا يُطاق! إنّها هناك، تلك الكريمة السخيّة، تعالى معي أُوصلك إليها. تبعه باستغراب دون أن يعارضه، ينظر يمنة ثمّ يسرة، فلا يجد أحدًا غيرهما، حتى وصل أمام باب جانبي عن يمينه مغلقًا، عاد واختفي ذلك الراهب فجأة. شدّ انتباهه صرير ذلك الباب

المغلقُ، لتخرج منه فتاة مُغطاة الرأس والوجه، تنظر إليه من وراء حجاب قائلة..

- اجعلني كخاتم على قلبك، كخاتم على ساعدك.

ثم اختفت هي كذلك فجأة..

استيقظ على وقع تلك العبارة، مُستبشرًا مسرورًا. أحسّ أن الأمر فيه سرّ إلهيّ يدعوه للمضيّ قدُمًا، فقرّر مباشرة في ذلك الصباح مهاتفة أمّه، يطلب منها التعجّل في خطبة الفتاة.

رغم تسارع الأحداث وتعاقبها، إلّا أنّه لم يغيّر من موقفه، بل بالعكس، كان مرتاحًا طيلة الوقت، ارتياحًا غير عادي وربما عجيب! كانت ابنته ليلتها عنده، ضمّها إليه يُخبرها الأمر، وكأنّها فعلًا ستعي ما سوف يسردُه عليها..

- حبيبتي فيروز، يا حجر قلبي الأزرق، أخيرًا خرج أباك من سجن أمّك! ربّما ليس أكيد بعد، لكن مُجرّد المُحاولة تعني لي بداية مشجّعة! ما بك صامتة وكأنّ الأمر لا يُعجبك أيتها الجميلة الحلوة ههه؟!..أعرف أنّك تتمنّين لو بقيت بجانب أمّك! لكن بنيّتي، أمّك صعبة المزاج، صعيدية العِناد، غرناطيةً لا تتحمّل حُكم الرجل! تخنُقها طبائعَ والدكِ الريفي! لكن أعدك أن أكون قريبًا منكِ، طبعًا إن سمحت الظروف، خاصّة إن سمحَ مِزاج أمُّك اللّعين ههه..

..تسألينني إن كنت ما زلت أحبّها ؟! أرى أنّكِ تشبهين جدّتك -أمّ خالد- في أسئلتها.. ههه. الحقيقة لحد اللحظة، لم أغادر ذلك الحبُّ ولا هو غادرني! أُمّكِ حبّي الأوّل، وأكيد نسيانه صعب، لكنّي على الأقل أُحاول أن أضعه جانبًا في مكان ما بقلبي، لكي لا يُفسد علي ما هو آتٍ، وهذا- كما قلت لك سابقًا- في حد ذاته إنجاز أو ربّما مُعجزة! أمّا الأهم الآن، هو أنّه عليك أن تنامي وغدا نُكمل حوارنا.

كان ذلك المشهد -وهو يتخيّل حواره مع ابنته- غريب ودافئ! يُخبرها ما يجري له- والّتي أكيد لن يعنيها من كل ذلك إلا حنانه ورؤيته كلّما سنحت الظروف- لكنّها لا تأبه له، تفضّل اللعب، رافعةً رجليها عاليًا، تُحركهما بخفة كجناحي فراشة وردية رائعة الجمال..

لاعبها حتى استسلمت لنوم عميق، ليرجع للتفكير مُجددًا فيما يحدث له! لم يجد ما يدعو للقلق، تمدّد بجانب فيروزته، ونام كما لم ينم من قبل.

الفصل السادس

مع منتصف النهار اليوم الموالي..

الماسنجر يرنّ..

-أهلًا..

-أهلًا يا ولدي، ظننتني أخوك مْحمّد ..

- لا، إطلاقا أمّي، أعرف أنّك أنتِ من يطلبني، رغم أنّي متأكد أنّه بجوارك..

-ما أحوال حبيبتي فيروز؟

-نحمد الله، كما تعلمين المسكينة دائمًا مع تلك الآلة التي تغذّيها، تساعدها على النّمو وإلّا لكانت قد توفيت لا قدر الله..

-ما لنا من حيلة، هذا قدرها وقدرك يا ولدي، الله يعين أمّها في رعايتها، على فِكرة، قد حدّدنا موعدًا الخطبة بعد يومين، صار كل شيء جاهز، إن كان لكُما نصيبًا في بعضكما البعض طبعًا..

-على بركة الله إذا، ناصية خير إن شاء الله..

-بماذا يُحدّثك قلبك الآن يا ولدي؟

-لا يقول لي شيئًا..

في نفس تلك اللحظة رنّ الفايبرViber، كانت نادية هي من تطلبه، استأذن أمّه في الرد على المكالمة..

-أظنّها خطيبتك من تُرنّ لك!

- فعلا هي، لكنّها ليست خطيبتي بعد..

-بلى يا ولدي، بحكم ما سوف يكون! المهم لا تغيب عني..

-أترُكُك في رعاية الله أمي، دعواتك.

كانت نادية قد طلبتهُ مرّة أو مرّتين ثم توقفت، ليعود فيطلبها هو بدوره على الفايبر..

- أهلًا عزيزتي نادية..

-أهلًا عزيزي، أظنّك كنت مشغولًا..

-أجل، مع أمي..

-إذًا أخبرتك..

-قد فعلت، تعرفين ثرثرة النساء ههه..

-أعرفها، لكنّي لا أعرف كتمان الرجال..

-حتى أنا لم أكن أعلم كيف حصل كل هذا، صدّقيني ههه..

-ماذا؟

-هههه، أمزح معك فقط.

كان صوتها يَرنّ فرحًا، أمّا هو فكان مصمّمًا على الذهاب قدمًا في ما نوى.

كانت آخر مرّة اجتمع فيها بطليقته يوم أن أعاد لها صغيرته الجميلة، لم يلحظ أي شيء على وجهها، تلك الملامح التي يعرفها جيدًا، يعرف متى تخفي ومتى تبدي! لحظتها وقبل دخولها بيتها، أمسكها من يدها ليقول..

-آسف..

لا يدري كيف فسّرت تأسّفه ذاك! كان يعلم متيقنًا أن أخباره تصلها أكيد، لكنّها لم تتفوه حينها بشيء، لتغادره وتدخل بيتها سريعًا. كان كلّما رآها تُغادر يزداد حزنه!

أتراه حبٌّ على وشك الموت، أو مجرّد تخبّط كُتب له أن يصنع كل ذلك الحزن العميق!

كان الخطيبان يتقدمان في علاقتهما بسرعة مذهلة، يعيان جيدًا، أن علاقتهُما تسير مُهرولةً، تحمل لهما سرّا إلهيًا يجعلهما واثقين من بعضهما، لدرجة أنّهما قرّرا أنّ ينتقلا إلى الخطوة المصيرية، ألا وهي الزواج، وفعلًا سافر خالد بعد شهر في عطلة لمدّة أسبوع إلى القاهرة، ليتمّم مراسيم الزواج.

إنّه أول لقاء حقيقي يجمع بينهما في بهو مطار القاهرة، خرج لتوه يبحث عنها، يلتفتُ يُمنة ويسرة فلا يجدها، لتظهر أخيرًا مبتسمة، لم يكن قد رآها من قبل إلّا من خلال الصور، سلّم عليها بخجل، شعر بنفس ذلك الارتياح السابق، أمّا هي فكاد قلبها يخرج من قفصه، كانت ترصد تراقب ملامح وجهه، ربما لترى تعابيره وهو يراها لأوّل مرّة، أكيد تنتظر ردّة فعله. تبادلا بعض الكلمات، ليعود لجنونه للحظات حين تذكّر أوّل لقاء له بياسمين بمطار مالقه! أكيد المشهدان مختلفان تمامًا، والأكيد أنّه لا يزال يحنّ لتلك الأيام، لكن ما أن يتذكر عنادها وتمرّدها عليه، حتى يذوب ذلك الثلج من الحنين فجأة، ليعود إلى خطيبته التي كانت قد استأجرت سيارة تاكسي، أوصلتهما إلى الشقة الصغيرة التي كانت تملكها بحي إسماعيل محمد بالزمالك..

نزل مبتسمًا، أكيد يتذكر المكان جيدًا!

-ما بك يا خالد؟ أتعرف المكان؟ !

-أجل، أتذكر جيدًا آخر مرّة أتيت فيها إلى هنا منذ سنوات، كان لي موعدٌ بقنصلية إسبانيا..

-آه، أجل هي هناك فعلًا.

أول شيء فعله بعد دخولهما الشّقة هو احتضانها، أكيد لم يتجرأ في فعل ذلك بالمطار! فالقاهرة ليست كغرناطة، الناس هنا، رغم التحضّر تحكمهم ضوابط دينية وتقاليد وعادات، وهو صعيدي يحترم ذلك كثيرا، لكن فقط بالقاهرة! أمّا خارجها، فأكيد يشتاق لتلك الحرية الغرناطية، لكنّ اليوم الأمر مختلف تمامًا، أمامه امرأة يعي جيدًا أنّها امرأة ذكية وسويّة، تحبّ التدرج في كل شيء، لا تطلب بداية أكثر من الحنان والاهتمام، لتحضنه بدورها وبقوّة، كان ينظر إليها بشيء من الرضى، تلك الكلمة السحرية التي طالما رآها في ملامح أمّه، لكنّها المرّة الأولى التي يتيقّنُ من وجودها فعلًا بوجه امرأة أخرى غيرها، ربما يعود ذلك لشخصية نادية العفوية.

لكن ياسمين كذلك كانت عفويّة مثلها! فما وجه الاختلاف بينهما إذًا؟! ربما هي ملامح الطّاعة التي لمسها في ردود أفعال نادية ما صنع الفارق، لكنّه رغم ذلك ما زال يهاب الأمر، يستغربه بعض المرّات! فقد تعوّد في ما سبق على طبع امرأة عنيدة ملّ تمرّدها، أمّا هذه المهندسة الواقفة أمامه فتختلف كليّةً. لكنّه تمهّل في حكمه عليها، لأنّ الأمور ما تزال في بدايتها، وكثيرًا ما تتغير بعد الزواج.

كان حفل زفافهما متواضعًا كما كان يرغب، فرحة الأهل والأحبة القلائل تصنع البهجة لتملأ صالة العرس المتواضعة، خاصّة أمّه، رأت

أخيرًا ابنها يبتسم للحياة، بعدها غادر المكان رفقة أخيه محمّد- بعد أن ودّع أمّه التي حتما سوف تعود لعزبة تونس مع الصباح الباكر- عائدًا إلى الشقة، استأذنه أخيه في المغادرة بعد أن أوصله، رأى خالد أن الوقت ليس مناسبًا للعتاب، فتركه يرحل بعد أن عانقه، أخرج هاتفه الجوال ليهاتف زوجته ليعرف آخر أخبارها، وقد تركها وسط تلك الفوضى والازدحام الذي كانت تعيشه في تلك السهرة النسوية المغلقة، وعدته أن تلتحق به حينما تنتهي السهرة، أخذ حمّامًا وراح يتمدّد على السرير الواسع، أمام شاشة التلفاز يستمع لبعض الأغاني الرومانسية، كان يبدو في قمّة الراحة، غير متوتر ولا تائه، حتى رنّ جرس الباب، انتفض من مكانه يفتح الباب، لم تكن غير زوجته تجرّ حقيبتها مبتسمة باحتشام، أكيد أن طريقة زواجهما ولقائهما بعد الحفلة بتلك الطريقة غير المعتادة، عكست مدى نُفوره من جو التقاليد والمراسيم التي صارت تخنقه، صار متمرّد على كل شيء، وقد شاركته ذلك التمرد الغريب في تلك الليلة دون أن تعترض.

تبدو جدّ متعبة، لكن ليلة كليلة الدّخلة من الطبيعي أن نتنكّر لكل شيء، إلّا للغة الحب والجسد، أشعلت بعض الشموع هنا وهناك، استأذنته في أن تغيّر تأخذ حمامًا وتغيّر ملابسها، لينزل عليه فجأة خيال ياسمين، تذكّر شموعها وغناء فيروز! لكنّه تذكّر كذلك أنه

تزوّج لتوه، ولا يصحّ أن يفكر في غير زوجته، التي تحبّه بصدق، خاصّة الليلة، فراح يسألها من وراء باب الحمام، إن كان لها موسيقى معينة تريد سماعها بالمناسبة..

-نعم، فتّش بحقيبتي، ستجد قرصًا مضغوطًا بعنوان «رجالة الصعيد»..

مدّ يده لحقيبتها يبحث، وجد أخيرًا ذلك القرص، ليضعه داخل جهاز القرص المضغوط CD ويضغط على زرّ التشغيل..

جلس يستمع في انتظار أن تخرج..

-مش ماشي ولا متحتح واه واه يا بوي..

افتح جلبك افتح واه واه يا بوي..

انطق بجي واتلحلح واه واه يا بوي..

سلام شحط محط يا عم لرجالة الصعيد..

انفجر من الضحك، ثم قام يرقص على أنغام تلك الكلمات، لكنّه فجأة أوقف تشغيل الأغنية، لتخرج من الحمام بعد سماعها لضحكاته فتسأله..

-مالك تضحك؟ ألم يعجبك اختياري ههه!

-بلا، لكنّك تشبهين عقلية السينما المصرية في رؤيتها للصّعيدي، من خلال هندامه ولكنته المختلفة، ورغم أنّي لا ألبس ذلك الهندام

وليس بلساني تلك اللّكنة، إلّا أنّك فرضت علي نمط الموسيقى والتّي ربّما لم أعد أسمعها، أو لا تليق بليلة الدخلة أصلًا!

-آسفة حقًا، ظننت أنّي أحسنت الاختيار!

-لا بأس، ربّما لا تعرفينني جيدًا بعد، أكيد أعتزّ بانّي من عزبة تونس الرائعة والساحرة، ومن أرياف الصعيد الطيّبة، لكنّ طبعي اختلف بعض الشيء مع الوقت. المهمّ بعيدًا عن.. شحط محط هههه، ماذا تحبّين من الغناء؟

-شيرين مثلًا..

-ممتاز..

تناول هاتفه يبحث عن أغاني شيرين من على برنامج اليوتيوب موسيقى You tube music ليبرمج أغاني شيرين..

بدأت موجة موسيقى هادئة ورائعة تغمر المكان أخيرًا..

-متعتذرش..

يكفيني منّك بسمتك..

سيب الكلام..

خليني أمسح دمعتك..

في البعد عنّك قسوه وألم..

في البعد عنّي حيرة وندم..

تقدمت منه مبتسمة دسمة، تدعوه لرقصة لطالما حلمت بها لسنوات طويلة جدًا، ليصنعا ليلة هادئة لا تعني أبدًا غياب الحرب، بل هي حرب مغايرة تمامًا، صنعتها تلك البكر السخيّة الكريمة. وباليوم الموالي، قرّرت أن تأخذه لزيارة برج القاهرة، لتمضية بعض الوقت معًا..

-قد حجزت لنا طاولة بمطعم البرج الدوّار، ما رأيك؟

- روعة، كنت قد زرته مع الشلّة أيام الدراسة، لكن بشكل سريع..

-مع الشلّة!! يا سِيْدِي ههه.

الساعة 11 :45..

وصلا أخيرًا لذلك المبنى المُصمّمُ بعبقرية كبيرة على شكل زهرة اللوتس، على ضفاف نهر النيل كأنّه يُغازله من الأعلى، أخذا مصعد البناية الذي أوصلهما في بضعة ثوانٍ قليلة إلى الدور الذي به المطعم، والذي لا يفصله عن قمّة البرج أو سطحه، إلّا ثلاثة أدوار بدون مصعد، أخذا مكانهما وجلسا، كانت ألوان جدران ذلك المطعم بنّية فاتحة، بتأثيث بسيط ومريح، يجعلك لا تركز على الجو الداخلي بقدر ما يجذبك المنظر البانورامي الخارجي، وأنت جالس في مكانك.

-ماذا تحب أن تأكل حبيبي..

-أترك لكِ الاختيار عزيزتي..

-حاضر حضرتك ههه، أمممم..إذًا سلطة+ طبق محاشي مشكّل+ فراخ مشويّة+ العيش البلدي،وأترك لكَ تختار التّحلية ههه.

-حاضر يا بش مهندسة ههه، لتكون التّحلية حلويات شرقية نعوّض بها عسل ليلة البارحة ههه.

-لم تذق الشهد بعد ههه..

- يا خرابي هههه..

كانا في قمّة السعادة - بعدما كانت نفسيته منذ فترة مضت قد وصلت الحضيض- الجو العام هنا وهم يتناولون غذائهم والمطعم يدور بهم 360 درجة ببطء مناسب، جعلهم يرون القاهرة بشكل آخر جميل.

-احكي لي الآن وقد شبعت، عن الشلّة التي كنت تأتي معها إلى هنا ..

-كان هذا في العام الأوّل لمجيئي هنا للقاهرة، كنت قد تعرّفت عن طريق شلّة زملاء الدراسة، على فتاة من كليّة الطب، كان اسمها هاجر، صارت بيننا قصة إعجاب، وانتهت في عامها الأول، بعد أن هاجرت إلى أمريكا آخر تلك السنة..

-فقط..

- لا يوجد شيئًا يستدعي السّرد الطويل، مجرّد إعجاب متبادل وانتهت القصة على ذلك..

-لا تقلق ههه، أردتّ فقط أن أتعرّف عليك أكثر، أكيد أن تحبّ وتعشق شيء صحّي خاصّة إن كانت الفتاة مثلي ههه..

-أكيد..

هنا بالقاهرة تلتقي ثقافات مُختلفة، كانت قد شكّلت شخصية نادية التي ولدت بأحد أحياءها الشعبية-خان الخليلي- من أعرق الأحياء المصرية وأقدمها، تذكّركَ برواية الكاتب الكبير نجيب محفوظ «خان الخليلي»، وتلك الشوارع المزدحمة جوانبها بالدكاكين صاحبة التخصّص، يُوقفُك شموخ قهوة الفيشاوي، التي يزيد عمرها عن 250 سنة، كل ذلك منح المهندسة كل ذلك الثراء، ثراء عاطفي وحسّي سكن قلبها إلى الأبد.

-أشكرك عزيزتي على الأكلة الطيّبة، وعلى هذا المكان الرائع، ينقصني شيءٌ واحد فقط!

-أعرف. الشّاي!

-بالضبط، ههه..

-أجّلْ هذا من فضلك، سوف نتناول الشّاي في مكان آخر مُختلف تمامًا، لأنّنا الآن سوف نصعد لسطح البرج، اشتقت لرؤية القاهرة من الأعلى..

فعلًا من هنا بسطح البرج -وبشيء من السحر- تجد نفسك وأنت تتجول بناظرك داخل النظّارات المكبّرة، لترى تفاصيل القاهرة الكبرى، الأهرامات وأبو الهول، سمارة النيل وقلعة صلاح الدين. كان خالد غارقًا في رؤية ذلك المشهد الرائع، لكن ما أن أنهى جولته، استدار إلى زوجته ليجدَها قد سرحت بعيدًا عنه وعن المكان كله..

-ما بكِ، وكأنّ المكان يوحي لكِ بشيء من الحزن!

كانت ملامح وجهها توحي فعلًا بشيء من ذلك..

-أتعلم يا خالد، أنّه كثيرًا ما يُحزنني التاريخ هنا، وما فعلناه به بهذا البلد! كأننا نخاف منه! نريد الهروب منه! تاريخ يحكي أشياء كثيرة، حلوة ومرّة. في الأخير نحن نشبهك كثيرًا يا خالد!

-ههه، لم أفهم!

-حين نَنْتقِي دون وعي منّا ونفكر بشكلٍ خاطئ بانتقاء ما في الماضي من أشياء جميلة ونتنكّر لكل ما هو تعيس! هنا نكون نشبهك تمامًا، كما تفعل أنت مع ماضيك بالضبط!

يبدو أنّها تعي جيّدًا ما يعاني منه زوجها! لكن هل تعي بصدق ماذا ينتظرها من جهد ومن صكوكٍ للغفران؟!

-ربما تقولين الحقيقة الغائبة عنّي!

تعود فتكمل حديثها..

-نحن هنا يا حبيبي، نهرب من الحاضر لنحضن الماضي، وكلاهُما يُخيفنا! مصر تحمل همّ التاريخ بحُلوه ومرّه، ومن ذلك التاريخ صنعت مصرَ الحاضر، بعبقرية أبنائها وطيبتهم، كانت قد زُفّت للتاريخ ألف مرّة، وكانت كل مرّة تصنع الحدث، الماضي هو من يصنع حاضرنا يا خالد..

وكأنّها تدعوه بأن لا يتخلى عن تفاصيل ماضيه مهما كان، أن يكون مثل المحروسة- مصر، أن يتقّبل ماضيه بمزاياه وعيوبه، لكي يقدر أن يعيش الحاضر معها، دون توترٍ من القادم، ولا تجاهل للذي مضى.

لوهلة خانه ذكائه أو ادّعى قلّة الفهم ليسألها..

-وما دخلي بكل هذا الازدحام الذي برأسك؟!

تأخذ نفسًا إضافيًا لتوضح ما غاب عنه..

- يا عيوني، أدعوك فقط لأن تحضن ماضيك كما هو بكل تفاصيله، تصالح معه، اغفر له، لا تُعاير جزءًا منه بالرداءة، لكي تستطيع ولوج حاضرك، بكل ما فيه من الحبّ والصدق والسخاء.

ابتسم حين سمع كلمة -السخاء، ذكّرته بقول الراهب بذلك المنام الماضي، فراح يتمتم ممسكًا يدها بكثير من العطف والحنان قائلًا..

-أنتِ فعلًا تلك السخيّة الكريمة..

لترد عليه حبًّا بحبّ..

-كم أنت حنون يا خالد، لذلك سآخذك لمكان آخر، أين ولدت وكبرت..

الفصل السابع

كان الطريق إلى ذلك المكان الذي ولدت به ليس ببعيد، فخلال أقل من نصف ساعة، كانا واقفين أمام قهوة الفيشاوي، أو كما تسمّيها بعض المراجع الأجنبية- بمقهى المرايا[1] - هو حيّها القديم الذي سكنته في طفولتها - خان الخليلي- مكانٌ شعبي عتيق، يذكّرك بحي البيازين الغرناطي في أصالة بنيانه وروعة أهله، هنا بالخان فعلًا تركب آلة الزمن لترجع بك إلى مشهد تلك الطاولة الخشبية المتواضعة التي نصّبت لأوّل مرّة بنفس المكان الذي يجلسان على أرضه. حين نصّبَ الحاج الفيشاوي تلك الطاولة لأول مرّة في ذلك الزقاق الضيق جدًا، والذي يخترق الخان، قبل أكثر من مائتي عام، فراح يُحضّر بعض المشروبات لرواد الخان، من أهل البلد ومن السائحين على حد سواء، وبعد مدّة وضع لهم بعض الكراسي الخشبية ليجلسوا عليها

(1) يوجد بالمقهى مرايا ضخمة اشتهرت بها في بداياتها تعود لعصر محمد علي باشا(1849-1769) وهي مرايا بلجيكية حصل عليها الحاج فهمي الفيشاوي ووالده من القصور الملكية التي كانت تجدد مفروشاتها وأثاثها حينها.

ليستمتعوا بحلاوة الشاي الذي يحضّره بنفسه، كان طموحه كبير من مجرد طاولة وبضعة كراسي يتزاحمُ عليها الزبائن.

فبعد أن تجمّع عنده بعض المال، قرّر أن يشتري محلًا صغيرًا به -بوفيه- صغير يدعى «البسفور»، ليتوسع المحل مع الوقت ليضم الدكاكين المجاورة. بعد سنوات من الكد والعمل المتواصل كان قد اشترى مساحة كبيرة جدًا من ذلك المكان، في زمن كان ثمن المحل فيه زهيدًا، كانت له فكرة كثيرًا ما حلم بها، وفعلًا بعد مدة جسّد فكرة الضيافة المصرية الأصيلة في شكل مقهى كبير، مقهى لا يشبه باقي المقاهي العادية، سنوات طويلة وهو يرى حلمه يكبر، ليأتي قرارًا حكوميًا أزال جزءًا كبيرًا من مساحة المقهى، ممّا جعله يُصاب بأزمة قلبية جرّاء ذلك العمل التعسّفي ليموت تاركًا وراءه، مقهى بثلاث حجرات مؤثثة كل واحدة منها بشكل مختلف وبأسماء مختلفة تحكي قصّته وخصوصيتها وطابعها الخاص. أطلق على الحجرة الأولى «البسفور»[1] حجرة مبطّنة بالخشب المطعّم بالأبنوس، بها أدوات من الفضّة والكريستال والصيني، مليئة بالتحف، شاهدة على مرور الملوك- كالملك فاروق في سهرات رمضان، وحتّى

(1) الاسم القديم الذي أطلق على تلك المقهى نسبة إلى بوفيه الفيشاوي الأول الذي كان يدعى بوفيه البسفور.

الإمبراطور نابليون بونابرت، لتأتي الحجرة أو الغرفة الثانية التي سميت «التحفة» بجدرانها المزيّنة بالصدف والخشب المزركش والعاج والأرابيسك، بأرائكها المبطّنة باللون الأخضر، شاهدة على مرور الفنانين العظام كأم كلثوم، والعندليب الأسمر عبد الحليم حافظ، وطبعًا الكاتب الكبير نجيب محفوظ. أمّا الغرفة الأخيرة في طرف المقهى فسميت ب «القافية» تشهد مرور الشعراء وأصحاب البديهة وطلاقة اللسان بنكهة السخرية الأدبية.

مرّت أيّام عطلته سريعًا، حتّى جاء موعد العودة، كم كانت نادية تخشى ذلك اليوم، فقد تعوّدت أن تراه بجانبها خلال تلك الأيام القليلة الماضية، تهتمّ لأمره، تُطعمه بيديها، تحضّر له لوازمه كلّها، أمّا هو فأكيد قد أحسّ الفارق، أشياء كثيرة أكّدت لهما حسن اختيارهما لبعضهما. لكنّ السؤال الذي يفرض نفسه -في ظل ذلك التمرّد الذي يتميز به بعلها الغامض- هو هل سوف تبقى الأمور على نفس الدرجة من الهدوء والشوق؟! أم أن الباب مفتوح للمفاجآت!

هذا ما لم يكن هو نفسه متأكد منه، ليس شكًا في حبّها وشوقها له، بل خوف من نفسه هو بالأخص!

ليرحل وفي رأسه ألف سؤال..

-هل وفّقت هذه المرّة فعلًا؟!

هل أكيد تزوّجت أم هو مُجرد حلم من عالم التائبين؟!

هل تخطيت مرحلة الخطر؟!

هل حقيقة انتهى كابوس وحدتي؟!

كان طوال رحلة العودة، يحاول الإجابة على كل تلك الأسئلة، لكن تبدو الأمور بذهنه غير واضحة تماما، ليعود من جديد إلى وحدته، لم يكن يخفّف عنه ذلك إلّا تواصله بعروسه وحضور ابنته في حياته، بعض المرّات تَشعر وكأنّه حبيس الماضي أو هو لا يريد مغادرته أصلًا! ربما يخيفه المستقبل، الذي أصبح يُمارسه فقط من خلال زوجته، تلك المسكينة التي كثيرًا ما كانت تُحاول أن تتقرّب منه أكثر، أن تصنع لها مكانًا وسط تلك الزّحمة الخانقة التي يعيشها، كان قد حكى لها على كل شيء من البداية حتى النهاية، لم يخفِ مُعاناته مع الحبّ الأول، ولا معاناته بعيدًا عن ابنته، بدتْ جدّ مُتفهّمة لكل ذلك، بكثير من الحنان والذّكاء الأنثوي الحذر، لم يتعوّد بعد على هذا النوع من النساء المتفهّمات، بطبعهنّ الهادئ، خاصّة عندما قبلت التحدي.

قد حذّرها مرارًا من ثقل الحمل عليه وعليها، وأنّه ربّما لن يُشفى من سطوة وقسوة ماضيه! يبدو أنّها أحبته بصدق وإلّا ما معنى كل ذلك العطاء الأنثوي الفاخر! تعلمُ جيّدًا أنّ في قلبه أشياء كثيرة تُنازعها حبّه، ويدرك هو -بعض الشيء- أنّ عليه

التركيز على الحاضر ليتخلّص من ذلك التناحر والهوس الحاصل بفؤاده، بكلّ ما يحمله قلبه من تناقضات، أنْ يقتنع خاصّة أنّه بحاجة للمساعدة، ربّما قد أدرك هذا النقص جيدًا، ولهذا قبل الارتباط بها، أحسّ أن لها طاقة وقدرة عجيبة على الأخذ بيده بعيدًا عن ذلك العبء الثقيل.

توالت الأيام، بل الشهور، عاشها فيها خالد بين العمل والروتين وبعض لقاءاته القليلة بصديقه بيدرو، كانت قد مرّت على آخر زيارة له لزوجته شهرين، فقرّر فجأة السفر إليها ثانية، كان يجد راحة كبيرة حين يعيش تلك الأيام رفقتها، يرى نفسه بحضورها كالملك مع ملكته، لا ينقصه شيء حتى أن الماضي يغيب عنه خلال تواجده بجنبها، لم تكن تترك الفرصة لأيّ شيء ينغّص عليه مزاجه إلا نادرًا، خاصة حين يشتاق لابنته، كانت تتفهم ذلك جيدًا، تفعل المستحيل لتخفّف عنه ذلك الوجع الأبوي، وقد نجحت فعلًا حتى يوم غضب منها.. فقد كان كثيرًا ما يدور بينهما حديث عن المستقبل، تدلي برأيها بكل عفوية وصدق، فترى أنّ مكانها معه حيثما يتواجدَ، وليس كل واحد في بلد، لكنّها لاحظت أنّها كلما فتحت معه تلك السيرة تعصّب وثار، فتجد ردّة فعله غير مفهومة ورأيه غير محدّد، لدرجة أنّ الأمر صار يغضبه، ليقطع عطلته ويعود.

صار رافضًا تمامًا لفكرة أن تلتحق به بإسبانيا، وفي نفس الوقت يُوضّح لها أنّه لا يستطيع دخول مصر لأنّه لن يستطيع الاستغناء عن رؤية ابنته المعاقة، ثم يتحجج مرّة أخرى بأنّ دُخوله النهائي، يتطلب ترتيبات مادية كبيرة تساعدهم على الاستقرار، لم تكن تفهم ما يدور برأسه بالضّبط! لكن الّذي أحسّت به من خلال نقاشاتهما المتكرّرة أنّه ربّما يخاف منها، من أن يأتي يوم تفارقه هناك إن فشلت علاقتهما، فيعود لوحدته! لهذا ربّما يودّ قطع الطريق عليها فقط لكي لا يفقدها هي كذلك! كان ذلك يؤلمها كثيرًا، تراه إجحافًا في حقها وعدم ثقة، أمّا هو فربما كان هذا خوفًا من الكمّ الهائل والمخيف من الطلاق والزيجات الفاشلة هناك، حتى وصل به الأمر في أن يخيّرها، إمّا أن تقبل الوضعية التي هم عليها الآن، في انتظار تحسّن الأمور مع الوقت والسنوات، وإمّا أن تختار الأسوأ! فكانت كلّ مرّة تختار الصمت والصبر لربّما يجعل الله لها مخرجًا.

كانت عودته ككلّ مرّة يعود فيها، ليجد الوّحدة القاتلة تنتظره، لا أحد في انتظاره، مُجبرًا في أن يفعل كل شيء بنفسه، كثيرًا ما يكلم نفسه كالمجنون التائه. ليذهب في ذلك المساء نفسه، لرؤية صديقه رغم تعب السفر..

-أهلًا صديقي تفضل. أظنك اشتقت لمنزل التائبين ههه!

-قد تُبت ههه..

-دعك من المزاح وأخبرني عن القاهرة وعن أخبار زوجتك!

-الأحوال جميلة ورائعة هناك، فالقاهرة رائعة وأناسها طيبون جدًا، رغم الفوضى واللا مبالاة التي تعيشها بعض أحياءها، أمّا زوجتي فأمورها جيّدة، لكن كما تعلم صديقك يعاني من ماضيه الذي يتبعه كظله! فأكيد يُتعبها ذلك تبعًا..

-بزواجك منها قد تخطيت فعلًا، أزمة كادت تتركك سجينًا بالماضي! أهنئك، هي خطوة تُحسب لك، أكيد تريد جلبها إلى هنا ليكتمل الشمل؟!

-حقيقةً لا أدري بعد!

-أمرك غريب! فلما تزوجتها إذًا؟!

لم يعد يحتمل النّقاش حول ذلك الموضوع، الذي أصبح يسمعه كثيرًا فينفر منه كالعادة، رجع من عنده ليعود إلى شقته، ليجد ذلك الشّعور الذي طالما حاول تجاهله، إنّها النوستالجيا، شبح الحنين إلى الماضي، ذهب يبحث في صوره القديمة لعلّها تنقله بخياله إلى زمن قد انقضى، تلك الجوارح التي ما يزال البعض منها هناك، عالقة بميناء ذلك الزمن المتوقف، ورغم التعب والسفر قرّر

الخروج للمرّة الثانية في نفس ذلك اليوم، متوجّهًا إلى بيته القديم أين تسكن طليقته وابنته.

قام بركن سيارته بعيدًا عن منزلها، ثم تقدّم وفتح باب الفناء الأمامي للبيت، الذي عادة ما يكون مفتوحًا، تسلّل خفية إلى الحديقة الخلفية، يجول بناظره وخياله يتأمّل المكان، لا شيء تغيّر منذ رحيله، بل بقي كما تركه آخر مرّة! يبدو أن ياسمين لم تحاول تغيير شيء من حولها! وربّما هي كذلك تعاني لكن بصمت. أخذ مكانًا قرب باب المطبخ المؤدي للحديقة وجلس على كرسي خشبي، كان صوتُها داخل مطبخها مرتفع وهي تتكلم من على هاتفها، تنهّد محاولًا استرجاع لحظات جميلة من ذاكرته المتعبة، دون أن يسمح لأيّة لحظة تعيسة في أن تُنغّص عليه استمتاعه الصامت، تذكّر ابنته وضحكتها اللؤلؤية البيضاء الساحرة، وهي تلعب أمامه بنفس المكان وقد افترش لها قماشًا، يداعب أرجلها فتضحك، تذكّر إعاقتها فابتلت عيناه..

بدأ فجأة صوت ياسمين يعلو من حوله شيئًا فشيئًا، يبدو أنّها تخاطب شخصًا فتقول له..

-والله قد ارتحت حين نسيته، قد قطعت الجسر الذي كان بيننا، لم أعد مرتبطة بذكرياته، قد تطلّب الأمر منّي أن أتابع عدّة جلسات عند طبيب نفسي.

صمتت لثواني...

ربما تنصت لرد ذلك الشخص لتضيف..

– أكيد لم يكن هذا سهلًا في البداية، لكن كان عليّ أن أفعل، فقد رحل دون عودة ولم يهتمّ! بل تزوج من أخرى!

بدأ الصوت يقترب منه شيئًا فشيئًا، يبدو أنها سوف تخرج إلى الحديقة! بقي ساكنًا، كان داخله يحترق ببطء، فجأة فتحت الباب لتجده أمامها جالسًا مستندًا على جدار المطبخ ينظر جهة الحديقة كصنم بلا روح، صرخت بأعلى صوتها فزعًا لمدة دقائق طويلة، حتى تعبت لتوجه إليه سلسلة أسئلة متتالية..

–منذ متى وأنت هنا؟

كيف لك أن تأتي إلى هنا دون أن تعلمني؟

تتجسس عليّ! أليس كذلك؟!

ربما ليست المرّة الأولى التي تفعلها؟!

الآن بسببك سوف أشكّ في كل شيء من حولي..

صرت ترعبني..

اللّعنة عليك يا خالد..

بقي هادئًا، صامتًا، حتى أنهت كلامها وسخَطها لينطق أخيرًا..

– أحضر لي ابنتي من فضلك..

تغيرت ملامح وجهها! وهدأت ثورتها، ربّما كانت تنتظر منه ردّة فعل مغايرة تمامًا! فقد كانت متأكدة أنّه سمعها وهي تتحدّث عنه، لكنّه تجاهلها ببرودة مستفزّة، ولم يأبه إلّا لابنته، التي ما أن سمعت صوته، حتى أسرعت إليه واقتربت منه تعانقه، وضعها على حجره، ابتسمت وهي تلعب بقرصها الدائري المولعة به. غادرت أمّها المكان ساخطة لتدخل مطبخها وتغلق الباب بنرفزة ظاهرة، انفجر أخيرًا فأجهش بالبكاء بعد أن غلبته دموعه الفيّاضة.

بعد بضعة دقائق لعب فيها مع ابنته، قام ليدقّ الباب ليسلّمها لها، ما نبس بكلمة، ركب سيارته ورحل، ابتعد عن ذلك المكان وذلك الشارع، الذي ما فتئ يُذكّره بزمن مضى، تغيّرت أوجه جيرانه، مات بعضهم لكبر سنه، ورحل بعضهم من الحيّ كله كما فعل هو، لكن المكان لم يفقد بعد رائحته، فالأماكن هنا بغرناطة ترفض التغيير، تتمسك بالماضي مثله تمامًا..

أمره غريب فعلًا! كيف يتمسّك بالماضي في حين لا زال ينتظر ماذا سيحدث بالمستقبل؟! لا شكّ أنّ الحنين إلى الماضي بتفاصيله شيء جميل، يمدّنا بالسعادة وراحة نفسٍ عظيمة، لكن هنا بالذات تكمن خطورته، إذا أدمنّا استرجاع ذكرياته! لربما هذا ما وقع فيه

خالد وما يعيشه يوميًا دون أن يشعر، ما دام ذلك كان يُخفّف من توتّره وألمه النّفسي، في بحثه عن السعادة بشكل متكرّر.

الحقيقة أن انسحابه وهروبه من الحاضر أصبح أسلوبه في الحياة، عاجز عن اتخاذ قرارات صحيحة حتى مع أقرب الناس إليه مثل زوجته. يتذكّر ماضيه بعين مشرقة، فيعيد تذكّر الأحداث السعيدة فقط، لكن الأكيد بعد الذي سمعه وراءه اليوم صدفة- من المرأة الأكثر هوسًا بها- قد يؤثر في قراراته المستقبلية..

لكن كيف؟

وإلى أي مدى؟!

ذلك ما سوف تجيبنا عليه الأيام القادمة.

الفصل الثامن

اجتمع بصديقه الوحيد الذي يلقبه دائمًا بالغجري، كون أصوله غجرية، كانا جالسين بساحة باب الرملة، المحاذية لسوق القيصرية الشعبي، يدردشون حول فنجان قهوة، يُمضون بعض الوقت كالعادة، فجأة لمح خالد شخصًا جالس غير بعيد عنه، كان ذلك الشخص امرأة سمراء جميلة، لم يستطع تحديد ملامحها من مكانه، لكنّ الشبه قد حرك فيه شيء من التطفّل، استأذن صديقه، وراح يقترب من طاولتها يسألها بأدب إن كانت هي من يظنها..

-أرجو المعذرة سيدتي، ألست هاجر؟!

اندهشت المرأة لتردّ عليه..

-من تكون حضرتك؟!

-خالد..

قامت من مكانها مقطّبة جبينها وحاجبيها، استغرابا واندهاشا لما تسمعه وتراه أمامها، حتى كادت تسقط..

أمسك يدها بحركة سريعة، منع عنها السقوط..

-شكرًا لك لكن، ألست خالد أيام الجامعة؟! من عزبة تونس؟!

-إذًا أنت هي!

كان بريق عيونهما يوحي أن ثمّة ذكريات قديمة بينهما، أكيد هي من تكلّم عنها لزوجته نادية حين كانا ببرج القاهرة! لكن أيّ صدفة هاته التي جمعتهُما بهذا المكان؟!

دعته للجلوس معهما، لكنّه اعتذر كونها كانت رفقة صديقة لها، ليتبادلا سريعًا بعض الكلمات، تواعدا على لقاء يجمعهما في نهاية مساء ذلك اليوم نفسه، كونها ستغادر غرناطة في اليوم الموالي، ليرجع إلى طاولته، مبتسمًا مستغربًا من ذلك اللقاء الغريب وربّما الخيالي!

كان بيدرو ما يزال يراقبه من مكانه باستغراب واضح، وما أن جلس راح يسأله..

- من تكون تلك المرأة؟ فقد عرفتها من الوهلة الأولى؟!

-أراك تهتم كثيرا بتفاصيلي أيها الغجري!

ضحك من كلامه..

-نحن الغجر، نغوص بالوجوه نتصفّحها، لنعرفها أكثر!

تنهد ببطيء شديد ليعود فيكمل كلامه..

-أعرفها منذ ما يفوق العشرون سنة، لم تتغير كثيرًا، ما زال بريق عينيها نفسه لم ينطفئ..

-إذًا هي قصّة حبّ قديمة؟!

-بالنسبة لي كان مجرّد إعجابٍ أكثر من كونه حبًّا، كانت حينها طالبة بكلية الطب، وكنت أنا بكلية الآداب بجامعة القاهرة..

-وما قصّتها إن لم يكن يزعجك ذلك طبعًا؟

- انتهت القصة في عامها الأول، حيث رحلت في نهاية العام الدراسي إلى أمريكا دون أن تخبرني ومن وقتها افترقنا، ولم نلتقي بعدها أبدًا..

-هل بحثت عنها بعد ذلك؟

-أكيد، لكن دون جدوى..

- أحينها كنت تعرف طليقتك ياسمين؟!

-أكيد! أنسيت أنّها ابنة عمّي؟!

-لا، لم أقصد هذا ههه! ما قصدته هو، هل كنت تتواصل معها حينها؟

-لا، كان التواصل منقطعا حينها لأسباب اِعفني من ذكرها..

-وما تنوي فعله خلال لقائكما المسائي؟!

-إلى ما ترمي إليه بالضبط؟! أعرفك غجري متهوّر..

-أقصد القصّة القديمة..

-دعك من الخيال، كانت قصّة وانتهت..

-أظنّك تجهل عالم النساء يا صديقي!

- وما يتعبني غيره! ألا يكفيني ما رأيت وما تحمّلته منهنّ! لا تنسى كذلك أنّي متزوج الآن ولربّما هي كذلك!

-ربّما، لكنّي أشم رائح قصّة على الأبواب؟!

- اطمئنّ، اكتفي بزوجتي، يكفي أنّها صابرة وأنا بعيد عنها لشهور، ولا تنسى أنّي ما زلت أعاني من الماضي لحد الآن!

-بالمناسبة، هل قمت بإجراءات الضّم أم ما تزال تتماطل كعادتك؟

-قد سألتني هذا ألف مرّة!

-إذا لم تفعل بعد!

صمت خالد للحظات طويلة ليضيف ذلك الغجري..

-تخاف من النساء يا خالد؟!

- لا أعرف! ربّما هو الخوف من أن أفقدها هي كذلك!

-ولماذا ربطتها بك إذا؟

-أراها حلمي الذي كان ضائعًا منّي..

-غريب أمرك صديقي! يستحسن بك أن تُراجع طبيبًا نفسيًا في أسرع وقت، فمنذ أن عرفتك لم تخرج من حالة التيهان هاته! أترى هذا عدلٌ في حقّ زوجتك؟!

قام وانصرف منزعجًا، تاركًا صديقه يضرب أخماسًا بأسداس..

الساعة 19 :00 مساءً..

لبس سروال جينز وقميص خفيف رفقة حذاء شبه رياضي، يتلاءم والشكل العام لهندامه، كان اللقاء في نفس تلك الساحة، جو هادئ وجميل، أمّا هي فكانت تبدو أنيقة مبتسمة..

-مساءك سعيد هاجر..

-مساءك أسعد خالد، في الحقيقة أنا جدّ جائعة، لم آكل طوال النهار، وإن لم يكن لك مانع، سأطلب طبق من السوشيSushi..

-أكيد لا مانع عندي..

نادت على النادل لتطلب تلك الأكلة اليابانية التي صارت مشهورة في العالم كله.

-صرحت بعيدًا يا خالد! أتعرف أنّك ازددت وسامةً أكثر من قبل!

ابتسم ليرد..

-شكرًا، حتّى أنت لم تتغيري كثيرًا، ربّما أكبرك بعامين، لكنّك تبدين في الثلاثين من عمرك!

-ممتاز، لم تعد ذلك الصعيدي الخجول أيّام الشِلّة ههه..

قهقه ليضيف..

-من منّا لم يتغير؟

أي خالد يتكلم اليوم؟ هل الذي يعاني كثيرًا من النوستالجيا، لأنها تجعله -بطريقة غامضة- يشعر كأنه أفضل؟! أم الذي يخاف من المستقبل؟! أم الرجل المتزوّج حديثًا؟!

حضر السوشي، راحت تأكل بشهيّة ولذّة مبالغ فيها، لا يعتريها أي توتر أو قلق، تنظر إليه بشغف واضح، بينما كان هو يقابلها بشيء من الخجل أو الحرج، أو ربما هو الحذر! يبدو عليه بعض التوتر، رغم أنّه يعرف جيدًا أنّه بسماء بغرناطة، مدينة سياحية بامتياز، وأنّ اللقاءات في الأماكن العامة شيء روتيني وعادي، مثل لقاءهم هذا تمامًا، ما دام لن يتكرر! ربّما أحسّ ببعض الحرج كونه مُتزوج، كانت ريفيته الأصيلة دائمًا ما تغلب على طبعه المتمرّد، لكن ليس في كل المواقف طبعًا..

بقيت صامتة، تأكل وتراقبه..

ليضيف قائلًا..

-ما بك يا هاجر؟ تحدّقين بي وكأنّ أمر لقائنا من الخيال؟!

– أتعجّبُ فقط! أهي الصدفة! أم لقاء مرتّب من القدر؟! أكيد للقدر ترتيباته الخاصة به!

– لا تحمّلي الأمر أكثر من أنّه مُجرّد لقاء عادي، قد يحصل لأي اثنين افترقا لسنوات ثم عادا ليلتقيا صدفة..

–لكن لماذا في هذا التوقيت بالذّات؟

أعاد نفس السؤال بينه وبين نفسه.. فعلًا لماذا ألتقيها بهذا الوقت بالذات؟

ليرجع فيسألها..

–ماذا تقصدين؟!

– لا شيء، أخبرك في وقت آخر..

ليبقى ذلك السؤال بلا جواب!!

–صحيح أنّك سوف تغادرين غدًا؟

غلب على عينيها بريق فابتسمت..

–تُريدني أن أبقى لأيام إضافية..

– ليس هذا ما قصدته، وإن كان هذا يُسعدني طبعًا..

–لماذا لستَ صريحًا مع نفسك يا خالد؟

ابتسم وغاب للحظة ليعود فيقول..

-أي صراحة تريدين سماعها؟!

أكيد لا يزال يتذكّر بعضًا من شخصيتها الماضية أيام الدراسة..

-لنترك هذا جانبًا الآن، حدّثني عنك، عن ماضيك بعد فراقنا، وعن حاضرك في غيابي..

يبدو أن السّهرة ستطول، لكن لا مفرّ له من أن يحكي لها، وأن يستمع لها خاصّة، كانا مرتاحين في الحديث وكأنّهما لم يفترقا إلّا منذ أشهر! اقترحت عليه أن يمضي الليلة معها بالفندق، تردّد قليلًا، لكن مع إلحاحها الفظيع رضخ لطلبها.

ليلة الفندق..

غرفة بها سرير كبير لشخصين، على جنبيه طاولة السرير عليهما حاملة المصباح الليلي، يقابل المشهد، تلفاز من نوع LG، متوسط الحجم معلّقًا على الجدار، وعن اليسار منه طاولة عليها بعض حاجياتها، كمبيوتر آبل متوسط الحجم، بجانبه بعض الملفات، والمحاضرات التي كانت ألقتها بكلية الطب بغرناطة، استلقى على السرير بملابسه، يبدو غير مرتاحًا بتواجده هنا، كانت قد استأذنته في أخذ حمام بعد أن همست له..

-حضّر نفسك لتأخذ حمامًا بعدي يزيح عنك بعض التّعب ويجعلك أكثر انتعاشًا..

بقي وحده يداعب خياله، يحاول أن يفهم ما يقع له، لكن دون جدوى، ليقطع حبل خياله ويلتقط علبة التحكم ليضغط على زر تشغيل التلفاز، لا يوجد شيء يثير اهتمامه، ليرفع نظره للسقف، كأنّه يتبع شيئًا ما يحوم حول رأسه! ليعود لعادته القديمة، يكلّم نفسه عندما تضيق عليه الدنيا..

-ماذا تفعل هنا يا خالد؟ ما قصّتك؟

أكيد لن يجد إجابة هو نفسه يتهرّب منها..

بعد لحظات خرجت مبتسمة يلفّ جسدها برنس الحمام القطني، تدعوه للاستحمام بدوره، بقي ينظر إليها للحظات طويلة..

-يا خالد أين ذهبت؟

انتبه لصوتها فردّ..

-لا شيء، حمام العافية..

-شكرًا، دورك الآن..

دخل إلى الحمام، أعاد ملئ حوض الاستحمام ودخل ليسترخي، يحاول أن يستعيد هدوءه لعلّه يفهم ما يدور حوله، لم يشعر بالوقت الذي مرّ، حتى قامت من مكانها تستفقده، لربما وقع له مكروها..

-أأنت بخير يا خالد؟

لم يرد..

طرقت الباب بشدة..

-خالد، هل تسمعني؟

أخيرًا ردّ عليها..

-نعم..

-قلقت عليك، هل كل شيء على ما يرام؟

-أجل، أردت أن آخذ وقتي في الحمام فقط..

خرج بعد خمس دقائق ملفوفًا بفوطة الحمام، ليجلس على حافة السرير، يجفف شعره، لتقترب منه بهدوء لتهمس له..

-آسفة، كان علي أن أصبر أكثر من هذا، لكن اعذرني، اشتقت لك..

التصقت به جهة ظهره، ارتعش قليلًا، حاول أن يبعد ذهنه عن فكرة الجنس التي بدأت تسيطر عليه ليبادرها محاولًا فك أسره..

-كانت جلسة العشاء رائعة، أتمنّى أنّي لم أزعجُك بقصصي وثرثرتي الزائدة!

اقترب نفسها حتى بلغ شحمة أذنه اليمنى لتهمس له مرّة ثانية..

-أكيد لم تُزعجني، فمعرفة تفاصيل حياتك تهمني كثيرًا، كلانا قد مرّ بظروف صعبة، ولكل منّا شكوى وحكاية، لكنّ لقائنا الليلة في حد ذاته قصّة قد بدأت أولى حلقاتها الليلة..

كانت بداية القصّة قد بدأت فعلًا، تكتب بألوان حمراء فاقعة، يرافقها صوت عبد الحليم..

..أبو عيون جريئة..

..قولولو.. قولولو.. قولولو.. قولولو الحقيقة

.. قولولو..بحبه، بحبه. من أول دقيقة

..قولولو بحبه.. ومتوّهني حبه..

..في بحوره الغريقة، أبو عيون جريئة.

رافقها في الصّباح الباكر إلى المطار، كان يبدو عليها التأثّر لفراقه، أمّا هو فكان صامتًا بوجه لا يوحي بشيء، يصعبُ التنبّؤ بما يفكر، افترقا بنية التواصل، سلمته في آخر لحظة رسالة ثم قبلة ثم رحلت.

كان كلٌ منهما قد خرج بانطباع ما من ذلك اللقاء، ليعود إلى بيته يفكر في كل ما حصل، وما أن وصل حتى اتّخذ مكانًا بالمطبخ بعد أن حضّر فنجان من الشّاي، وراح يفتح الرسالة يقرأها..

«إلى حبيبي خالد..

أريد فقط أن أخطّ لك بعض الكلمات، للتّعبير من خلالها عن فرحتي وبهجتي واحترامي لك، قد قضيت رفقتك أوقاتًا أظنّها الأكثر جمالًا والأكثر روعة. للأسف، الوقت كان يمرّ بسرعة، كان ولا بدّ أن

أرحل! كم أنا حزينة! لكن في نفس الوقت، أرجع وأقول لنفسي، هذه مجرّد بداية لرحلتنا، لقصّة حبّنا القديمة، أكثر القصص خصوصيةً.

أنا سعيدة للغاية لأنّنا أمضينا بعض الوقت المُمتع بالسهرة، سمح لنا بأن نتعرف على بعضنا البعض أكثر. كانت رؤيتك بعد أكثر من 20 سنة حلمًا، كان بعيد المنال، فأصبح اليوم حقيقة واقعة، وأكيد لا شيء كان صدفة، بل كان كلّ شيء مقصود، ومقصود أن أكون معك الليلة.

نحن من المفترض أن نكون معًا، أكيد تعرف هذا، لكنّي أردّتك أن تسمعها منّي من خلال هاته الكلمات، أحببتك منذ سنوات طويلة مضت، وأحببتك لثاني مرّة، حين سمعت صوتك لأوّل مرّة في تلك الساحة الغرناطية الرائعة، حين رأيت وجهك البهيّ أمامي يُخاطبني كملاكٌ من السّماء. أنت رجلٌ له كلمة، يُراعي الحبّ، له كثيرٌ من الإحساس، لهذا كلّه أحببتك وأحبك..

قضينا ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة، هي دليل على حبّنا الحي، وحياتنا ومخاوفنا، شكوكنا وفرحنا. معك حبيبي- خالد، حقيقةً قد وجدتُ نفسي، فوجدتّنُي أحبّك أكثر. أحبّذ البقاء بجانبك، ألمسك، أقبّلك، أناولك الطعام، أنام معك بشراهة.

كل هذا في الواقع، ما هو إلّا دليل على حبّنا، عالمنا الخاص الذي يرافقنا فيه حليم وأغانيه الجيّاشة، لذا أطلب منك حبيبي أن لا تغلق الباب في وجهي..

دعنا نسافر من أجل حياة أفضل..

دعنا نحلم..

دعنا نعمل معا لتحقيق النجاح، وتحقيق مشاريعنا سوية..

أعتقد أنّني قلت كل شيء، أو على الأقل عبّرت عن إحساسي في هذه اللحظات بالذّات وأنت نائم جنبي، أشتاق لك ولم أرحل بعد..

أودّ أن أشكرك مئات المرّات على سهرة سوق القيصرية، وألف مرّة على ليلة الفندق السحرية الخيالية التي قضيناها معًا، أشكر اهتمامك بي، وأخذك بعض الوقت لأجلي، أشكرك أنّك أحببتني وفكّرت بي.

أحبّك حبيبي خالد.

حبيبتك هاجر.

الفصل التاسع

بعد عودتها إلى نيويورك بيوم، هاتفته..

-أهلا حبيبي..

-أهلا بك، كيف كانت رحلتك، وكيف حال نيويورك؟!

-أكيد كانت مُتعبة، لكنّها كانت مثمرة بالنسبة لي وقد رأيتك، أمّا نيويورك، فالناس هنا مختلفون عن بقية المقاطعات الأمريكية الأخرى، تجد بها كل الأجناس، لذا هم متفتّحين جدًا. وأنت ما أحوالك بغرناطة الجميلة؟

-البلد هنا جميل جدًا، كما رأيت، بل رائع، خاصة التاريخ والعمارة الأندلسية!

-أكيد، فأنت تعشق التاريخ، لكن دعنا من هذا، لي سؤال يلحّ علي..

رفع يده يلامسها لجبينه، ثم يمرّرها على شعر رأسه مرّات عدّة، كأنّه يتوجّسُ خيفة ممّا سوف تقول..

-تفضلي خيرًا إن شاء الله..

-قرأتَ رسالتي؟

-أكيد..

-فما رأيك بما كتبت لك؟

-تأثّرت بها حقيقة، لم أشكّ يومًا في صدق مشاعرك نحوي..

-أتجد لقاءنا الماضي طبيعي؟!

صمت للحظة يتمتم فيها، ليضيف..

-لا أعرف، لكن أكيد ليس استثناء!

-ربما، لكنّي أُحسّ وكأنّ وراءه شيء ربّاني!

أصبحت كثيرًا ما تكرّر على مسامعه هذه العبارة الأخيرة، ربّما إحساسها يختلف عن إحساسه، فهو لا يرى في الأمر إلّا مجرّد صدفة عابرة.

لتفاجأه..

-أصارحك بشيء وقل عنّي ما تشاء، لو كنّا تقابلنا قبل زواجك الثاني، لما كنت تركتك تتزوّج غيري!

واضحٌ أنّها مهتمّة به كثيرًا، لدرجة أنّها لا تتردّد في توضيح ذلك، ومنذ ذلك الحوار الأخير، وذلك الإعلان الصريح، لم يعد خالد يعيش ذلك الروتين المُملّ بعد أن دخلت حياته، بل إنّها هزمت وحدته وضعفه ثمّ خوفه، كان يتأرجح بين تواصله القليل بزوجته

وكمّ التواصل الكبير الذي أصبح بينه وبين هذه القادمة الجديدة! كان يشعر مع الوقت أنّه يظلم زوجته بعلاقته المُبهمة بهاجر، لكنّه دائمًا ما يطمئُن نفسه، يسوق لها بأنّه متمسك بزوجته ولا يمكنه الاستغناء عن ذلك الحلم السّخي، ذلك الشيء الوحيد الذي يربطه بالحاضر! لكن ظهور شخصية كشخصية هاته النيويوركية، وتعلّقه بها وبأخبارها، بذلك الشكل الغامض، شيء لم يقدر على فهمه بعد! أو ربّما هو يتجاهل أي تفسيرٍ ممكنٍ لهذه العلاقة الجديدة لكي يبتعد عن الصدمة الأخيرة التي تلقّاها من ياسمين والتي لم يمتصها بعد.

كانت أحاديثهما تدور أغلب الوقت، حول قصّتهما القديمة وحول ما عانياه بعدها، حتى وصل الأمر بعد مرور شهر من ذلك، إلى شيء من التعلّق الغريب أو الإعجاب المتبادل! لم يكن مفهومًا، كيف وصلت الأمور بينهما إلى هذا الحد! حتى أقنعته أخيرًا بفكرة تلك المغامرة المجنونة.

كان متردّدًا في اتخاذ قرار صعبٍ كهذا..

أي قدر هذا الذي نُلصقُ به أي شيء غير مفهوم في تصوّرنا، ونرمي عليه أحلامنا الفاشلة! ماذا نُسمي ما يجري بينهما؟ هل هو حب حقيقي أم مُجرد تصوّر وخيالٍ عبطيٌ مريض؟! أم مجرد غاية تظهر بشكل فردي نطلق عليها صفة الحُبّ؟! أم ذلك حب من عالم آخر؟

-لا أعرفُ مصدر تردّدك يا حبيبي!

-أظنّ أنّني شرحت لك ظروفي وحالتي النفسية السيّئة، كما أنّني متزوج، ألا تري أنّ أمرَ ارتباطنا صعبٌ وربّما مستحيل!

لتضيف وكأنّها لم تسمعه..

-أرى أن تأتي هنا إلى نيويورك فأسوّي لكَ أوراقك ونعيش مع بعض سعداء، كأحلى زوجين.

أي جرأة تملُكها هاته المرأة! أم أنّه الحبّ في قالب نيويوركي!

واضح أنّها تريد أن تجتاحه بأي طريقة مُمكنة، ظنًّا منها أنّ حبّهما ليس وليد الفُرصة أو الصدفة، بل وليد القدر الذي تؤمن بأنّه لجانبها! قد جلب لها الشخص المناسب في الوقت المناسب.

يجيبها فيقول:

-أنسيت عزيزتي أنّني متزوج؟!

كان خالد يؤمن فيما مضى، بأنّ الحبّ اجتياح إنساني طارئ سريع العطب، أمّا اليوم فصار يخاف العطب قبل الحبّ.

-لا، لم أنسَ؟ لكن لماذا تُصرّ على مناداتي بعزيزتك! ألستُ حبيبتك؟

-أنت عزيزة جدًا، أما الحبّ فليس لنا عليه سلطان..

-أشعر أنّك تضع مساحة احترام بيني وبينك! وأنا أريدك حبيبًا لا صديقًا! تعرف أنّي أحببتك منذ لقائنا الأوّل بالقاهرة، ولم أنسك بعدها أبدًا، ولقاؤنا اليوم تدبير من الله لنكون مع بعض..

-صراحةً، هل يرضيك أن أنفصل عن زوجتي؟!

-أنت من يقدّر هذا يا خالد، ألا يكفيك حبّي واهتمامي بك وبمستقبلك؟

-بلى، أقدّر لك ذلك، لكن فكرة أن أتخلّى عن زوجتي مُستبعدة تمامًا!

الشجاعة في موقف كهذا قليل ما نراها خاصة حينما يكون العرض العيش بنيويورك! لكن هل سيصمد طويلًا أمام إصرارها الفظيع!!

-قلت لي أنّك غير مُغرمٍ بها؟

-هذا صحيح، لكن هذا لا يعني أبدًا أنّني لا أشعر بحبها لي، هي أولًا زوجتي، وثانيًا هي امرأة رائعة وذكيّة وعشرية جدًا، لم أرَ منها إلّا كل خير..

-أظنّك سوف تُحبهّا يومًا!

-ربّما..

-لكنّي متيّقنة أنّك تحبّني! فقط أنت جبان لا تحبّ التحدّي! أتذكُر لِما أحببتك من قبل؟

-ذكّريني أيّتها الأمريكية!

-لا بل مصرية، لكنّي لا أتنكر لجنسيتي الأمريكية، فهم من فتحوا لي أبواب التفوّق والنجاح، حتّى صرت معيدة جامعية في أكبر وأهمّ جامعة طبّ في العالم. المهمّ، لنعود لموضوعنا، كنتَ عندما عرفتكَ جبّارًا في التحدّي، أعرف جيدًا أنّي أخطأت في حقّك يومها، حين هجرتك وسافرت إلى هنا، ولهذا السبب أظنّك تعاقبني اليوم!

واضح أن رغبتها في احتوائه تلقى صُعوبة كبيرة، لم تستطع إبعاده عن زوجته، لربّما كانت تظنّ- بما أنّها لمست ذلك الحزن وتلك الكآبة- أنّه غير مهتم بزوجته فيكون أمر انفصاله عنها هيّن عنده، لكنّها هي كذلك، تبدو عنيدة جدًا كالصّخر، لا تقبل الهزيمة بسهولة من أوّل جولة..

أي تحدٍ ينتظر خالد هاته المرّة؟ فهو لم يعد ذلك الصعيدي المقبل على الحياة بشراهة ونهم، قد فقد تحدّيه الأوّل، ليستسلم لهواجس الماضي وهوس الحبّ الأوّل..

ربما هي تحبه بصدق! لكنّه لم يعد يهتم كثيرًا لفكرة حبّ القدر، التي تكرّرها على مسامعه كسحر أسود يكاد يصدقه!

كما يقال إنّ اعظم مُدلل على الوقوع في الحب هو أنّ الأمر اختياري بحت، لكن في حالة خالد مع هاته المرأة، يبدو كوصفة سحر أو لعنة ما! وما يؤكد ذلك هو ما وقع له بعد مدّة حين فاجأته بعرض لم يكن يتوقعه أبدًا..

-حبيبي، لي حل وسط قد يرضيك!

-بتّ أخاف من إصرارك الرهيب يا هاجر!

- وأنا لا يعجبني تردّدك يا خالد، أعرف أنّك تُحبني كما أحبّك، لا تتحجج بزوجتك أو حتى قلّة رزقك، أعرف ظروفك المادّية جيدًا! وأتفهم جيدًا أنّك لا تريد أن تتخلى عن زوجتك، لكن سوف أعرض عليك عرضًا ربما يبدو لك غريب لأوّل وهلة، لكنّه حلٌ يناسب الجميع.

كان ينقبض قلبه كلّما أرادت أن تصارحه بشيء جديد..

-تفضلي..

- أقبل أن أكون زوجتك الثانية، فقط لأبرهن لك أنّي أحبّك فوق ما تتصوّر، وأكثر من أيّ امرأة أحبّتك قبلي ولن يكون هناك أحد بعدي..

فجأة تراءى وتهيأ له، كأنّه يسمع صوت فيروز تغني..

..أنا لحبيبي وحبيبي إلي!

اهتزّ في مكانه، أغمض عينيه لربما هو يحلم ولا يدري..

انتبهت لصمته فانشغلت عليه..

-هل أنت معي يا خالد؟ هل أنت بخير حبيبي؟

كان قد انتقل، يبحث عن موجة ذلك الصوت بين آلات الزمن المتبعثرة في مجال خياله، لينقطع فجأة ذلك الصوت الفيروزي فيختفي. أحسّ بصداع شديد فقطع المكالمة فجأة، ليصرخ بأعلى صوته..

-يا الله أعنّي على نفسي، لم أعد أقدر على جنوني! اللعنة على الحب ومن يحبّ في يوم واحد.

لنجد أنفسنا نطرح ذلك التساؤل الذي يفرض نفسه في مثل هاته الحالات..

أهو ضعفٌ نفسيٌ يترجمهُ هوسٌ يعاني منه، أم سجين لا يعرف سجّانه! أم لعنة حبّ أصيب بها؟!

مع الوقت، بدأ يتحاشى التواصل مع زوجته لكي لا يشعرها بشدّته واكتئاب نفسه، كانت تعي جيدًا أنّه يعاني في صمت، لكنّها تجد نفسها مكبّلة لا تستطيع فعل شيء إلّا الصبر والدعاء له.

عاد بعد أيام من الصمت للتواصل مع هاجر..

-ماذا حدث لك بالمرّة الفارطة؟ قد قلقت عليكَ كثيرًا!

-لا شيء، انقطع الإنترنت فقط!

-متأكد أنّك بخير!

صمت لثواني ليضيف..

- أتظنين أنه بإمكانك تحمّل نتائج ما عرضته عليّا المرّة الفارطة!

-أعتبر هذا موافقة مبدئية منك على اقتراحي؟

-أجيبيني من فضلك..

-لأجلك أتحمّل حبس غيرتي، وقهر المرأة التي بداخلي! هي زوجتك قبل كل شيء، ولا أستطيع منعها عنك، لكن بشرط!

-أوتشرطين كذلك..!

-لا تخف، شرطي أن تحبّني أكثر من الاثنتين، حبّك الأوّل ياسمين، وزوجتك، فأصير رقم واحد في حياتك..

-هذا يرجع لمعاملتك لي، وما مدى تقديرك لظروفي ومعاناتي..

-لا تقلق من جهتي، لن تجد من يفهمك ويهتمّ بك أكثر منّي.

أتعتبر تلك مبادرة أو مجازفة منها غير متوقعة، أو غير محسوبة العواقب، خاصّة من امرأة مثلها، لا ينقصها شيء، مرتاحة ماديا، تعمل في أكبر الجامعات، تعيش في أكبر مدن الدنيا، جميلة، قد تجد ألف شابٍ عازبٍ يهتمّ لأمرها بعد أن تطلّقت! فلماذا خالد بالذات؟

أهو الحبّ فعلا! أم هو حبّ التملك مثلًا! أم يتشابهان في علّة وعقدة الماضي؟!

هذا ما كان يشغل بال خالد، لم يمنع نفسه من سؤالها عن كل هذا، لتجيبه..

-أنت بالذّات لأنّني مغرمة بك، لأنّك حنونٌ وطيبٌ وعفويٌ حتى السماء، والأهمّ أنّ لك جنونًا وطيشًا في الحبّ لا يملكه خمس وتسعون بالمائة من الرجال في هذا الزمن البائس.

كان تواصلهما يتقدم بهذا التناغم لأيّام، حتّى اقتنع تماما بخوض تلك التجربة الغامضة، لم يكن واضح لديه على أي أساس اتّخذ قرارا صعبا كهذا، يدرك -بعض الشيء- أنه يغامر بنفسه وبمستقبله الدراسي، وعائلته كذلك، زوجة تتحمّل غيابه وبُعده عنها وتقصيره اتجاهها، وابنة يُهمل أمرها رغم إعاقتها! لكنّه يتنكر لكل ذلك ليفرّ كالعادة للأمام.

قرّر أن يمهّد الأمر لزوجته قبل أن يسافر لزيارتها بالقاهرة، كان قراره في البوح لزوجته شجاعة، لا نعرف أنحسده عليها أم نشفق على نادية منها!

لأول مرّة يُحسّ بمرارة في حلقه وهو يتواصل معها، ليبادرها..

– إن لا قدر الله، وفعلت يومًا شيئًا يغضبك، هل تسامحينني بقلبك الطيّب؟!

كانت دائمًا واثقة من نفسها، ومن ردّها..

– المهم عندي أن أكون بجنبك..

–مهما كان هذا الأمر؟!

صمتت لثواني لتضيف..

–مثل ماذا؟

–لا أعرف، فلنفترض أصعبهم!

–أنا أحبّك لدرجة أنّي أغفر لك أي شيء تتخيّله..

من أي فرع أنثوي جاءت هذه المرأة ؟ ومن أيّ شيء تستمدّ كل تلك القوّة والصّمود أمام أمر ترتعد منه أقوى نساء العالم؟!

ليضيف..

–تعرفين أنّني رجل غريب الأطوار بعض المرّات، ولي بعض الجنون الغريب!.

ظلّ يلفّ ويدور حول الموضوع لأكثر من ساعة، بين شدّ ومدّ، أكيد أنّها شعرت بشيء مريب، لكنّها لم ترد أن تستبق الأحداث، لتترك له فرصة البوح بما لديه، يبدو جبانًا كما وصفته تلك النيويوركية، لذا

لم يتجرّأ، فاضطرت فتح ذلك الباب الذي بقي يحلّق فوقه عاليًا حتّى كاد يسقط فينكسر عنقه.

- أخبرك أمرًا تعرفه كل النساء، لكي أسهّل عليك هبوطك الاضطراري، إنّ أكثر شيء تخافه أي زوجة في العالم أو حتى مجرّد عشيقة هو أن يشيح عنها وجه من تحب، لأجل امرأة أخرى! فأكرّر عليك ما قلت لك آنفًا، أحبّك إلى درجة لا أظنّك تتخيّلها!

كان قولها، قد شجّعه على البوح من ما كان يخاف منه كردّة فعل تصدر منها..

-قد تزوجت عليك..

كانت عبارته تلك تعزف الكثير من الأسف والحزن، يدرك أنّه يرتكب حماقة كبيرة في حقّه وحقّها، ولم يكن مفهومًا بالضبط، لماذا يُعلمها بأمر لم يقدم عليه بعد؟ ربما ليقطع عليها الطريق في أن ترفض مثلًا! الأكيد هي مخاطرة لم يحسب لها حسابها وإلّا لما تجرأ، وقال ما قاله.

لم تصدقه، لتضيف..

-أكيد بقولك هذا، تريد أن تعرف مدى حبّي لك!

المسكينة، تحاول عبثًا مغالطة قلبها الذي أحسّ أنّ الأمر جدٌّ لا هزلٌ مبالغٌ فيه، لكنّها تُكابر وكأنّه كابوس لحظيٌّ لا تريد إيقاظه في نفسها الملتهبة!

-أعرف مدى حبّك لي وأقدّر ذلك، لكن ما قلته قد حصل فعلًا.

لا توجد عند المرأة، أصعب ولا أثقل من هذا الموقف إلّا الموت، يعتبر أشدّ الأمور فتكًا بالمرأة، وثقلًا على نفسها، خاصة وأنّها لم تقصّر في واجباتها تجاهه، اجْتاحتها رغبةٌ عارمةٌ في الانفجار من فرطَ إحماءٍ مُفاجئ، تتقاذفها مشاعر خيبة الأمل، والإحساس بالظلم العميق، لكنّها رغم كل تلك المشاعر الثائرة والحمم البركانية، شعرت بأنّها مقيّدة برباط وثيق لا يمكنها الفكاك منه، إنّه الحبّ، ذلك الإحساس الرائع الذي منع ذلك الانفجار من يفعل. فأيّ نوع من الحبّ تملك؟

بدأت تبكي بحرارة..

أكيد قد جُرحت كرامتها، وأي امرأة في مكانها لا بدّ لها وأن تصرخ، وتصرخ، إلى أن تهدأ ثورتها، لكنهّا لم تفعل، بل طلبت شيئًا آخر..

-أظنك لا تحتاج لي بعد اليوم! سوف أسهّل عليك الأمر لأتركَ لك المجال مع من تحبّ، لربّما انفصالنا يُعطيك سعادة كُنت أظنّني صاحبتُها! فيبدو أنّني فشلت فعلًا.

لم تسأله من هي! ولا دوافع قراره! كانت تبدو وكأنها تضحّي بكل شيء لأجله! ربّما لهذا رفض قرارها في الانفصال عنه، لكنّه لم يستطع التراجع عن كذبته، ولا عن أنانيته المبطّنة، كِذبة كذبها فصدّقها!!

راح يزفّ لهاجر خبر كذبه على زوجته، يبدو أنّه رفع شعارًا جديد تمامًا..

اكذب...ثم اكذب حتّى تصدّق نفسك.

يبدو الأمر هنا قد تجاوز حدود الخيال المتعارف عليه، ضرب من الجنون لو تحقّق، لاستحقّ عليه أوسكارًا! لكن إلى متى سوف يصدّق خرافته؟ وإلى أي مدى يستطيع أن يتمادى في ذلك؟!

يبدو فعلًا أنّه قرأ لأدولف هتلر حين قال يوما..

-اكذب كذبة كبيرة ثم حاولْ تبسيطها وكرّرها يوميًا، في النهاية ستُصدّقها حتمًا!!

لتعلّق هاجر على ذلك الجُنون..

-فعلًا أنت مجنون ههه! لهذا أحبّك! إذا لم يبق لنا إلّا أن نُطبّقَ كِذبتك ههه!

-أتركي لي الأمر حتّى أذهب وأعُود من زيارتي لزوجتي، بعدها نقرّر سويّة ماذا نفعل ..

-هل أنت مُضطرّ للذهاب إليها؟

-أرى أن الغيرة بدأت تشتغل! هذا سوف يصعب علي الأمر فاحذريه!

استدركت نفسها لتقول..

-لا تقلق، عد سريعًا فقط، لكن لي شرط..

-بدأتِ تشترطين من الآن!

-لا أبدًا، بل أريد أن نبقى على تواصل خلال مدّة تواجدك هناك..

-قد أصبحت زوجتي بالنسبة لها ههه! رغم أنّ الأمر لن يكُون سهلًا، لكن سأحاول.

قبل أن يسافر بيوم اجتمع مع صديقه بيدرو ليودّعه، لم يكن قد أخبره بما حصل..

-جميل أن تسافر لرؤية زوجتك، أكيد هي مشتاقة لك..

-حتى أنا مشتاق لها، لكن أرغبُ في أن أصارحك بشيء يخصّ علاقتي بهاجر..

-تفضّل أسمعك..

كأنّه متردّد في الحديث. لكنّه أقرّ له بسرّه..

-قررت الزواج منها..

-أكيد تمزح !

-لا ليست بمزحة، وقد صرّحت بذلك لزوجتي..

-وما كان موقفها؟

-اعترضت واقترحت علي الانفصال..

-أمرك عجيب يا خالد! تهرب من حفرة لتسقط في أخرى!

-ماذا تقصد؟

-هربت من ماض ياسمين الذي طالما عانيت منه، لترتبط بماض هاجر، الذي ربما يكون أفظع! أظنّك تستحلي العيش في الماضي الذي تألف أشخاصه، لأنّه ربما يصنع لك بعض الأمان والراحة! وفي نفس الوقت، تشعر بالخوف أو ربّما هو فقط التوجّس من المستقبل الذي تمثله زوجتك نادية!

-أرى أنّك صرت طبيب نفسي ولم تخبرني.. ههه!

كان كلام الغجري صحيح إلى حد ما، فخالد لا يعيش اللحظة الراهنة، وبذلك حتّى لو كان بإمكان زوجته أن تجعله أسعد إنسان لما أحسّ بذلك، ولمرّت تلك اللحظات سريعًا دون أن يشعر بها.

ليضيف صديقه ..

-هناك مثل يقول «الماضي قوت الأموات» ولا أظنّك ميت لكنّك تسلك ذات الطريق! يا صديقي..

-إنّك تهوّل الأمر يا نبيّ الغجر ههه، الحقيقة، أقدّر خوفك، لكن لا تقلق عليّ..

-أتعرف ما مشكلتك؟

-تفضّل أسمعك، أنشد ما تريد..

-إنّه شبح الوحدة، وهو كفيل بأن يهزم أقوى البشر..

-ربما، فقد كنت وحيدًا لسنوات مضت، وما أزال كذلك حتى بعد زواجي..

-عجبت لك، بعض المرّات تقرّ بمشكلتك، لكنّك رغم ذلك تُصرّ على الهروب قدمًا!

الفصل العاشر

جالس على كرسيه بالطائرة يُفكر، يحاول أن يتخيّل ردّة فعل زوجته عندما يلتقيان وجها لوجه، أكيد لا يعرفها جيدًا حتى يُجزم بشيء، لكنّه مُتأكد تمامًا، أنّها لا تجيد التمثيل ولا لعبة الأقنعة. وصل القاهرة أخيرًا، كان وجهها وهي تستقبله هذه المرّة، غير كلّ تلك المرّات السابقة، لا يُوحي بشيء غير ذلك الصمت المخيف، الذي أحسّ خالد ببشاعته، كانت العطلة لأيام قليلة، أرادها أن تكون بالإسكندرية، تلك المدينة الساحلية الجميلة والهادئة التي يُهدّدها الغرق -كأنّه في كل مرّة يختار فيها مدينة، يجدها تشبهه بطريقة أو بأخرى، فحتّى هو يهدّده الغرق- ظلت طوال الطريق إلى الإسكندرية شبه صامتة، لكنّها دائمة الابتسامة كعادتها، تحسّها سعيدة لرؤيته، رغم ما يفعله معها من بطش في الإحساس، لها طاقة وقوّة عجيبة في التحمّل والتأقلم! أكيد قد لمس انزعاجها وتغيّرها بعض الشيء! كل هذا بسبب كذبة صدّقها هو وجعلها تُصدّقها رغمًا عنها!

كانت العطلة ببيت أحد المهاجرين بإسبانيا، منزل غير مكتمل، ممّا جعل الغرف عبارة عن دهاليز تسكنها تيارات هوائية باردة جدًا، نحن

في نهاية شهر فبراير، هما يتشابهان في تأقلمهما مع أي ظرف كان، سرُّ كثيرًا وهو يراها تتدبّر أُمورها بالبيت دون تضمّر، بل كانت سعيدة لطيفة معه لدرجة أنّه استغرب أمرها، رنّ الفايبر على هاتفه فجأة، استأذنها في الخروج ليردّ على المكالمة، كانت هاجر من تطلبه..

-كيف كانت الرحلة حبيبي؟

-متعبة كالعادة..

-كيف حال ضرّتي ههه؟

-صامتة بعض الشيء..

-طبيعي أن تكون كذلك، لكنّها مع الوقت سوف تتفهّم الأمر..

-وأنت، كيف ترى الأمور؟

-أحاول أن أفاتحها في الموضوع من جديد، لحد الآن هي تتحاشى فتحه، وهذا ما استغربه منها!

-حاول بهدوء وسوف تنجح، أنت ذكيّ وبارع في الكلام المعسول، لكن لا تكثر منه هههه، سوف أغار!

بعد مرور ثلاثة أيام..

قرر زيارة والدته بعزبة تونس، كانت فرحتها كبيرة وهي ترى ابنها وكنّتها يدخلان عليها البيت، لكنّها بعد اليوم الأوّل لاحظت عزلة ابنها، لتقترب من كنتها تستفهم منها الأمر..

-ما به ولدي؟ أراه منعزلًا عنّا، وبعض المرّات أدخل عليه فأجده يكلم نفسه!

حاولت أن تطمئنها..

-لا تقلقي يا خالة، هو مجرد تعب يُعاني منه، جرّاء ضغط العمل وظروف الحياة هناك!

-أنت كذلك مهندسة وتعملين مثله، تعيشين الوحدة مثله تمامًا، ورغم ذلك تبدين مبتهجة فرحة!

حدّثتها نفسها للحظات..

-لو تعلمين ما يخفي ابنك يا خالة!

أكيد لم ترد شغل بالها على ابنها، لكنّها فعلًا قلقة على حالته، فلم يعد كما كان. بعد يومين من وجودهما هناك، قرّرا العودة، ودّعا الجميع، ليعودا لذلك البيت بالإسكندرية. وبمجرد أن حطّ الحقائب، حتى خرج مباشرة يحمل هاتفه..

-قد انقطعت عن التواصل معي ماذا حصل؟

-آسف، كنت في زيارة لأمّي، وكما تعلمين التواصل من هناك صعب..

-إن كان الأمر كذلك فلا بأس..

بعد أن أنهى مكالمته القصيرة، عاد أدراجه يبحث عن زوجته..

-نادية، عزيزتي الغالية أين أنتِ؟

وجدها بغرفة الصالون صامتة بوجهه مكهرب، وبمجرد أن سألها ما بها، انفجرت بالبكاء الهستيري، كانت تلك أوّل مرّة يراها في تلك الحالة الهائجة، حاول أن يأخذ بيدها لكنّها رفضت، يبدو أنّها كسرت ذلك الحاجز النفسي الذي كان يمنعها عن الكلام، لتسأله فتلومه..

-ألا ترى أنّك تبالغ كثيرًا في تصرفاتك تجاهي! فمنذ أن أتيت من غرناطة، تخرج كل يوم لأكثر من ساعة تقريبًا، تكلّمها فيها وتتركنني لوحدي! أنا لا أراك إلّا كل ثلاث أشهر، ألا تقدّر صعوبة الأمر بالنسبة لي؟ أم أنّ الأمر برمته لم يعد يهمّك!

ليرد عليها بعصبية زائدة وبشيء من الحزم..

-أولًا هي زوجتي مثلكِ تمامًا، لها نفس حقوقك، ثانيًا هي كذلك بعيدة عنّي لم ترني منذ مدّة طويلة!

يبدو أنّ حالته قد دخلت مرحلة متقدّمة جدًا، حتى يصل لدرجة أن يمثّل الدور بهذه البراعة والتقمص المُتقن والفظيع! كأنّها حقيقة لا غبار عليها! وضعيته تزداد سوءًا، أكثر ممّا كانت عليه بكثير، حتى يُصدّق كذبته بهذا الشكل الخُرافي! اِستسلمتْ أخيرًا لدموعها، تئنُّ

في صمت للحظات، ليتقدم منها فيمسك بيديها المرتعشتان، ضمّها إليه في صمت طويل جدًا.

كم هو بارع في التمثيل الدرامي والكذب! لكن إحساسه بها يبدو صادقًا، رغم رُدود أفعاله الغريبة جدًا. والحقيقة أنّه ليس بارعٌ في الكذب فقط، بل في الهروب كذلك!

وهو يحضنها عاد يكلم نفسه..

-المسكينة لا تستحقك منّك كل هذا، لكن الأمور انفلتت من بين يديك، لا حلّ لك إلّا تكملة المشوار لربّما تفرج من عنده!

أكيد، قد ضغطت على أعصابها كثيرًا حتّى انفجرت مرّة واحدة بتلك الصورة المهتزّة! لكنّه كما يبدو هو مجرّد انفجار الطيبين! فقد فهمت أن كثرة النبش في أمر كهذا لن يقدّم لها جديدًا، وبالمقابل لن تقبل أبدًا أن تكون سببًا في تخريب بيتها، ربّما الأمر يحتاج لبعض الوقت لتتقبله وتتعايش معه، والعناد في مثل هاته الوضعية لا فائدة منه، لكن أكيد الخيار هنا مرّ علقم!

استدرك نفسه ليقول لها..

-آسف، يعلم الله كم أحبّك وأُعزّ قلبك الطيب الحنون، وأشتاق لك دائمًا، لا أريد أن أخسرك صدّقيني، فأنتِ حلمي الذي طالما

انتظرته، ربما تسألين نفسك، ما دُمت مُتمسكًا بكِ لهذه الدرجة، فلماذا فعلت وتزوجت عليك؟ لفائدة من؟ لكن صدّقيني، أمور كثيرة أجهلُها عن نفسي، وحتمًا تجهلينها عنّي، تأكّدي أنّ كلّ هذا من فعل المعاناة النفسية المتراكمة بداخلي، أعرف أنّك تبذلين كل طاقتك لإسعادي وإرضائي، وأنا كالأبله أجازيكِ بالألم!

ساد صمتٌ قصير، لترد عليه..

– تأكّد أنّه لا يهمّني شيء ما دمت معك، دعنا ننسى الآن هذا الموضوع، قد تزوجتَ بثانية، وهذا ليس حرام وإن كان مؤلمًا لأيّ امرأة، لا أريد أن نمضي ما بقي من أيام لك معي هنا، في النّكد والنقاش المُملّ لكلانا، قد رضيت بقسمتي وبما بدا منك نحوي، المهمّ أن تكون مرتاحًا معي ومعها، وإلّا لن يكون هناك معنى لما قمت به.

تحجّرت الدموع بجفنتيه حتى انفَرطتْ دُفعة واحدة كأنّها حبّات مِسبحَة زاد الشدُّ عليها فتناثرت مرّة واحدة، لتقع بحضن زوجته التي اختبأت منكمشة بين ذراعيه، كطفلة عفوية بريئة لكن ذكية. كان ذلك المشهد قد أنهى عاصفة كادت تؤدي إلى ما لا يحمد عقباه، أشعره حينها بضعفه وقوّتها العجيبة. ليخرج بعدها إلى الشارع، يخبر فيها هاجر ما وقع معه، ظنًّا منهُ أنّ الأمر سيُفرحها، لكنّها انفجرت في وجهه..

-كيف لك أن تُعانقها وتُطبطب عليها!

لم يحتمل ذلك الردّ الصادر منها، فقرّر هذه المرّة أن يعنّفها على تماديها كثيرًا في غيرتها..

-ربما غيرتك نابعة من حبّك لي، أمر أتفهّمه جيدًا، لكن أن تصرخي في وجهي فهذا ما لا أقبله أبدًا! أنسيتِ أنّها زوجتي! أم أنّك صدّقت فعلًا أنّكِ كذلك! ربّما أنا أعاملكِ من منطلق -زوجة مستقبلية- من باب ما سوف يكون بيننا، لكن هذا لا يعطيك الحقّ أبدًا في أن تنفعلي بهذا الشكل غير اللائق! قد أضطر أن أعيد النظر في علاقتنا من الأساس! ولا تنسي أنّي صعيدي لا أحتمل أن ترفع امرأة صوتها عليّ البتّة!

ساد بينهما صمت طويل، لتستدرك قولها السابق فتضيف..

-آسفة حبيبي، انفعلت من فرط حبّي لك فقط، أنا كذلك أشعر هنا بوحدة قاتلة، أتذكّركَ كل وقت، ولا أُخفي عليك كذلك، أنّ وُجودك مع زوجتك، يجعلني أموت ألف مرّة! أعرف أنّنا تكلمنا في هذا، لكن رغمًا عني. فهو يؤلمني فعلًا..

تنهّد للحظات يستجمع فيها أعصابه المنهكة ليردّ عليها بهدوء..

-أتفهم موقفك ولا داعي للغيرة، فهي تخرّب بُيوتًا وتفرّق قلوبًا، دعينا نتقدم بعلاقتنا بعيد عن المشاكل.

خرج في ذلك المساء رفقة زوجته لقضاء بعض المشتريات، كانت لا تحبذ كثيرًا أكل المطاعم، بل تفضّل أن تطبخ له بيدها، فهي طاهية ماهرة، راح يراقب تلك الروح التي دبّت فيها مُجددًا، وهي تستمتع رفقته تُزاحم المارّة بأقرب سوق من إقامتهم – سوق الخضروات والفاكهة بسيدي بشر– تطلبُ منه رأيه في هذا وذوقه في ذاك، كان واعيًا أنّها جوهرة أساء قيمتها، بدأ يراها بعين رضيّة، ليعودا إلى ذلك البيت، فترتب أمورها وتحضّر له الحمّام، بل كانت تُحمّمه بنفسها كطفل مدلّل كسول، كان بدأ يشعر بالفارق وتلك الطاقة العجيبة التي يملكها قلب هاته المرأة الحديدية التي لا تملّ ولا تتعب، تحاول إرضائه حبًّا فيه، كانت السهرة تحت شموع تشبه شموع ليلة الدخلة تمامًا، كان يبدو خلالها مبتهجًا حتى القمّة.

وفي آخر يوم، وقفت تودّعه في آخر لحظات قبل رحيله..

-أحبك، لا تنسى هذا..

-وأنا كذلك.

رجع إلى غرناطة، ليدخل بيته فيستلقي على سريره، يعيد صور زوجته وهي تبكي! وهي تضحك! فيضحك تارة وتَنهمرُ دموعه تارة أخرى، يبدو أن حالته النفسية قد تحسنت بفضل تلك الأيام التي

قضاها معها، لكن رنّة الفايبر أيقظته من ذلك الإحساس ليجد أنّها ياسمين من تطلبه..

-أهلا ابنة العم، كيف حالكما؟

-نحن بخير، متى تأتي لتأخذ ابنتك بضعة أيام تستضيفها عندك، فقد أتعبتني وأريد أن آخذ بعض الراحة بعيدًا عن هنا..

تنهّد للحظة ليجيبها..

-أكيد سوف آت، لكن انتظري لأرى ظروف عملي وأخبرك بعدها، فقد وصلت لتوي..

انفجرت في وجهه دفعة واحدة..

-عندما تسافر لرؤية زوجتك المصون، لا يمنعك أي شيء عنها، أمّا عن ابنتك، فتُخرج لي على الدوام قصّة العمل والوقت وأشياء أخرى تافهة! اسمع، أنا لا أشحت منك! هي ابنتك كما هي ابنتي، فكن قدر المسؤولية وإلّا منعتها عنك نهائيًا!

حاول أن يكون أكثر هدوءًا منها، كان يعرف أن العناية بابنته المعاقة، تتطلب جهد ووقت كبيرين، لكن الذي كان يمنعه بعض المرّات هو ظروف عمله، وزياراته المتكرّرة لزوجته، وحُجج كهاته لم تكن ياسمين لتقبلها أبدًا، ممّا خلق بينهما شحناء، قطعت أواصر التواصل بينهما

لشهور، حُرم فيها من رُؤية ابنته وسماع أخبارها، لتتأزّم حالته أكثر بعد أن وجد نفسه يجابه ويعيش ثِقَلَ ثلاث جبهات مختلفة في آن واحد، لم يكن يجد من يُخفّف عنه ذلك الضياع إلّا خيار الهروب كالعادة.

بعد يومين..

اتصل به هاجر، التي فتحت معه موضوع التحاقه بها، بعد أن حكى لها متاعبه النفسية مع ياسمين، لربما تخفف عنه..

-ألم تقرّر بعد الابتعاد عن مشاكل طليقتك وتلتحق بي هنا! ألم تشتاقَ لي كما أشتاقُ لك؟

صمت للحظات ليرد فجأة..

-حضري الأوراق اللازمة ومن جهتي سوف أطلب التأشيرة..

طارت من الفرحة، كادت صوتها يخترق هاتفه..

-أخيرًا رضيت أن تأتي إلى هنا، كم أنا سعيدة بك ومحظوظة بوجودك في حياتي، قد قلت لك من قبل وكرّرت مرارًا، أن لقائنا بعد كل تلك السنين ليس عبثي، بل كان مكتوبًا لنا أن نلتقي ونجنّن العالم..

-يبقى أمر مهم عندي، هو الدراسة والعمل..

-لا تقلق، سوف أسجّلك في أحسن الجامعات، وأجد لك عملًا مؤقتًا، كما تعلم لي علاقاتي الخاصة هنا، لذا لا تهتمّ وغادر تلك البقعة البائسة.

بعد أشهر طويلة من الانتظار المرهق، استلم أخيرًا تأشيرة أمريكا. ليذهب يهاتف زوجته يخبرها بعزمه على الهجرة إلى زوجته المزعومة، لم تجد ما تقوله غير أن تتمنّى له التوفيق، رغم أنّها رأت في ذلك ما قد يفقده الكثير، لكنّها تعلم أن القرار الأخير يعود له، بما أنّه عنيد وأناني .

كانت ابنته فيروز آخر من رآها قبل سفره، لكنّه لم يخبر أمّها بأمر- هاجر، بل أرجع سفره للدراسة بمساعدة أحد معارفه هناك..

-ماذا أقول لك، أعرفك عنيد وكلامي لن يقدم ولن يؤخّر في الأمر شيئًا..

ليرد عليها بشيء من النرفزة..

-حاول أن تقولي شيئًا مختلفًا، مللتُ من أسطوانتك المشروخة، على الأقل شجعيني لترفعي من معنوياتي! من يسمعك يقول وكأنني ذاهب لجهنم وليس أمريكا!

-تبًا لك من عنيد ومستهتر، أتترك كل شيء وراءك لتعانق الأحلام! ألم تفكر في ابنتك المعاقة؟ فعلا رغم أنّك مررت بمحنٍ كثيرة وعانيت الكثير، إلّا أنّك لا تتعلم أبدًا، بل تُقدمُ على نفس الأخطاء الماضية والحل بين يديك..

-وما الحل في رأيك يا فيلسوفة غرناطة؟

-قدّم أوراق زوجتك لتستفيد من الضمّ العائلي، وبهذا تستطيع التكفل بابنتك بشكل أفضل! ما مشكلتك أخبرني بالله عليك؟

بقي صامتًا يعانق ابنته ويبكي، يُودّعها وداعًا مختلفًا هذه المرّة، يشُمّ رائحتها، يتحسّس أطرافها، يُداعب خدّيها الورديتان وهي تلعب أمامه، ليهمس لها ببعض الكلمات..

- سوف اشتاق لك حبيبتي الصغيرة، كم أنت جميلة لولا إعاقتك وصمتك الدائم! سوف أسافر بعيدًا عنكِ هاته المرّة، سآتي لرؤيتك بالطبع! اطمئني حبيبة قلبي، أعدك أن أرجع لتحسسّ وجهك الفيروزي هذا.

انصرف وهو يلوّح بيده لها، يودّعها حتى ابتعد..

بدأ يُحضّر حقيبة سفره،،يبدو متوتّرًا بعض الشيء، كانت هاجر على الخط تحاول التخفيف من توتره، تُؤكّد له أن المكان سيعجبه، لكن باله لا يزال منشغلا بابنته وزوجته البعيدة، أكيد سوف تتضاعف المسافة بينه وبينهما. ليلتقي في ذلك المساء بصديقه بيدرو، يُودّعه دون أن يترك له فرصة للحديث، طلب منه أن يتواصل معه من حين لآخر على رقم هاجر الذي زوّده به.

بعد رحلة مرهقة وغير مباشرة ولساعات طويلة، بداية من مطار مالقا، حطّت الطائرة أخيرًا بمدينة نيويورك على أرضية مطار كينيدي، عالم يختلف تمامًا عن جو القاهرة وحتى جو غرناطة، عقلية وثقافة أخرى مختلفة تمامًا، توجه مباشرة إلى المخرج الرئيسي أين يتواجد مكتب أعوان الجمارك، يواجهه عن يساره مجموعة كبيرة من الأروقة المصطفّة جنبًا إلى جنب والمزدحمة بالمسافرين.

تقدّم يُحاول ألّا يتوه، ليصل إلى مكان به اتجاهين كانت هاجر، قد وضّحتْ له بعض الأمور، ليسهَلَ عليه المرور بسهولة، دون أن يُضيّع الوقت- اتجاهٌ أو رواقٌ مخصّصٌ لحاملي الجنسية الأمريكية، ثمّ اتجاه ثانٍ لباقي الجنسيات الأخرى، أكيد عدد الجنسيات الأخرى كبير مقارنة بالرواق الأوّل. أخذَ استمارة الأجانب ليملأها ببعض المعلومات الضرورية المطلوبة، ثمّ مشى حتّى توقف عند لوحة الممنوعات يقرأها، كانت لُغته الإنجليزية لا بأس بها، سهّلت عليه أمور كثيرة، ليتقدم من إحدى العاملات لتُساعده على استخدام آلة الماسح الضوئي، ليسجّل عليها جواز سفره، فخلال مراقبته للذين سبقوه، لاحظ أنّ بعض تلك الآلات لا تنسخ ورقة المرور، لم تستغرق تلك العملية إلّا بعض الثواني، شكرَ تعاونها ومساعدتها له، ليدخل بعدها تجمّع رهيب من المسافرين، يجعلك تكتئب من

المشهد ومن الوقت الذي سوف يستغرقه مرورك من بينهم على مكتب الهجرة، لكن لحس حظّه، كانت أسئلة ذلك المكتب عادية وسريعة، ليتوجّه بعدها مباشرة إلى ردهة وصول الحقائب، ليستلم حقيبته ويتوجه إلى خارج تلك القاعة..

كانت تُلوّح له من بعيد بيدها اليمنى، وسط ذلك العدد الهائل من الناس. يا ترى، كيف سيكون لون اللقاء هذا؟! أعناق أحمرٌ جميل بعد عناق آخر مرّة؟! أم مُّجرّد تلامسَ خدود رمادية لا تفتح الشهيّة؟! الأكيد -في جوّ هذا المشهد الرومانسي المُربك- أنّ ذاكرة كليهما كان ينتظرها عملًا جبّارًا حيال هذا الموعد الخرافي! لكن ربّما تفضل الحياد هاته المرّة بعيدًا عن الماضي وذكرياته، ترافقها موسيقى «وايز بلوود» المعزوفة على البيانو داخل تلك الصالة الواسعة، لكنه حياد قد فشل، حين حضرت-خالد، كل تلك التساؤلات والمخاوف..

-هل أنجح هُنا في حين أنّي قد فشلت مرّات عدّة هناك؟!

-هل أكون في مستوى ما نحلُم به؟!

تساؤلات تتراقص في شكل نُوتات تعزفها تلك الفتاة الشقراء التي تتوسط صالة الانتظار، الحقيقة أنّها تجيد العزف جيدًا رغم صغر سنّها، عكس ارتباك رقصات تلك النوتات من بين يديها! حتّى أنّك تشعر أنّها أربكت الاثنين الماثلين أمامها اليوم، وجهًا لوجه، هنا بأرض الأحلام، أمريكا.

اليوم هو لقاءهما الثاني بعد لقاء الأخير بغرناطة، لقاءٌ يُلوّنه تاريخ ونبض قديم، يُقرّان- أو يتمنّيان- في أنّه لم يمت بعد، ليخرج أخيرًا بحقيبته الجرّارة زرقاء اللون، يُرسل من خلال ملامحه شيئًا من جُرعات الخوفَ الدافئ، يُرافقه شيءٌ من القلق الخفيّ مما سوف يأتي! أمّا هي فكانت سعيدة- تُحاكي نفسها- في انتظار أن يصل إليها هذا الريفي الذي يُشبهها في سُمرتها، والآتي من أمّ الدنيا، أرض الكنانة..

-أعانقه أم أقبّله؟! ..أُهرول نحوه بلهفة، أم بتثاقل،! أم أتركَ له الأمر كله؟!

طبيعي أن تكون هي على هاته الحالة، وهي المُغرمة المُتيّمة، لكن هل من الطبيعي أن يكون هو بذلك الهدوء، رغم ما يُعانيه من التيه والحيرة؟! أم هي بداية لقصّة مختلفة تماما، بأرض لم تتعود على قصص من هذا النوع، رغم الكمّ الهائل من القصص المُتاحة رؤيتها بأفلام هوليوود الجنونية..

فضّلت أخيرًا أن تُعانقه، فهي تعلم مدى خجله السابق، فراحت تُعبر له عن مدى فرحتها بوصوله، أمّا هو فاكتفى بابتسامة بسيطة يشُوبها بعض الحزن الرقيق. شعرت أنّه متوتر وغير مرتاح لتسأله..

-أظنك متوترٌ بعض الشيء! أهو من التعب أم الخوف منّي ههه..

-لا، أكيد التعب بسبب السفر لساعات طويلة، لم أتعوّد في حياتي على مثل هذه الرحلات الطويلة والمرهقة جدًا، لكن لا بأس وقد رأيتك أمامي.

كان يحاول أن يتدارك نفسه، بعد أن لاحظ من خلال نظراتها إليه، كأنّه نغّص عليها بعض الشيء من فرحتها بلقائه، لكنّها تبدو واثقة من نفسها كالعادة، حتّى أنّها جعلته يُسابقها داخل ممرّات المطار الطويلة، كطفلين صغيرين يجنحان للحبّ، حتى توقفت فجأة واستقرت، أمام محلٍ يُقدم أفضل وألذّ -التشيز برغر Cheeseburger، لتجمعهما شهوة الحلم، التي كانت بالأمس مجرد رغبة خيالية، ليعود اليوم حقيقة واقعة تنتظر تجسيدا على أرض المتاهات.

راحت تهمس له..

-أحبك..

ابتسم، لكن ليس لها، بل لذاكرته تلك الحاضرة في كل مكان وزمان، لترجع به تلك الكلمة «أحبك» التي أنصتَ لها مرارًا وتكرارًا، سمعها من ياسمين حبّه الأول، ومن زوجته نادية، والآن تسوقها له هاته المرأة على أرض يجهلها تمامًا!

أي أحداث تنتظره! وأيّ قلبٍ يملُكه هذا الرجل، حتى يجعله ينتقل من مكان لآخر، ومن امرأة إلى أخرى! عن ماذا يبحث؟ وماذا

يريد بالضبط؟ يقطع كل تلك المسافات والرحلات الطويلة من صعيد عزبة تونس إلى القاهرة، إلى غرناطة، إلى نيويورك، ليبحث عن شيء يبدو لحد اللحظة بلا عنوانٍ ولا نصٍ واضح! أي قدر محتوم ينتظر قلبه المسكين؟!

الفصل الحادي عشر

هي أوّل ليلة يقضيها بنيويورك، عاصمة كلّ العواصم،بعيدًا عن كل شيء، لا يرافقه في رحلتهِ وهوسهِ إلّا ذاكرته، تلك التي ما تزال تنشطُ لتخزّنُ بداخلها كل همسة، وكل إحساسٍ يراقص خياله الواسع، حتّى وهو مستلق بغرفة الضيوف ينتظر يوم الغد. ليكتب كتابه عليها، يبدو وكأنّ قلبه المتنقل ذاك، لا يُسايره تماما في ما هو مقبلٌ عليه، لكنّ سيّده عنيدٌ وأناني بعض الشيء! فتلك هي مشكلته.

مساء اليوم الموالي،

عقد الإمام قِرانهُما أمام الشهود، وبعض الحاضرين من الأصدقاء المقرّبين منّ هاجر ومن معارفها، أمّا خالد، فكأنه وحيدٌ وسط تلك اللمّة، يحسّ بغربة فظيعة ومرارة بحلقه، لا يفهم جلّ كلامهم السريع ونكتهم غير المفهومة له في كثير من الأحيان، لا يستطيع التركيز فيما يقولون، شعر أنّه غير معني بما يُثرثرون من تفاهات أمريكية لا تضحك! بقي طيلة السهرة مشغول البال يُفكر، كيف له أن يندمج مع مجتمع، بدى له أنّ جلّ أفراده يمتلكون قدرًا كبيرًا من التفاهة تشبه

نكتهم! والأمر يتطلب منه تركيزًا عاليًا كان قد فقده منذ مدّة، فذاكرته لا تعطيه الفرصة في أن يعيش هذا الحاضر بكل ما يحمل له.

كانت هاجر تراقب من بعيد انعزاله وشُـروده عن الجو، رغم انشغالها بضيوفها، فضلت الانتظار حتى انصرف مَدعُووها. أخيرًا صارا وجها لوجه، كان ابنها الصغير ذو العامين قد نام على السرير بغرفتهما، استغلّت تلك الفرصة لتقترب منه على الكنبة، وسط ضوء الشموع، تلك الشموع التي ما أن تضيء حتى ينقبض قلبه، حاول أن يُداري ذكرياتها، التي كثيرًا ما كانت تُعلن بداية قصّة غير عادية على الأبواب..

– ما به حبيبي، منشغل البال في ليلة جميلة كهاته؟!

ابتسم وراح يردّ عليها..

– لا شيء عزيزتي، هو الأرق والتعب، ثم أنّي لم أتعوّد بعد على ثرثرة الأمريكيات هههه..

فجأة رنّ هاتفها..

استغربت كون الرقم من إسبانيا، لترد..

–ألو، من؟

–آسف، أنا بيدرو صديق خالد..

مرّرت الهاتف لخالد ليرد عليه..

-أهلا بيدرو..

-أهلا صديقي، لن أطيل عليك فقط أردت أن أعرف أخبارك..

-بخير، قد تزوجنا اليوم..

-هنيئًا لكما، اهتمّ بنفسك وحاول أن تتواصل معي على الماسنجر..

أعاد لها هاتفها،فتعلقت على اتصال صديقه قائلة..

-صديقك يهتم لأمرك!

-غجري ضائع ههه..

- لنعود لحديثك عنّي، أتراني فعلًا أمريكية؟

-أكيد لا لم أقصد ذلك، بل أنت خوفو وخفرع ومنقرع[1] ههه، وأبو الهول كذلك ههه..

-حسنا ههه، لكن لِما أرى حزنًا في عينيك لم أره من قبل!

صمت ولم يردّ. اقتربت منه لتحضنه ممسكة يده تلفّها على رقبتها، فجأة دخل عليهما ابنها نصف مستيقظ، لينكمش مختبئًا بحضنها، ليكمل نومه بعد أن أدخل يده بصدرها ممسكًا بثديها. ضحكت من فعل ابنها. البريء.

---

(1) أسماء أهرامات الجيزة الثلاث.

– آسفة.. ههه، لا يستطيع المسكين النوّم إلّا وهو في هذه الوضعية! لم أستطع فصله عنّي رغم أنّني حاولت مرّات عدّة، لكنّني فشلت!

كان خالد ينظر للمشهد من زاوية أخرى مبتسمًا، تذكّر ابنته فيروز، تلك اللؤلؤة السمراء الصغيرة التي اشتاق لها ولرائحتها، بدأ قلبه ينقبض، بل تعسّر عليه التنفس حتى كاد يختنق، فقام من مكانه إلى ناحية النافذة المُطلّة على أضواء نيويورك التي لا تنطفئ أبدًا..

–ما بك يا خالد؟ أظنّ أنّ ابني قد أزعجك..

– أبدًا، شيء طبيعي أن يتعلّق بكِ في هذا السن، قد تذكرت ابنتي فقط..

–أتفهّمك حبيبي، أستأذنك فقط في أن أنقله لغرفته لأتفرّغ لك، اذهب لغرفتنا وانتظرني لأتحرش بك طوال الليل ههه..

عادت بسرعة، أغلقت باب الغرفة وراءها، حتما لمنع ابنها من الدخول عليهما بشكل مفاجئ، اقتربت لتجلس بقربه، ثمّ راحت تطلق صراح حنجرة عبد الحليم من على هاتفها..

–أحبك كلمة بقالها أيام وليالي بدوب فيها..

عايزة تروح لك وأنت..

بعيدة علي دي كلمة اللي أنا عايش بيها..

وحأدوب كل الشوق..

قامت من مكانها تدعوه مرافقتها للرقص على تلك الأنغام، لكنّه اعتذر لها، مطأطىء رأسه كأنّ به شجن أو ندم أو كل ذلك معًا..

-أتركنا من أمر الرقص إذًا، وتعال لننام.

لاحظت أن حميميته ينقصها بعض الدفء، أرجعت أمره للتّعب أو ربّما لعدم تعوده عليها بعد، وعلى جو نيويورك عامة، فاكتفت بدل ذلك بحضنه ونامت.

في اليوم الموالي قرّرت دفع ملفّ إقامته لغرض الدراسة-كما وعدته- حتى يتمكّن من البقاء في ظروف قانونية، في انتظار حلٍ آخر، كان الجو العام بنيويورك يبدو مُختلفًا ومتسارعًا بشكل رهيب، لم يكن ذلك الإيقاع يُطمئن طبع خالد الذي تعوّد على الهدوء ومراقبة الطيور من على بحيرة قارون بتلك القرية التي بدأت ذكرياتها تتناثر من ذاكرته شيئًا فشيئًا! لكن الأهمّ من ذلك هو برودة أحاسيسه ورغبته الجنسية أمام إحساس ورغبة هاجر الملتهبة، كانت الأيام تتوالى لكن حالته لا تتحسن، حاولت أن تلطّف له الجو لتخرجه مما هو فيه، فقامت بتسطير يوم كامل للفسحة ولزيارة بعض الأماكن المعروفة في المدينة.

كانت البداية من المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، من أهم الأماكن السياحية للمدينة، يقع على الجانب الغربي من منهاتن،

يعتبر من أكبر المتاحف العالمية، لكن ما إن دخل خالد إحدى قاعات العرض -التي تحتوي على هيكل عظمي لديناصور ضخم جدًا- حتى بدأ يضحك، كانت أوّل مرّة يضحك فيها منذ وصوله هذا البلد..

-ما بك يا خالد وكأنّك سمعت نكتة أو رأيت مشهدًا مضحكًا؟!

-هههه لا شيء، فقط تذكّرت فيلم «ليلة في المعرض»! أظنّك شاهدته، وما وقع لذلك المعتوه ليلًا مع تلك الهياكل العظمية، كان من بينها هذا الهيكل الضخم الذي أمامنا ههه..

-إن كان هذا يغيّر من مزاجك إلى الأحسن، فسوف آتي بك إلى هنا كل يوم، أو نخيّم هنا ههه.

سرُّت كثيرًا حين رأت ابتسامته ترتسم على وجهه، كانت مرعوبة من أن تكون قد فقدته، ليخرجوا من ذلك المكان بعد أن زاروا أغلب القاعات، متوجهين نحو ميدان -التايمز سكوير Times square- ليقفوا وسط ذلك الميدان المكتظّ بالناس، المكان معروف بفنادقه الضخمة ومحلاته التجارية وأشهر المطاعم النيويوركية.

-أتعرف لِما سمي هذا المكان بالتايمز؟

-حقيقة، لا أعرف..

-أترى ذلك المبنى الضخم هناك؟

-نعم أراه هناك..

-كان في ما سبق يضم مكاتب جريدة التايمز الشهيرة..

-حسنًا، لهذا المكان هنا يعجّ بالناس من كل الأجناس لدرجة مذهلة! المهم أين سوف تأخذيننا الآن لتناول وجبة الغذاء، فقد داهمني الجوع وبطني بدأت تقرقر فعلًا؟

تذكّر لحظتها زوجته نادية، حزنت ملامحه، كيف كانت لا تفضل الأكل خارج البيت إلّا نادرًا، تذكّر تسوّقهما بسوق سيدي بشر، ذلك المكان المزدحم بالناس البُسطاء، عكس هؤلاء النيويوركيين ومجموعة السياح الهائمين وسط هذا الزخم.

دخلوا مطعمًا مغربيًا تقليديًا، كانت الرائحة توحي بلذّة الطهي، لكن لكثرة الناس، بقوا واقفين لنصف ساعة حتى فرغت طاولة صغيرة محاذية للمطبخ، كانت البداية مع شاي مغربي تغلبُ عليه رائحة النعناع الفوّاحة، فجأة تحسّن مزاجه، صار أقلّ حزنًا، كان انسجامهما قد بدأ يروق لها، لكنّه تناغمٌ لا يعدو في أن يكون مجرد دردشة حول التاريخ وحال القاهرة، كونها لم تزُرها منذ سنوات طوال، لينهوا تلك السهرة، بحديقة جسر بروكلين المطلّ على النهر، بالجانب الشرقي من الجسر، كانت خُضرة المكان قد أرجعت لخالد هدوءه وطبيعته بعيدًا عن ضجّة التايمز وازدحامَ المطاعم. كان ولا بدّ للمكان من أن يذكّرهُ بشيء ما من الماضي، لكن هاته المرّة لم

تكُن ذكرى امرأة من نساءه، بل طيف بلدته، تذكّر طُفولته الهادئة، وأشجار النخيل التي كان يقضي فيها جلّ نهاره، لكن هنا بنيويورك أو حتّى ببلاد الأندلس لم يكن يسمع غير نفسه تُحدّثه..

-إلى أين أيُّها الصعيديّ المتمرّد؟ فالمكان هنا يزدحم بكل شيء إلّا من ذكرياتك! لن تجد شيئًا هنا يشدُّ اهتمامك، كل شيء يجري بإيقاع لطالما نبذته!

انتبهت لسرحانه بعيدًا عنها، بعد أن كانت قد أنهت إطعام ابنها الصغير..

-إلى أين وصلت يا كابتن خالد ههه؟

ابتسم ليردّ..

-أحاول التقاط أنفاسي، أن أجد نفسي وسط هذه الزحمة..

-وهل وجدتها؟

-هنا الأمر صعب، تعرفين أنّني لا أهوى العواصم الكبيرة المزدحمة، جوّها يخنقني حتى الموت..

-حتى لو كنت فيها أنا؟

صمت هاته المرّة ولم يرد، لتعلق على ذلك..

-سؤالي صعب إلى هذه الدرجة من التجاهل!

كان الوقت قد تأخّر، ليعودوا إلى البيت فيستلقيان على كنبة الصالون بعد حمام دافئ، أخذت ابنها لينام بغرفته، لتعود فتجلس بجانبه تحاول مداعبته، لكنّها لمست انكماشه فور اقترابها منه!

صار يتجنّبُها. غضبت وانسحبت إلى غرفة ابنها لتنام بجنبه.. بعد مرور دقائق قليلة أحسّ بالذنب، فراح يقترب منها ليضع أطراف أصابع يده على خصلات شعرها متأسفًا..

نظرت إليه بلطف..

-لا عليك، غدا نتحدث بعد دوامي، ليلة سعيدة.

أكيد كبريائها قد غلب عليها، فقد شعرت عدم رغبه بها، وأكيد أصعب شيء يقتل المرأة هو تجاهل عواطفها ورغباتها..

توالت الأيام بعد ذلك بين غيابها طوال اليوم عن البيت بسبب عملها بالجامعة، وتكفّله هو بإيصال وإحضار ابنها من الحضانة كل مساء، أمّا باقي النهار فكان يقضيه بالأماكن التي لم يزرها من قبل، لكن ما إن يحضر المساء، حين يلتقيان، حتى يصاب باكتئاب مزمن، صارت نقاشاتُهُما لا تخلو من العصبية المُفرطة، حاولت أن تُخرجه من عزلته، فاقترحت عليه ذات مساء-بعد أن استدعت من يتكفل برعاية ابنها في أثناء غيابهما- أن تصاحبه إلى ناد ليلي يسمى-إل موروكو- كنوع من التغيير للخروج من الروتين، رفقة بعض أصدقائها، فلم يمانع.

انطلقا ليصلا إلى المكان، ازدحام هائل يرافقه أصوات موسيقى مرتفعة، وأجواء حماسية في صخب يصحبه جنون الرقص، وتلك الأضواء الملوّنة النابعة من تصاميم تجهيزات ضخمة توحي بالسحر والغموض تُراقص جدران المكان، كما تحرّك وتهزّ أجسام الراقصين تحت أنغام «آر أند بي» و«الهاوس». كان المكان أشبه بمركبة فضائية مضيئة من العالم الآخر.

التحقا أخيرًا بالطاولة المحجوزة، كانت شلّة أصدقائها قد وصلت المكان قبلهما، أكيد سبق وأن رآهم من قبل أثناء حفل الزواج، أخذ مكانًا وراح يُراقب الوجوه السابحة في ملكوت الديسكو، قرّر أن يتناول بعض المشروبات الكحولية رغبة في أن يلهو هو كذلك في ذلك المهرجان العابر للقارات، عارضت زوجته هاجر الفكرة، لكنّه أصرّ، بل قرّر نكاية فيها أن يرقص-بعد أن بدأ مفعول الفودكا والخليط السحري للمكان يظهر عليه- ليأخذ بيدها ويدخل حلبة الرقص الصاخب، يتمايل ويتراقص مبتهجًا، يصرخ بشدة..

-هيا يا هاجر لنرقص حتى الصباح لا حزن بعد اليوم..

أكيد لم تسمع ما قاله لها وسط تلك الفسيفساء الغوغائية المرتفعة جدًا، لكن إحساسها أنّه غير طبيعي وجّب عليها أن تراقب تصرفاته وإلّا قد يُقدم على فعل أي شيء متهور وهو في تلك الحالة

من المتقدّمة من السّكْرِ. لكن بعد رقص وصراخ وضحك هستيري متواصل لمدّة نصف ساعة، قرّرت أن تعود به إلى طاولة الشلّة، الذين كانوا هم كذلك في حالة سكر لا تقلّ ثمالة من حالة خالد. فجأة ودون أي سبب ظاهر داهمه شعور بأنّه لا يرغب في أن يكون برفقة أحد في تلك اللحظة! لتتغير ملامح وجهه من البهجة المفرطة إلى كآبة شديدة، قرّرت حينها أن تغادر المكان وترجع به إلى البيت، لكن حالته كانت تستدعي مساعدة أحدهم، ليقوم الشخص الوحيد من الشلّة الذي بقي نصف سكران ليساعدها في اصطحابه ثم جرّه إلى غاية الأبواب الخلفية للسيارة، أين بدأ يُرجّع ما كان ببطنه، ليوضع في الأخير كجثة بالخلف، لتنطلق عائدة، نادمة على جلبه إلى هذا المكان الذي يبدو لا يلائمه أبدًا، وضعته على السرير بمساعدة الحاضنة، وراحت تاركة جسمها يرتطم بقاعدة الكنبة لتنام متعبة، ومنهارة ممّا رأته من حالته التي أصبحت تسوء منذ يوم وصوله.

أصبح مدمنًا على السهر بذلك النادي الليلي- بعد أن صار يتردّد علية كل مرّة- لدرجة أنّها كلّما حاولت منعته من الذهاب إلى هناك، يزداد تعصّبه عليها فتضطرّ لمرافقته منعا لوقوع أي اصطدام مع الشرطة، إلى أن جاء يوم قرّرت- بعد أن كانا قد عادا من إحدى تلك السهرات- فتح النقاش حول تصرفاته التي أصبحت غير طبيعية

وغير مسؤولة، احتدم وسخن النّقاش بينهما ليلتها، فجأة بدأ يُكسّر كل شيء يجده أمامه، فاضطرت أن تبلغ الشرطة لأنّها لم تستطع السيطرة عليه وسط تضمّر جيرانها من أصواتهما المرتفعة، تمّ نقله إلى قسم الشّرطة ليوضع في غرفة مخصّصة للنزلاء المخمورين لحين خروجه من تلك الحالة، لتعود به في الصباح الموالي بعد أن فاق من سكره، عائدين إلى البيت.

أصبحت الأمور تتعقد مع الوقت حتى قرّرت أن تُدخله مصحّة الأمراض النفسية والعصبية ليتمّ التكفّل به قبل أن يقبل على إيذاء نفسه أو إيذائها وولدها. وبعد مرور أسبوع من تواجده بتلك المصحّة، أخذت موعدًا مع طبيبه النفسي المعالج، لتعرف آخر أخباره وهل بإمكانها إخراجه من المصحّة أم لا..

-تفضلي سيدة هاجر، الحقيقة بعد أن قرأت ملفّ زوجك أو المعاشر لك، وظروف حياته السابقة كما ذكرتها في ملفّه الطبّي، وبعد إجراء التحاليل والفحوصات اللازمة تبيّن له أنّ السيد خالد يعاني من مرض «الباي بولر Bi polar» أو ما يسمى بمرض «الهوس الاكتئابي»،يتناوب فيه مزاج المريض بين مزاج اكتئابي وآخر انشراحي، لا تعتبر الصورة مثالية عند جميع المصابين طبعًا، وما يهمّنا هنا هو حالة السيد خالد، الذي يغلب على مزاجه الاكتئاب، لم

يظهر عليه مزاج الانشراح لحد الآن، لكن من خلال مراقبتنا لحالات مماثلة رأينا أنّ بعضهم تأتيهم نوبات الاكتئاب متكرّرة لفترة طويلة ثم بعد سنوات قد تظهر لديهم نوبة انشراح واحدة والعكس صحيح..

كانت تتابع كلامه، باهتمام كبير كأنّها تكتشف خالد لأول مرّة .. ليضيف..

-الحقيقة، ربّما هذا المرض تلعب الوراثة فيه دورًا نسبيًا، لا أقول الإرث المباشر لكنّه ربّما استعداد لهذا المرض، مثلما يحدث في مرض السكر أو الضغط وخلافه. نحن هنا بأمريكا نركّز على الأدوية الضابطة للمزاج، بمعنى التي تمنع تقلّبه، مثل استعمال عقار(ليثيمLithium والديباكين كرونوDepakine-Chrono) وعقارات أخرى، والتي هي في الأصل أدوية مضادة لمرض الصرع وتستعمل في علاجه أيضًا، واتضح من خلال التجارب أنّها أدوية فعالة جدًا وممتازة جدًا في علاج اضطرابات «الباي بولر»، نحن نختلف عن المدرسة الأوروبية التي تزاوج بين الأدوية المضادة للصرع وجرعات صغيرة من الأدوية المضادة لمرض الذهان.

ما أود توضيحه لحضرتك باختصار، هو أنّ المريض في الأخير - خاصة في حالة السيد خالد- لا يتحسن من خلال الأدوية فقط- أكيد تعرفين هذا، بل في كثير من الأحيان يؤدي إلى تسارع الانتكاسات بصفة

عامة، وأن الإكثار من الأدوية ليس جيدًا لأي مريض مهما كانت حالته، حيث أنهّا تتفاعل مع بعضها البعض سلبًا، كما أنّها مكلّفة جدًا لخزينة الدولة، وفي ذات الوقت قد تؤدي إلى الخمول والتكاسل وزيادة النوم، كما يحدث للسيد خالد حاليًا -بعد أسبوع من تناوله للأدوية- بل يحتاج إلى مساندة معنوية وأسرية من أقرب الناس إليه، وأن يمارس بعض الرياضة ويندمج مع الناس والحياة، أي أن يدير وقته بصفة صحيحة.

طلبت رؤيته..

أُدخل عليها غرفة زيارة المرضى، ليُجلس على كرسي طويل من الخشب، أمام طاولة خشبية ضخمة، رفع إليها وجهه بعينان شاحبتان غائرتان، توحي بالانغلاق، انغلاق على النفس وكثير من الألم الذي يخفيه داخله..

لتبادره بالكلام..

-آسفة حبيبي، أعرف أنّ وجودك هنا أمر لا تحبّذه مطلقًا، ولا حتّى أنا، لكن هي فترة قصيرة ترتاح فيها من تعبك النفسي لتعود أكثر نشاطًا وحيوية..

بقي صامتًا لا يتكلم، حاولت مرّات متتالية أن تحرك فيه شيء من خالد الذي أحبته، لكنّه بقي مطأطىء رأسه، حتى اضطرت أن تغادر المكان وهي مشفقة عليه تكاد عَبراتها تخونها أمامه.

بعد أسبوعين من ذلك تقرّر خروجه من المصحّة، كانت عودته إلى البيت في جو من الصمت الرهيب، جعلها تشعر ناحيته بذنب كبير، بل خافت حتى من الاقتراب منه، أو مجرّد لمس يده كما كانت تفعل من قبل، لم تكن تدري ماذا تفعل معه؟ ولا كيف ستتعامل مع حالته منذ اليوم؟

دخلت إلى الحمام لتنفجر فجأة بالبكاء الهستيري العنيف، تحاول كلما ارتفع صوت بكاءها أن تخنقه فتغلق فمها بيدها لكي لا يسمع نحيبها، فجأة سمعت طرقًا على باب الحمام. ارتعدت مفاصلها وارتبكت من الخوف، لم يعد مخها يجمّع أفكاره، كونه تباطأ أو تجمّد تمامًا!

يناديها..

-افتحي الباب يا هاجر، أريد التحدّث إليكِ من فضلك ..

وصل خوفها -من مجرّد تخيّل ردّة فعل سيئة منه- عتبة لم تجد نفسها إلّا وهي تطلب رقم الشرطة من على هاتفها..

-ألو هنا شرطة نيويورك في خدمتكم..

توقفت للحظات في صمت وتردد..ليكرّر ذلك الشرطي مستقبل المكالمات سؤاله..

-ألو من المتحدّث من فضلك؟!

أعاد خالد الدقّ على الباب، لكن هذه المرّة بشيء من الشدّة، أرعبها ذلك أكثر لتجيب وهي تبكي..

-النجدة زوجي يريد التهجم علي..

-مهلًا سيدتي، حاولي أن تهدئي أولًا، ثم أملي علينا عنوانك، لكي نستطيع مساعدتك..

ما إن أنهت المكالمة بدقائق، إلّا وكانت عناصر من الشرطة على الباب، يطرقونه بشدّة وهم يصرخون ..

-هنا الشرطة افتحوا الباب وإلا كسرناه..

اعتدل خالد وقام من مكانه يجري لفتح الباب- بعد أن كان قد عاد ليجلس على الكنبة في انتظار أن تخرج هاجر- فإذا بهم يهجموا عليه، يطرحونه أرضًا واضعين الأغلال في يده دون أيّة مقاومة منه لكنّه بقي يصرخ بأعلى صوته، يسألهم ماذا فعل؟ لكنهم امتنعوا عن الإجابة..

كان المشهد غير مفهوم بالنسبة لخالد، وكأنه في كابوس لا يقدر أن يخرج منه، ليذهب اثنين منهم يبحثون عن هاجر، يُساورهم الشكّ في أنّه لربّما أصابها مكروهًا، لكنهّم وجدوها أخير ما تزال

تقبع جالسة بالحمام، ترتجف من الصّدمة- اضطرّوا إلى كسر الباب بعد عدم استجابتها لهم- أخرجوها من تلك الزاوية، ثم طلبوا لها الإسعاف فورًا نظرًا لحالتها الهستيرية. لتُجلس على الكنبة مغطّاة ببطانية في انتظار أن تهدأ، كان خالد قد اقتيد إلى مركز الشرطة، بعد لحظات قليلة تذكرته، سألتهم عنه وهي ترتجف..

-أين خالد؟

ليجيبها أحدهم..

-إذا كنت تقصدين الرجل الذي كان هنا والذي أراد أن يهجم عليك! اطمئنّي قد سيطرنا عليه واقتيد إلى قسم الشرطة، أنت في آمان الآن، لا تقلقي سيدتي..

لتضيف..

-لم يفعل لي شيئًا، كنت خائفة من ردّة فعله فقط..

وصل أخير الطبيب المسعف..

-لا عليك سيدتي، اهدئي الآن من فضلك، سنرى الأمر لاحقًا..

زادت عصبيتُها ليضطر إلى حقنها بمهدئ ونقلها إلى أقرب مستشفى ليتم متابعة حالتها الصحية عن قرب.

كانت تلك أوّل مرّة يدخل فيها خالد زنزانة التوقيف بمركز الشرطة، ليمضي ليلته غير مدركًا لما حدث له، بدا التحقيق معه

عنيف نوعًا ما، خاصّة بعدما علموا أنّه لا يحمل الجنسية الأمريكية، وجهّت له تهمة محاولة التعدي على سيدة أمريكية، بعد أن واجهوه بالتسجيل الهاتفي الذي كان بحوزتهم، أنكر التّهمة عن نفسه وطلب محام يدافع عنه، ليرجع بعدها إلى غرفة التوقيف وحيدًا مطأطىء الرأس في انتظار نتيجة التحقيق..

أخذ مكانًا بزاوية تلك الغرقة وانكمش على نفسه يستأنس بها..

-أي قدر جاء بي إلى هنا وأي لعنة جرّتني إلى كل هذا؟!

ما أن حلّ الصباح حتى وجدت هاجر نفسها على سرير بإحدى المستشفيات، التقطت علبة الجرس التي كانت موضوعة على طاولة قريبة منها لترنّ على الممرضات، تسأل عن سبب وجودها هنا بتلك المستشفى..

-سيدتي أنتِ هنا منذ البارحة، قد أتت بك مصلحة الاستعجالات، إذا أردت معرفة المزيد سوف أعلم فورًا، الطبيب المكلّف بحالتك ليأتي فيجيب على كل أسئلتك..

لم تستطع بلع ريقها، مدّت يدها لتتناول كأسًا من الماء، ثم توجهت إليها ثانية تضيف بشيء من العصبية..

-أريد رؤيته في الحال، من فضلك، مفهوم!

الفصل الثاني عشر

-سيدة هاجر، أنا آسف لما وقع لك، لكن أظنّك تعلمين الإجراءات، لا يمكن أن أكتب لك على الخروج حتى أكتب تقريري الطبي أوّلا، ثمّ يأتي دور الشرطة للتحقيق معك في ظروف الحادثة..

هدأت ثورتها لتبدأ في سرد ما وقع، لينتقل الطبيب بعدها لفحصها فحصًا شاملًا، ثمّ خرج عائدًا لمكتبه ينهي كتابة التقرير، اتّصل بعدها بالشرطة ليعلمهم استعدادها للبدء في التحقيق معها.

بعد ساعتين..

كان قد أغلق الملف وتمّ الإفراج عن خالد، لترافقه إلى شقتّها بسيارتها، لا تتوقف عن الاعتذار له طوال الطريق، بقي صامتًا لا يردّ ولا يتفاعل معها، حتى وصلا الشقة، حاولت أن تشرح سوء التفاهم الذي حصل، لكنّه رفض التحدّث إليها، مفضّلًا النوم مبكرًا من شدّة تعبه.

استيقظت متأخّرة، بها ثقل ودوار بالرأس من كثرة النوم، نظرت لساعة هاتفها الموضوع على طاولة سريرها، كانت تشير إلى الثالثة بعد الظهر..

انتفضت من مكانها كالمجنونة، تبحث عن ابنها الذي لم يكن بجانبها على السرير كعادته، تملّكها الخوف فراحت تبحث عنه بغرفته، لم تجده، بدأت تنادي عليه وتصرخ..

-أحمد، أحمد، أين أنت؟

فجأة وهي تمرّ من أمام الصالون، لمحت ورقة مطوية متروكة على الطاولة المنخفضة بجانب الكنبة، التقطتها بسرعة بيد ترتجف، فتحتها لتقرأها..

«قد عدت، أنت طالق».... خالد.

انهارت تمامًا، لم تستطع رجليها حملها لتهبط بركبتيها جالسة على أرضية سجادة الصالون، أجهشت بالبكاء، فجأة تذكّرت ابنها، عادت فقامت بالكاد تحملها رجليها،تبحث عنه، لكنّها لم تجده، ارتعدت مفاصلها، تجمّدت أطرافها للحظات، تعرّقت بشدّة حتّى جفّ حلقها، تقدمت من الهاتف الأرضي الذي كان بجانبها، لتشكّل رقم خالد لربّما يردّ عليها، لكنّه كان خارج مجال التغطية، لتزداد شكوكها في اختطافه لابنها، أبلغت الشرطة تخبرهم بشكوكها وبما حدث.

حضرت دوريـة الشرطة في الحال نظرًا لحالتها الهستيرية الشديدة..

-اهدئي سيدتي، احكي لنا ماذا وقع بالضبط ..

حكت لهم القصّة من البداية، ثم سلّمتهم تلك الورقة، بعد أن ترجمت لهم ما كان مكتوبًا بالعربية..

-هل حاولت أن تتّصلي بهاتفه؟

-حاولت، لكنّه خارج مجال التغطية..

-هل هو والده؟

-لا، أبدًا..

-هل والد طفلك موجود بأمريكا؟

-نعم..

-هل اتصلت به لربما يعرف شيئًا؟!

-أكيد، وهو الآن في الطريق إلى هنا..

رنّ جرس الباب في تلك اللحظة، دخل يصرخ بعصبية شديدة، مُهددًا إيّاها، يحمّلها المسؤولية الكاملة عن اختطاف ابنهما..

-من تكون حضرتك؟

-أنا والد الطفل المُختطف..

-ومن قال لك أنّه مختطف؟

-طليقتي التي أمامكم..

-إذًا اهدأ من فضلك سيدي، نحن بصدد التحقيق في الحادثة..

ليعود فيسألها مرّة أخرى..

-لي سؤال أخير سيدة هاجر، هل من عادتك التأخّر في الاستيقاظ؟

-أبدًا هذه أوّل مرّة..

-إذًا نطلب منك أن تقوم ببعض التحاليل الطبية، لربّما قد أعطي لك منوّمًا دون أن تشعري، لنتأكد من أركان الجريمة.

كان خالد في تلك الأثناء قد وصل إلى غرناطة، أوّل شيء فكّر فيه بعد وصوله مباشرة، هو الاتصال بياسمين لرؤية ابنته. فتحت له الباب لتفاجئ برؤيته في تلك الحالة النفسية والجسدية التعيسة بعد ذلك الغياب الطويل، أشفقت على حاله، فسمحت له في أن يرى ابنته بشرط أن يبقى معها أمام البيت لحين مغادرته. كانت حرقته ومشهد عناقه للصغيرة توحي بمدى اشتياقه لها، حتّى أنه كان ينوح ويبكي بصوت خافت، تتهاطل عبراته لدرجة أن ياسمين، التّي كانت تراقبه من النافذة بكت من ذلك المشهد.

لم يستطع البقاء لأكثر من دقائق، عاد لينادي عليها، ليتوجه إليها قائلًا..

-سأعود لمصر، اهتمي بحبيبتي فيروز..

كان صوته مخنوقًا وحزينًا..

سألته تحاول فهم ما جرى له..

-ما بك يا خالد؟! ماذا أصابك؟!

لم يجبها ثمّ رحل في صمت..

بعد يومين..

كان قد حجز تذكرة سفر العودة، حاملًا حقيبته متوجّهًا إلى المطار، كانت هاجر قد وصلت هي كذلك إلى غرناطة في نفس ذلك اليوم، تبحث عنه وعن ابنها -لم تستطع انتظار تحرّك شرطة نيويورك وذلك الروتين القانوني الطويل- بل صمّمت أن تلحقه بغرناطة، لم تكفّ -بمجرد وصولها- عن مهاتفته مرّات عدّة، كالمجنونة حتى تمّ الردّ عليها أخيرا..

-ألو، ألو خالد؟ أين أنت أيّها المجنون؟

-لا، سيدتي ليس السيد خالد، من المتصل من فضلك؟

لتردّ عليه بعصبية..

-ومن تكون أنت؟

-نحن الشرطة! من أنتِ سيدتي؟

استغربت الأمر ظنّت للوهلة الأولى، لربّما يكون محجوزًا لديهم، ولربّما وجدوا ابنها معه، لكنّها تمهّلت لتجيبهم..

-أنا صديقته، ما الأمر من فضلك؟

-آسف خبر سيء جدًا..

سقطت على ركبتيها ظنًا منّها أنّهم سوف يعلنوا لها خبر قتل ابنها..

-ألو سيدتي، هل ما زلتِ معي؟

ردّت بصوت مرتجف خافت..

-نعم أسمعك سيدي ..

-قد أصيب السيد خالد بحادث مرور خطير، على مستوى الرأس، وقد نقل إلى المستشفى..

لتعود فتستفسر مرّة ثانية..

-وهل كان وحده؟

-لا، لم يكن برفقته غير سائق سيارة الأجرة الذي مات في عين المكان متأثّرًا بجروحه..

تنهدت الصعداء. لتشتم في سرّها..

-عليك اللعنة يا خالد، أتعبتني وأنت حيّ وتفقدني أعصابي وأنت تموت!

اتجهت مباشرة إلى قسم الإنعاش، لتجده فعلًا في حالة غيبوبة كاملة، لم تجد ماذا تفعل إلّا أن تتصل بصديقه بيدرو، الذي كانت

تحتفظ برقمه على هاتفها، منذ أن اتصل أول مرّة يسأل عن خالد، أخبرته بالحادث الخطير، ليهرع مسرعًا كالمجنون لا يصدق ما حدث لصديقه، انفرد بهم طبيب القسم، يوضّح لهم خطورة الموقف، يسألهم عن أهله..

-الحقيقة أنّ الحالة حرجة جدًا، يجب أن يُبلّغ أهله وبأسرع وقت ممكن..

ليرد عليه بيدرو..

- للأسف أهله كلهم بمصر..

-اتّصل بسفارة بلده، فأكيد سيجدون حلًا..

لم يضيّع الوقت ليتصل مباشرة بالسفارة المصرية، شرح لهم خطورة الحادث، وعدوه بفعل المستحيل قبل أي يحصل أي طارئ سيء لقدر الله، فكّر في ياسمين فاتصل يخبرها بالحادث، لم تتمالك نفسها، صرخت، ارتعدت مفاصلها، اتجهت مهرولة إلى المستشفى، لكن لم يكن بمقدورها فعل أي شيء، غير رؤيته وهو على تلك الحالة من السبات.

بعد ثلاثة أيام..

وصلت نادية، لتجد زوجها في تلك الحالة الحرجة، كانت أم خالد -بقرية تونس- قد أُدخلت مستشفى الفيّوم العام بمجرد أن أخبرتها السفارة بالحادث، طلبت نادية أن تبقى بجانب زوجها

لكنّهم رفضوا، كادت تُجّن، كانت تلك أوّل مرة تجتمع بياسمين وابنتها الصغيرة، لقاء لم يكتب له أن يقع إلّا في تلك الظروف العصيبة، أصرّت ياسمين على أن تستضيفها ببيتها، وفي الصباح يعودان إلى المستشفى، فقبلت نادية لكي لا تجد نفسها وحيدة بين جدران الفندق، بعد أن فقدت الأمل في دخولها على زوجها.

كانت هاجر قد عادت إلى نيويورك في اليوم الثاني من تواجدها بغرناطة، لتقوم ياسمين بواجب الضيافة مع ضيفتها، التي حملت الصغيرة فيروز، لعلها تشمّ فيها رائحة والدها، أجهشت فجأة بالبكاء، لم تستطع أن تخفي دموعها التي حبستها أمام الناس بالمستشفى، بعد أن هدأت راحت ياسمين تسرد لها آخر لحظات مجيئه لرؤية ابنته قبل يوم البارحة..

-لم يكن في حالة جيدة، كان الحزن والتعب قد نالا منه، حتى أنّني خفت منه، فمنعته أن يستضيف ابنته..

غلبت عليها كذلك هستيرية بكاء عارمة، لتواصل سردها بعد أن هدأت قليلًا..

-كان جد مشتاق لها، كنت أراقبه حينها من نافذتي دون أن يشعر بي، هالني حاله، كان قد غاب لأشهر لم يتصل فيها بابنته ولا مرّة، لذا منعته من أن يستضيفها عنده، ويا ليتني لم أفعل.

في الغد طلب طاقم الأطباء مقابلة نادية لأمر مهم...

-نتفهّم جيدًا، سيدة نادية حزنك على زوجك، نؤكّد لكِ أننا فعلنا وسنفعل ما بوسعنا لإنقاذ حياته، لكنّنا لا نخفي عليك حقيقة، أن فرصة نجاته ضئيلة جدًا من الناحية الطبية، نحن أطباء، نُقيّم حالة المريض إكلينيكيًا، أمّا من ناحية الرّب، فأكيد كبشر نطلب له الشفاء والرحمة، طلبنا لقاء حضرتك اليوم، لأمر كذلك الرّب يحبّه ويعظّمه كثيرًا، أكيد تعلمين أنّ هناك الكثير من الناس يعانون من قلوبهم الضعيفة، تستلزم حالتهم زراعة قلب آخر، من متبرع ما..

هنا أدركت أن خالد على وشك الرحيل، كانت دموعها تنهمر من عينيها لا تنقطع، لم تجد ما تردّ به على أولئك الأطباء المحيطين بها، إلّا ذلك الصمت البشع ليتابع الطبيب كلامه..

-هو مجرد عرض يتطلب إذنًا منك بحكم أنّك زوجته، ومن الناحية القانونية حضرتك الوحيدة المخوّل لها فعل ذلك، تأكّدي أنّنا نتفهّم الوضعية جيدًا، لكنّنا هنا في هذه الحالة نحاول إنقاذ إنسان آخر، كما نفعل مع زوجك لحد الآن تمامًا، وقبولك لهذا الأمر شيء عظيم نحترمه جدًا ونقدّسه، وحتّى إن رفضتِ حضرتك العرض، سوف نتفهّم موقفك لحساسيته طبعًا.

كان خروجها من ذلك اللقاء قد زاد من احتمال فراقها لزوجها، لكنّها قرّرت أن تنسى ما قالوه لها، وأن تدعو الله له بالشفاء العاجل..

كانت كل واحدة من المرأتان -ياسمين ونادية- لها قصتها الخاصة مع خالد، يحملنّ له الحبّ كما يحملنّ ذكريات صنعت ماضيه، لم يجدن ما يقال في مثل هاته الظروف، إلّا الصمت في انتظار رحمة الله. كان المساء قد حلّ، وعليهن مغادرة المستشفى في انتظار غد جديد، لم يكن الأمر سهلًا على نادية أن تعيش ذلك الكابوس، أي حقيقة يجب أن تصدّقها! إصرار الأطباء على أن وفاة زوجها هي مسألة وقت فقط، أم تنتظر قضاء الله وقدره! أكيد الأمر هنا جد صعب ومرهق، بل بشع للغاية، لكن لم يكن لها خيار غير ذلك الانتظار المُملّ والقاتل.

بعد دردشة خفيفة غلبهنّ النعاس فاستسلمن للنوم، كانت الكوابيس تلاحق نادية حتى في منامها، حيث مع الفجر حضر إليها خيال خالد، مُبتسمًا يُداعب خصلات شعرها ليقول لها..

-سأسافر بعيدًا عنك، أبقي على قلبي بجانبك لا تغادريه.

استيقظت فزعة من ذلك الحلم، سكنتها نوبة بكاء وصراخ، حتى أنّها أيقظت الصغيرة من نومها في ذلك الصباح الباكر، لتهرع إليها ياسمين مسرعة ..

-ما بك يا نادية خيرًا إن شاء الله؟

لم تكن قد حكت لها ما عرض عليها الأطباء، لكنّ الحلم كان يبدو لها كرسالة من خالد لكنّها لغز مبهم، لتقرر فورا الذهاب

إلى المستشفى، لكن ياسمين منعتها بحجّة أنه لا يمكنهم دخول المستشفى في هذا الوقت الباكر من الصباح، فقوانين المستشفى تمنع ذلك خاصة قسم الإنعاش، فلم يكن أمامهما إلّا الانتظار في قلق حتى يحين وقت الزيارة.

كانوا أوّل من دخلوا تلك المستشفى في ذلك الصباح، لكن القدر هذه المرّة كان قد سبقهنّ إلى خالد، قدرٌ قاسٍ جدًا أو ربّما هو رحيمٍ جدًا!! توفي في ذلك الصباح بدقائق قليلة قبل مجيئهن، غادر أخيرًا دون أن يودّع أحدًا، إلّا وداعه الأخير لزوجته حين زارها في المنام فجر ذلك الصباح الحزين! كان الصّراخ قد ملأ أجواء المستشفى، صراخ حارٌ جدًا، لم يتعوّد عليه الغرناطيين الحاضرين، ليجتمعوا حولهن يُحاولون تهدئتهنّ.

رحل هذه المرّة بعيدًا عن من يحب، ذهاب بلا عودة، انتهت أخيرًا مسيرة معاناته، لتفقد نادية وعيها، وتدخل ياسمين في حالة هستيرية مزرية، حتّى ابنته الصغيرة فيروز بكت يومها بكاء طفوليًا حارًا، وكأنّها فهمت أن بكاء أمّها وصراخها، له علاقة بغياب والدها الذي تفتقده كثيرًا، الوحيد الذي تحمّل الموقف هو بيدرو، فعلًا لا توجد قسوة أكثر من أن تسمع بخبر وفاة عزيز عليك، فالموت هي الحقيقة المرّة المطلقة الوحيدة في هذه الحياة.

بعد أن تأكّد لبيدرو موت صديقه، تقدّم من إدارة المستشفى يطلب مستلزمات المرحوم، ليفتش عن ورقة التأمين، التي تؤمّن نقل جثّة المتوفي إلى بلده، كان يعلم أن نادية وهي في تلك الحالة لن تحسن التصرّف، خاصّة أنّها لا تعرف طبيعة الأمور هنا بإسبانيا، لكن الإدارة لم تقبل أن تسلّمه حاجيات الميت حتى تحضر زوجته لتمضي بالاستلام، كان كلّ ما ترك حقيبة صغيرة وهاتف نقال. قام بعدها الاتصال بالسفارة المصرية، لبدأ وإتمام الإجراءات الإدارية لنقل الجثمان، كان الوقت يمرّ ببطء شديد وكأنّ روح خالد تتمسك بذلك المكان، وبتلك المدينة التي تحمّلت كثيرًا تمرّده وانتكاساته المتتالية.

كانت لحظة دخولهن لإلقاء نظرة عليه قاسية جدًا لا يحتملها أقوى البشر، لم يعد اليوم يشتكي لهنّ كما كان من قبل، أو يطالبهنّ بشيء بعد اليوم، ولم يكن بوسعهنّ هنّ كذلك فعل شيء له غير البكاء والنواح على فراقه، لتتقدم نادية نحو جثته رغم الخوف الهائل الذي انتابها وهي ترى أمامها لأوّل مرّة جثة ميت، فما بالك بجثة الزوج! لتخاطبه وقد رحل..

-لماذا يا حبيبي ذهبت بهذه السرعة دون أن تودّعني؟ أعلم أنّك لن تكلمني! ولن تردّ! لكنّي أتمنّى أن تعود ولو للحظة لأقول لك كم أحبك حتّى الموت.

أكيد كانت ياسمين الواقفة بجنبها، تودّ قول نفس تلك العبارة، لتبوح له بدورها عمّا بداخلها، لكن حساسية الموقف والظرف لم يكن يسمحان لها بالبوح، إنّ الشعور بالذنب وتأنيب الضمير، ربّما يكون قويًا في مثل هذه الحالات، كانت كل واحدة تلوم نفسها، ربّما لتقصيرهنّ اتجاهه. قد يكون التقصير في الحبّ، أو تفهّم حالته النفسية، أمّا وقد رحل الآن بلا عودة، فالأمر دون فائدة ترجى، أكيد كان يسمعهنّ، لكنّ الأكيد كذلك أنّه لم يعد منذ الآن يهتم إلّا بنفسه.

فجأة قرّرت نادية مقابلة الطبيب لأمرٍ مهم ومستعجل..

-تفضلي سيدتي، تقبّلي تعازينا الخالصة، نحن تحت أمرك في أي شيء تطلبينه..

كانت عيناها غائرتان، قد نال منهما التعب والحزن والألم، لكنّها كانت مُصمّمة على شيء ما، لتعلن لهم دون مقدمات..

-قررت أن أتبرع بقلب زوجي!

كانت دهشة الطبيب كبيرة جدًا، لم يكن يتوقع أو حتّى يأمل في أن توافق، كان عرضه السابق روتينيٌ يتم بصفة آلية، يعلم جيدًا أن أمرًا مثل هذا صعب بالنسبة إلى أهل المتوفّي، الذين هم من بلد له خصوصيته وتقاليده وعاداته..

-أقدر لك سيدتي موقفك النبيل والشجاع هذا، لكن هل لي أن أعرف ما الدافع الذي أدّى إلى قبولك العرض فجأة؟

-أرجوك اعفني يا دكتور، هي أسباب شخصية..

-لا بأس، وبالطبع تريدين معرفة الشخص الذي سوف يستفيد من زراعة قلب زوجك؟

-لا، لا أريد معرفة أي شيء، فقط عجّلوا بعملية الزرع، ليتمّ لنا نقل جثته ودفنه، فكما تعلم حضرتك، ينتظرنا سفر طويل وإجراءات روتينية طويلة. وأن يبقى الأمر سرّيًا لحين استلام الجثة.

الفصل الثالث عشر

بدأت إجراءات التحضير للعملية فورًا، من أمور إدارية وطبية، كان المستفيد أو المتبرع له، السيد ألفونسو -تقريبا في سن خالد- في سعادة تامّة وهو يتلقّى خبر استفادته من قلب جديد، مكان قلبه الذي يعاني من مرض الشريان التاجي، الذي سبّب له تراكم المواد الدهنية في الشرايين التي تغذي قلبه، لم يكن بعيدًا عن ذبحة صدرية تنهي حياته، أُخضع فورًا لتقييم اجتماعي ونفسي للتأكّد من جاهزيته، للمرور بمراحل عملية زراعة القلب، ولحسن حظه، كان هناك توافق وتطابق جيد بين حالته وقلب المتوفّي.

غادرت نادية رفقة ياسمين، تلك المستشفى في انتظار انتهاء الإجراءات وتسلّم الجثة، إنّها من أصعب الأوقات التي مرّت عليهن، صحيح أن الفاجعة تولدُ كبيرة وتصغر مع الوقت، لكن حملها بذلك الثقل البشع شيء ليس بالهيّن أبدًا خاصة على المرأة، فأي شجاعة تملكها تلك النسوة لحمل مثل هذا الماضي الذي أكيد أصبح ماضيهنّ الثقيل منذ اليوم، والأكيد كذلك أنّه ماض سيكنه خالد وإلى الأبد!

بعد مرور ستّ ساعات من الجراحة المفتوحة، انتهت العملية بنجاح، ليتمّ نقل ألفونسو إلى وحدة العناية المركزة لاستعادة صحته وعافيته، بقي متّصلًا بجهاز التنفس الاصطناعي لحين زوال آثار التخدير العام، تم إعلام نادية بنهاية العملية وأنّه بإمكانها استلام جثّة زوجها، كان الخبر في حدّ ذات موت ثان ينال منها، تطلّب الأمر قوّة وجهدًا جبّارين لتحمله، كان عليها أن تواجه عائلة زوجها، الذين لا يعلمون لحدّ اللّحظة بقصّة التبرع..

كان السفر لنقل جثة المرحوم، ثقيلة جدًا ومتعبة بدنيًا ونفسيًا، لولا وجود بيدرو بينهم، الذي خفّف الحمل كثيرًا على نادية، التي كانت قد فقدت الكثير من طاقتها، أمّا ياسمين فكان الأمر مختلف بعض الشيء، ساد حالتها صمت رهيب وهي تراقب ابتسامة ابنتها فيروز، تكلّمها كما كان يكلمها خالد تمامًا..

- يا بنيّتي إنّ الذي كان يعانقك باشتياق كل مرّة قد رحل! حبّك وحبّي الأوّل رحل ولن يعود! فما عسانا أن نفعل أنا وأنت! قد عدنا من بعده يتيمتان! نعم كان عنيدًا، صعيديًا متمرّدًا، لكنّنا عشقناه وربّ السماء.

وصل النعش أخيرًا أرض مصر، تلك التي تبكي اليوم ابنها الأسمر العاشق لسمائها وأرضها، لن تغسل معاناته أنهار الدنيا وقد كان يعشق النيل الذي يشبهه في سماره وتمرّده، لتبدأ الرحلة البرّية

إلى مسقط رأسه، أين كانت أمّ خالد تنتظر ولدها لتودعه الوداع الأخير، قد صارت اليوم على كرسي متحرّك، فقد شلّها خبر موته، أعدم صحّتها وعافيتها، بل كل شيء -بتلك القرية السياحية الهادئة- كان يوحي بالحزن الرهيب على موت أحد أبنائها الفارين منها، فجأة سقطت أمطار غزيرة بلّلت المكان لدقائق، كأنّها تشارك في غسل ما تبقّى من معاناته، كانوا قد جهّزوا ذلك القبر الذي سيأوي جثّته، لكن قبل ذلك طلبت الأمّ العاجزة، أن ترى ابنها لتنفرد به للحظات قبل رحيله الأخير، إلى عالم آخر بعيد عنها.

تقدمت بكرسّيها تجاهده ليتقدم بها ناحية جثّة ابنها..

-أعرف أنّك تسمعني يا ولدي، أيها المتمرّد الخجول، لا أطلب منك أن تردّ عليّ، بل ارحم عجزي وكُفَ عن الرحيل وعد!

هي ثوان قليلة جمعتها به، يبدو أنّها لم تصدق بعد خبر موته! حتّى أنهّا لم تسقط من عينيها أي دمعة حزن! كانت تلك آخر لحظات يشمّ فيها -ذلك الدرويش الصعيدي- رائحة أمّه، وخبز أمّه، وشاي أمه. رائحة ذلك الوطن الذي يغفر لأبنائه مهما قسوا عليه وغابوا، عاد إليه بعد غياب طويل ليحضنه تراب عزبة تونس المبلل والى الأبد.

كانت نظرات الحاضرات في ذلك العزاء النسوي بغرفة الضيوف، لم يفتهنّ رؤية مشهد اجتماع- نادية وياسمين والطفلة فيروز- لأوّل

مرّة، تلك اللواتي جمعهنّ اليوم، حاضرٌ مضى، وماضٍ حضر وإلى الأبد! إلّا صاحبة الكرسي المتحرك، التي تبدو غائبة بنظراتها وهي تحمل حفيدتها الصغيرة، تشمّ رائحتها، غير مهتمّة لأمر العزاء كلّه، الذي لم يكن يمثل لها شيئًا، بل اعتبرته لا حدث..

اليوم الثالث للعزاء..

قررت نادية الاجتماع بأهل زوجها إضافة إلى صديقه بيدرو، لتخبرهم السرّ الذي تكتمه عنهم..

-جمعتكم اليوم وقد رحل عنَا من جمعنا، ذلك الابن البار والأخ الحنون والحبيب ثم الزّوج الرائع، أُعزّي نفسي وأعزّيكم على فقدانه، لم يبقَ لنا إلّا الذّاكرة، لنعود من خلالها لنجتمع به متى شأنا، أصبحنا نشبهه، فكثيرًا ما كان يعيش في ماض نتواجد به جميعنا، ماض جمع له السّعادة كما التعّاسة، كان في كثير من الفترات يعيش وحده، تلك الوّحدة القاتلة التي كنت اقرأها في ملامحه كلّما زارني، أفكّ عنه قيده لأيّام قليلة، ليعود بعدها إلى سجنه بغرناطة، حقيقة لم يعد كل هذا يهمّ الآن، ما أودّ قوله اليوم، أكيد صعب علينا جميعًا، قد تلومونني في ما كنت قد أقدمت عليه، وقد ألقى الإهانة من بعضكم، لكن لا يهمّ، كان قد زارني -في المنام- بلحظات قبل موته، كنت حينها ضيفة عند ياسمين، مبتسمًا، مرتاحًا، أخبرني أنّه راحل إلى

مكان بعيد جدًا، طلب منّي حينها شيئًا، كان غريبًا ومبهمًا عندي في بداية الأمر! طلب أن أُبقي على قلبه لا أغادره! وبالصدفة، كان الأطباء قبلها، قد عرضوا علي التبرّع بقلبه بعد أن تأكّد لهم استحالة بقائه حيًا لمدّة أطول، فسّرت حينها ذلك المنام، على أنّه وصية أوصاني بها للتبرع بقلبه، ليبقى حيًا بيننا، لا أعرف كيف يكون حيًا وهو ميت! لكنّي فعلت دون أن أسأل نفسي، قلبه اليوم هو في صدر أحدهم، عاد لينبض بالحب كما كان دائمًا.

كان صمتهم خلال ذلك البوح والمشهد الحزين رهيب جدًا، صدمة كبيرة للجميع، لم يكن أحد يتوقع منها هذا الفعل! وكأنّه كابوس لا ينتهي، لتنفجر فجأة أمّ خالد في وجهها..

-بأي حقٍ تتبرعين بقلب ولدي أيّتها المصراوية القبيحة العفنة؟! بأيّ حقٍ سمحت لنفسك بالتصرّف بحماقة في شيء لا يحق لك التصرّف فيه وأنا على قيد الحياة؟! قد كنت أنتظر عودته في الأيام القليلة القادمة، لكن بغبائك منعتني رؤية ولدي من جديد! أيّ نساءٍ أنتنّ ليُحِبّكُنّ ولدي، ذلك الغبي؟!

قامت بطردها من البيت، لتتبعها ياسمين، ويعود بيدرو إلى بلده..

كان السيد ألفونسو، قد نقل إلى غرفة خاصّة بوحدة العناية المركّزة المتوسّطة، ليستفيد من تقنيات تزيد من قوّته على التحمّل، وتُعلّمه

الطُّرق الأكثر أمانًا وفعالية لزيادة نشاطه بعد خروجه من المستشفى، أمّا ذلك القلب الذي زرع له، فكأنّه منشغلٌ يستمع لحديث المرأتان اللتان صنعتا ماضيه..

-أشكر بقائك يا ياسمين، وقبولك دعوتي لليلةٍ إضافية معي، أكيد تتساءلين عن السبب رغم أنّ الذي كان يجمعنا قد رحل ودفناه منذ أيام قليلة! أكيد أنّ استضافتك لا تستدعي سببًا معينًا، فقد كنتِ كريمة معي واستضفتني ببيتك لأيام دون أن تملّي من ضيافتي، في تلك الظّروف الأليمة التي مررنا بها سويةً، لكن الحقيقة هناك سبب آخر جد مهم لكلينا، بل هي وصية كان قد كتبها المرحوم يومًا قبل الحادث، قد وجدتها بحقيبته بعد تسلّمي حاجياته من تلك المستشفى، كنت قد فتحت الظّرف الذي تركه، فقد كان باسمي، لكن المفاجئة أنّ الظّرف نفسه يحوي ثلاثة أظرفة أخرى، كلا منها يحمل اسمًا مختلفًا عن البقية، لذا قرّرت أن أحترم رغبته وأسلّمك تلك الوصية التي تحمل اسمك، شبه متأكّدة أن وجود اسمي على الظرف الأول الأصلي، كان هدفه أن اجتمع بكُما، وكأنّه -وسط كل هذا- كان يشعر بشيء يدفعه لحتفه.

قاطعتها لتسألها..

-أظنّ أنّ الظرف الثاني باسمك! فلمن يكون الظرف الثالث؟

-سأخبرك لاحقًا، فقط لي طلب بسيط من فضلك، قد يزيل هذا فعلًا عنّا بعض الحمل والهمّ الثقيل من على قلوبنا، ويجيب

على كثير من علامات الاستفهام لدينا، أكيد لكلّ واحدة منّا أسئلة بقيت دون إجابة تخصّ علاقتها بخالد، رجائي أن تحكي كلّ واحدة منّا عن علاقتها بخالد وظروف لقائهما، ثم نقرأ مع بعض الوصايا الثلاث دون حرج أو حكم مسبّق.

لم تمانع ياسمين الفكرة، بل راقت لها، كونها تسمح لها بالبوح عمّا بخلدها من أحاسيس تتزاحم بداخلها، لكنّها رجعت وسألت مرّة ثانية عن صاحب الوصية الثالثة..

-الاسم لا يعني لي شيئًا، لأنّني أجهل صاحبته، لكن حسب تخميني هو للمرأة النيويوركية التي تزوّج بها خالد مؤخرًا، منذ بضعة أشهرٍ تقريبًا!

تفاجأت، لتضيف ..

-حسب علمي، كان قد ذهب إلى هناك للدراسة، لا للزوّاج؟!

-بلى للزوّاج! لكن دعينا نبدأ، وبما أنّ تلك المرأة ليست بيننا، سوف نضطر لفتح الظّرف الذي باسمها لنعرف قصّتها مع خالد، إن كنت لا تمانعين طبع!

-حسنا، فليكن..

كانت البداية من عند ياسمين، بما أنّ القصة كلّها بدأت من ولادة ذلك الحبّ الأول، الذي جمعها بخالد وبحكم القرابة التي بينهما..

– هو ابن عمي، يكبرني بخمس سنوات، أعرفه منذ أن كنَا طفلين، كان عمري ثمان سنوات حين بدأت أعي تعلّقي به، وأدرك ببراءتي الطفولية معنى ذلك الحبّ البريء الذي جمعنا، لم نكن نلتقي إلّا في عطلة الصّيف، كنّا نمضي جُلّ أوقاتنا في اللعب تحت ظل النخيل بقرية تونس، التي هي أرض أجدادنا، كان طبيعي أن تتكون بين طفلين –يمضيان الكثير من الوقت مع بعضهما– علاقة صحبة وصداقة، لكن مع خالد، كان قدرنا أن نكون مُختلفين عن من حولنا، كان عنوان الاختلاف اسمه الحبّ الأول..

كنت قد بدأت انسج بخيالي صفات من أستلطفه لينال إعجابي، لم يكن يخرج من ذلك النسج الخيالي إلّا صورته حتى وأنا بإسبانيا! كبر هذا الإحساس مع الوقت وازداد حضوره معي لحد أن ترسّخ عندي أسطورة الحبّ الأوّل الخالدة، كنت أعيش في مجتمع غربي، لكن البيت الذي كنت قد كبرت فيه –أقصد بيتنا– كان صورة مصغّرة لكل ذلك الزّخم الذي تُعرف به قرية والدي، من تقاليد وعادات وحبّ ولمّة، وكذلك كثير من العقد والتناقضات والمناوشات! عندما وعيت على الدنيا، وجدت حياتها كلّها شجار ونكد، كانت عقلية الريف التي جاء بها والدي–رغم ثقافته الواسعة ومستواه العلمي– قد لازمته طيلة حياته معنا، جعلتني أكبر في حيّز ضيق من الحرية، كانا كثيرًا ما يُدخلانني في نقاشاتهما العصبية المتكرّرة، ما

كان يُواسيني في كل ذلك هو خيالي، وصورة خالد الذي كنت أراه قدّيس الحب عندي، أهرع إليه حين اختنق منهما، كنت أراه يحزن لحزني ويفرح لفرحي، كانت أيام العطلة القليلة التي أقضيها معه تجعلني سعيدة جدًا، كثيرًا ما كنت أقرأ في عيونه دون أن يُضطرّ للكلام، أصبحت علاقتنا معلومة للجميع، حتى والدينا. ورغم صغر سنّنا حينها، إلّا أنّنا استطعنا رسم حدود لقصتنا، احترمها الجميع، كان خالد قد لمس عمق قلبي، بذلك الإحساس والشعور النقيّ الذي كان يمتلكه، منذ الصغر أراه مميزًا، ببريق عينيه حين ينظر إليّ، بريقٌ متوهجُ انطفئ حين خنقنا ذلك الحبّ..

بدأت تتأثر حتى تبللت عيناها أسفًا على ما مضى..

لتعود فتكمل..

- أتذكّر جيّدًا آخر مرّة رأيته فيها ونحن أطفالًا، كان عمري حينها اثنتي عشرة سنة، وبعدها انقطعت زياراتنا لمصر تمامًا -بعد انفصال والديّا- كان انفصالًا دمّر نفسيتي، كنت كلّ مرّة أُوضَعُ وسط ذلك الشّجار المملّ، كوسيط بينهما حتّى وهما مطلّقان، أرى وأسمع أمورًا، كنت في غنىً عنها وأنا في تلك السنّ الحرجة، كان داخلي يتأزّم مع الوقت، لم يكن خيال خالد يفارقني، وربّما هو ما كان يمدّني بالصبر حينها، أصبحت بعدها مجبرة أن أعمل -بجانب

دراستي- إضافة بعد المسافة بيني وبين ابن العم، وانشغال كلٌ منّا بحياته، ممّا هيّأ لظروف صنعت جدارًا بيننا، بدأ يكبر ويتّسع مع الوقت، كنت أسأل عن أخباره من هنا وهناك، حتّى توفي عمّي- والد خالد- قرّرت السفر مع والدي لحضور الدفن والعزاء، كانت الرحلة بالنسبة لي عمر جديد بعد الذي مرّ، صرت أبحث عنه وسط تلك اللّمة، وسط الكثيرين، كنّا قد صرنا شبابًا ولم نعد نجيد الاختفاء كما كنّا عند الصغر، كانت أوّل نظرة بيننا، كأنها نافذة إلى حلم كان توقف ينتظرنا، لم يكن قد تغيّر فيه شيئًا غير بنيته الجسدية الفارعة، بل ازداد وسامة وبريقًا لتلك العينين السوداوين، انفردنا حينها وانزوينا بغرفة أمّه، كان حزينًا ومتعبًا من فراق والده، اقتربت منه، مسكت بيده بلطف، رأيت دموع جفنيه اللؤلؤيتين أمامي والتي غابت عنّي لسنوات طويلة، تعانقنا، حتى طال ذلك العناق، فظنناه لا ينتهي ..

-إذا أردت بعض الراحة، نستطيع أن نأخذ قسطًا منها ثم نعود!

أصرّت أن تكمل..

-كانت عودتنا لبعضنا سريعة، كأنّنا لم نعرف فراقًا، رجعت بعدها رفقة والدي لغرناطة، ولروتيني المعتاد، كنّا نتبادل الرسائل كلّ مرّة. لم يكن زمن الهاتف الخلوي البائس قد حل بعد، كانت تلك الرسائل تصنع لي عالمًا خاصًا بي، مصممةً أن أخلق منها حلمًا لا ينتهي، واقعًا

يجمعني به، لكن وقع بعدها ما لم يكن في الحسبان. حيث بدأت ديون أمّي تتراكم فتأزّمت يومياتها وحتّى صحّتها، بل تأزّم الأمر أكثر من ذلك، بوفاة والدي في تلك الظروف السيئة جدًا، كان موته بالنسبة لي فاجعة خرّبت نفسيتي أكثر ممّا هي خَربةٌ ببُعدي عن خالد، لكن رغم ذلك لم استسلم للحزن، كنتُ أرى أمّي تبكي أمامي صباحًا ومساءً، حاولت أن أستدين من البنك لكن رفض طلبي، حاولت لأجلها أن أستدين من الأصدقاء والمعارف، لكن من يُقرض فتاة مثلي دون مقابل! أو يسلّف مالًا لامرأة مثل أمّي وهو متأكد أنّها لن ترجع له سنتيما!

حتى جاءت تزورنا يومًا، إحدى معارف أمّي -كانت تعلم بوضعيتها المالية المزرية- عرضت علي الـزواج من إحدى الأشخاص -زواجًا أبيضًا، مقابل مبلغًا من المال، أسدّد به ديون أمي، ثمّ يطلقني بعد أن يحصل على أوراق إقامته، كنت في وضعية لا أحسد عليها، وهذا ما حصل فعلًا للأسف، لكن المُعضلة حينها، أن خالد سمع بتلك القصة، لا أعرف كيف، فقام بمهاتفتي وشتمي، ليقطع صلته بي تمامًا. كانت تلك لحظة لم تذهب من مخيلتي أبدًا، كم كنتُ تافهة ورخيصة لحدّ أنّي بعت حبّه مقابل المال.

ومن يومها لم نتواصل لسنوات، حتى جاء يوم سمعت أنّه ينوي أن يكمل دراسات عليا هنا بإسبانيا، فاستغليت الفرصة واتصلت به، هو

طيب وحنون بطبعه، لم يمانع في أن نتواصل، كنت أعلم أن ذلك الحبّ السابق لم يغادرنا أبدًا، وفعلًا رجع ذلك الودّ، وغفر لي ما ارتكبته في حقّه، أو هذا ما أحسسته من خلال حديثه، رغم أنّه بعد الزواج كنت أشعر بعض المرّات كأنّه يعاتبني بقسوة على ما فات! المهم، بعدها تواصلنا لما يفوق العام حتى قررنا الزواج، ساعدته في أن يكمل أوراق الجامعة ليلتحق بي بغرناطة، فقد كان مولعًا بتاريخ الأندلس، كان لقاؤنا بمطار مالقا كولادة جديدة لكلينا، لتتمّ بعدها الخطبة والزواج في بضعة أشهر.. آسفة نادية، إن كنت قد نسيت نفسي..!

ابتسمت نادية لتجيبها..

-لا عليك من الأسف، فلم يعد لنا إلّا الماضي نتذكّره به! أكملي من فضلك..

تعود لتغوص في ماضيها..

-كنّا في السنوات الأولى أسعد زوجين، لدرجة تفوق الخيال، لم نترك مكانًا إلّا وتركنا به ذكرى لنا، زُرنا أماكن عدة، باريس، روما، فُنيس، المغرب، تركيا، دام ذلك لعامين أو أكثر، بعدها بدأت تظهر عُقدنا الدفينة شيئًا فشيئًا، بدأ يتضمّر من طريقة لباسي، من عصبيتي التي بدأت تصنعها خصوماتنا المتكررة، مع الوقت كنّا قد تسبّبنا لبعضنا في إظهار أوحش ما عندنا من الصّفات الدفينة، لكن رغم ذلك بقي حبّنا

محايدًا في كل هذا، كنّا -عند عودتنا وتصالحنا- نجد قوّة ذلك الحب الأسطوري ما تزال ملتهبة، كنّا نفتقد حينها لكثير من الصبر والتجربة، ليكون مصير ذلك الغرام الشرخ رغم ولادة ابنتنا فيروز وقتها!

كان خصامنا يفسد حياتنا بشكل رهيب، كنت بداية أنا من يغادر البيت حين نتخاصم، بعدها صار هو من يخرج ثم يعود لمرّات متتالية، حتى جاء يوم كنت قد سئمت ومللّت من كل ذلك العبث الذي أصاب حياتنا، لأقدم في ليلة من الليالي على طرده من البيت، وأنا في تلك الحالة من الغضب، كانت تلك النقطة التي أفاضت الكأس، تطلقنا وافترقنا نهائيًا، ليعود هو إلى هنا، بقيت حينها أعيش على ذكراه، كان شرخًا عميقًا، انتابني يومها شعورٌ باردٌ كالصقيع، بأنّه يمكنه أن يتركني لأتفه سبب، لكن بعد أشهر من وُجوده هنا بمصر، قرّرت التواصل معه، فقد كانت ابنته -بالإضافة إلى إعاقتها- تكبر دون أن يكون بجنبها، لا أخفي عليك انّي أنا كذلك اشتقت لرؤيته بجنبي، وفعلًا بعد مدّة من التواصل، قرّر العودة، لم يستطع التأقلم من جديد بجو قريته، عاد الشمل من جديد لكن بعد شهر عادت وظهرت خصوماتنا من جديد، فقرّر في يوم، أن يضع حدًا لذلك النزيف.

كان هناك صمت قد ساد طيلة سرد ياسمين لقصتها مع خالد، يبدو أن نادية كانت تحضر ذاكرتها، تهيّأها لما سوف تسرده، أكيد

معرفتها لزاوية من حياة خالد -رغم أنّه حكى لها الأهمّ- كان قد قرّب لها صورته وخبايا كثيرة من شخصيته..

دورك يا نادية..

أخذت نفسًا عميق، وراحت تسرد..

-قبل خالد كانت حياتي عادية جدًا، لم تكن هناك حياة أصلًا، غير روتين البيت، وسط عائلة كبيرة العدد، كنت قد أصبحت مهندسة معمارية، بيوميات عاديّة وبسيطة، كان يجمعني بخالد علاقة قرابة بعيدة نوعًا ما من جهة أمّه، كنت قد رأيته آخر مرة ونحن صغار السن، سمعت عنه بعد ذلك عندما كان هنا بكلية الآداب بجامعة القاهرة، لكنّي لم أجتمع به أبدًا، حتى جاء يوم كنت أتصفح فيه صفحتي على الفيس بوك كالعادة، وإذا بصورة لبروفايله تمرّ من أمامي، كان حينها صديقًا افتراضيًا لخالي بباريس، تصفّحت بعض ما كان ينشره، شعرت وكأنّ الأرض قد تزلزلت من تحتي، شعور غريب داهمني فجأة، ودون وعي منّي تمنيت أن يكون زوجي، كنت على علم أنّكما انفصلتما منذ عامين، تخيّلت حياة الوحدة التي قد يكون يعيشها في الغربة، أحسست من خلال صورته، الكم الهائل من الحنان والطيبة التي بداخله.

كثيرًا ما راودتني فكرة التواصل معه، لكن كان هناك شيء من الخوف أو الخجل هو ما كان يمنعني. وفي إحدى المرّات تشجّعت

وطلبت صداقته بالعالم الافتراضي فقبل، كانت تلك بداية قصّتي معه، تعارفٌ تسارعت وتيرته بطريقة عجيبة وغريبة جدا، لم أشعر بأي حاجز بيننا، كنت أسمع له ولحزنه وماضيه، بشغف كبير واستجابة عجيبة، كان هدوءه باد في تعابيره الكتابية، كل يوم يمرّ يزداد تعلّقي به، حتى صار حبًّا يسكن فؤادي، يختلج صدري، لا يخرج منه أبدًا، كان صريحًا معي في ما يخصّك يا ياسمين، كان قد أقرّ لي أنّكِ حبّه الأول، الذي لم يقدر أن ينساه يومًا، الحقيقة أنّي في البداية، لم أكن أريده أن يحبّني كمبلغ حبّه لك، بل كنت أريد أن أحبّه أنّا، وأكون معه فقط، أمّا حبّه لي فكان مؤجلًا عندي، لم أطلب يومًا أكثر من ذلك.

وفي خلال شهرين كنّا قد خطبنا وتزوّجنا فعلًا، لم أكن أصدّق كل ما يحدث، فقد مرّ كل شيء بسرعة خيالية، كم كان حنونًا وطيبًا بالضبط كما تصورته أوّل مرّة، أحسست بكل ذلك قبل أن أتعرّف إليه. كانت زيارته لي كل بضعة أشهر،تمرّ كحلم فاخر أعيشه بكل تفاصيله، ينقلني من حياتي البائسة لسراديب دافئة تمنحني الاطمئنان، ورغم كآبته وتعلّقه بالماضي الذي كان بينكما، إلّا أنّه كان مُشرقًا به طاقة عجيبة جعلتني أعشق الحياة لا أملّها، لكنّه بقي حزينًا مرتبكًا، لا يعرف من أين يبدأ، فكنت أمدّ له كفيّا الداعيتين للحب. كنت أشتاق له، أتألم بصمت معتم لغيابه، وخلو الأمكنة من رائحته، كان مثلي

يئنّ في صمت رهيب، حتى آخر مرّة قبل أن يأتي لزيارتي إلى هنا، بدأ يلمّح لي بشيء كأنّه يستعطفُني في أن أقبل انتحاره، كان قلبي يتمزق فينزف بشدّة، شعرت بأنّني ضائعة لأوّل مرّة، لكن حبّي له كان أكبر من كل شيء، ومن أي نزيف أحمر يلغي وجوده بحياتي، كنت أصغي إليه بصمت يُدينه، حتى أقرّ لي أنّه تزوّج بامرأة ثانية.

كنتِ أنتِ يا ياسمين أوّل من فكّرت بها حقيقة، لأنّ حبّه لكِ كان يعيش بيننا في صمت، كنت أتوقّع أن يعود إليك في أيّة لحظة، تعايشت مع ذلك الإحساس الساكن بداخلي، كنتُ أعلمُه ولم يخفه عنّي منذ البداية، بقيت صامتة أصغي إليه من وراء هاتفي حتى أنهى المكالمة، أغمضت عيناي على شريط كلماته ثم أجهشت بالبكاء حتّى جفّت دموعي تمامًا، لم أخرج من غرفتي طيلة يومين متتاليتين، كانت الوحيدة من رافقت تلك اللحظات هي وردة الجزائرية ..

..أكدب عليك لو قلت بحبك لسه أكدب عليك..

..واكدب عليك لو قلت نسيتك همسه أكدب عليك..

..ومال أنا إيه قلي إنت أنا إيه..

اقتربت منها ياسمين لتحضنها..

الفصل الرابع عشر

غريب أمر هاتين، لهنّ قوّة تحمل وتعاطف وتعايش رهيبة، لا يملكها جلّ الرجال! بعد دقائق من التعاطف الذي تولّد بينهما، هدأت دموع نادية، لترجع فتكمل..

– ادّعيت المرض أمام أهلي، لأركن إلى شجني وغربتي، لكن لم تكن كل تلك التراجيدية تنقص من حبّي له، كان قد اقترب موعد زيارته، صنع عندي ذلك شيء من تلفٍ في الغدد، كل شيء يتغير بذلك، فيصبح عالمي ورديًـا، أُصاب حينها بالزهايمر، لمجرّد أن أتخيله واقف أمامي. وفي يوم وصوله إلى المطار، اصطنعت الصمت، لكنّ أنفاق شوقي هزمتني أمامه، كنت متلهّفة لسماع صوته –فألعن الصمت في سرّي– لم يبخل كعادته، ليحضنني تارة ويضغط على يديّا تارة أخرى، لكن بعدها انفجرت حين تكرّر غيابه عنّي كل يوم لساعات، يتواصل فيها مع المرأة التي كنت أظنّها أنتِ، كان ذلك قد صنع بداخلي شيئًا من التمرّد، لأجهش بالبكاء، شكوت له قسوته وغيابه عنّي، ليجازيني بردّة فعل عنيفة ومخيفة، لأوّل مرّة أراها منه، خلالها فقط ذكر أن زوجته الثانية تسكن بنيويورك، عندها

فقط تأكّدت أنّها امرأة غيرك، وأدركت متأخّرة أنّه ضاع منّي وليس بمقدوري أن أدافع عن حقّي فيه.

كانت ياسمين تستمع لحديثها بشكل يوحي بشغفها لمعرفة تفاصيل خالد التي غابت عنها..

تأوهت نادية طويلًا لتكمل..

– في آخر المطاف فضّلنا التواصل بشيء من الهدوء، تيقنت أنّي لن أربح شيئًا إن أنا عاندته، وفعلًا مرّت تلك العاصفة دون خسائر، لكنّي تيقنت حينها، أنّه يعاني من أزمة عميقة، تجعله يهرب إلى الأمام لكي لا يواجه نفسه. أحسّست أنّي مكبّلة اليدين، لم يكن بوسعي غير التقرّب منه وإعطاءه المزيد من الاهتمام والحبّ، لعلّ ذلك يساعده في الخروج مما هو فيه، فلم أكن أريد أن أعاكس تمرّده وإلّا لكنت خسرته وفقدته، كما نفتقده اليوم.

كانت تلك آخر مرّة رأيته فيها، بعدها قلّ تواصلنا، ثمّ انقطع تمامًا، حتى أعلموني بالحادث المشؤوم. أرجو يا ياسمين، أنّي لم أثقل عليك بحديثي!

– لا مطلقًا..

– حسنًا، بما أنّنا قد حكينا وبُحنا بما كان لدينا، أرى أن تفتح، ثمّ تقرأ كل واحدة منّا ظرف الأخرى، لننتهي من هذا العذاب المرهق! ما رأيك؟

لم تمانع في غلق باب ذلك الباب الذي أرهقهنّ طيلة تلك السهرة الطويلة، لتبدأ نادية أولًا بقراءة وصية خالد لياسمين..

« أكيد –إن فهمت أرملتي نادية ما كنت أرمي إليه– فأنت الآن مجتمعة بها وبهاجر، وكأنّي أراكنّ الآن أمامي، وأنتنّ تقرأنّ وصيتي! والأكيد في ذلك أنّي مت! لا أعرف كيف! هو مجرد إحساس أو شعور انتابني منذ أن غادرت نيويورك، جعلني أقبل على كتابة هذه الوصيّة، والأكيد أنّ كل واحدة منكنّ، قد سردت قصّتها، بل مُعاناتها معي، قد تكُنّ صادقات فيما سردتُهُنّ عنّي أو تكُنّ تجاوزتنّ بعض الأمور! هذا لم يعد يهمّ وقد رحلت، ما أود قوله لك يا ياسمين..

كنتِ حبّي الأول الذي لم أستطع نسيانه يومًا، عانيت الأمرين في غيابك، حتى تعرفت بعد عامين من فراقنا، على نادية وحكيت لها عنك وعن معاناتي مع حبّك، وفي البعد عن حبيبة قلبي فيروز، كلانا كان له يد في خنق ذلك الحبّ الأسطوري، وكلانا كان ضحية

ظروف وتقاليد وعقد موروثة كثيرة، عشناها وتربّينا عليها، صَعّبت من تعايُشنا مع بعضنا البعض، لكنّ الأكيد وسط كلّ هذا، هو أنّك طيبّة القلب ورائعة كذلك..

توقف نادية عن القراءة،لمّا رأت تأثر ياسمين، راحت تهمس لها برقة ..

-أعرف أن الأمر ليس سهلا عليك تحمّله، خاصة إن كان الأمر يخصّ حبيب الأمس الذي مات، لكن ما لنا من حيلة إلّا أن نستحمل وأكمل..

عادت للقراءة..

- لكِ من الصفات ما يجعلك أروع امرأة، لكن لا أخفي عنك، عقدتك كانت دائما تسمى «الرجل» وليس خالد، هذا الرجل -الذي مهما كانت وضعيته بالنسبة لك- كان يمثل تحدٍ لك ولشخصيتك، لربّما لسبب نمط حياتك التي عشتها من قبل، لكن ما زاد طّينك بلّة هو شخصيتي الريفية المتزمّتة، بكل ما كان فيها من عقد تجاه المرأة، كان لكل منّا تصوّره الخاص ومفهومًا خاصًا به لمعنى الرجل والمرأة. ذلك ما سرّع نشوب رغم الحبّ الكبير الذي كان بيننا- حرب لا هوادة فيها-، خنقنا بها تقارُبنا، وذلك العشق الذي ظلمناه بأنانيتنا المفرطة، وذلك العناد والتمرّد المستمر، حتى يوم فقدنا كل شيء، أو ربّما ببساطة كان الحبّ نفسه أكبر منّا، لكن الأصعب من كل ما

مرّ، هو ذلك اليوم -الذي سمعتك ترددين قولكِ، أنّك تحرّرت منّي فصرت مُرتاحة، لا يربطك بي شيء- أحسست حينها بزلزال يضرب أعماقي، اختنقت فجأة، أردت أن أهرع إلى أبعد مكان لا يعرفني فيه أحد، فلم أجد نفسي إلا وأنا ألجأ إلى هاجر..

تلك المرأة التي كنت لا أعرف ماضيها من حاضرها، جمعتني بها قصّة قصيرة قديمة جدًا بالقاهرة، لأجد نفسي بين أحضانها هربًا من قسوتك، ومن حاضر زوجتي نادية، كانت لعنة حبّك تلاحقني حتى وأنا هناك، لأعود أخيرًا بعد أن خسرت نفسي تمامًا..

كم كان يحزنني وجود ابنتي الحبيبة فيروز وسط كل تلك الأنانية والبؤس، وكم كنتِ قاسية معي حين كنت تمنعينني مرّات عدّة عن رؤيتها! لستُ هنا لأعاتبك وقد رحلت -بما أنّك تقرأين وصيتي- بل أوصيك بعيون قلبي فيروز، أشتاق لها كعرض السماء.

في الأخير ما لي إلّا أن أتمنى لكما -أنت وابنتي- حياة سعيدة لا يوجد فيها خالد».

صاد صمت طويل جدًا احترمت فيه كل واحدة شعور الأخرى، لكن كان الوقت يمرّ بسرعة ولا يزال هناك ظرفان لم يفتحا بعد..

ليأتي دور ياسمين لتقرأ وصية خالد لنادية..

«أنت بالذات أعتذر لك، قد أتيتِ في وقت كنتُ فيه على حافة الهاوية، قريب من الجنون أو الموت البطيء، كان بي حلم قديم يسكنني منذ الأزل، هو الذي قربّني منك، وشجّعني على التمسّك بك، شعرتُ بأنّك أنتِ من سوف تجمع أشلائي حين تتبعثر، فتعيدين ترتيبها، لكن ما كان يُصعّب علي الأمر، هو سؤال كان يُقحم نفسه في حواراتي مع نفسي. هل كان بإمكاني أن أجد القوّة اللازمة لمرافقتك ذلك الحلم؟ لم أكن متأكّدًا من ذلك! من نفسي خاصّة، لكن إصرارك وذكائك وطيبة قلبك ثمّ حنانك الكبير، هو ما هوّن الأمر عندي، حتى أنّني وقتها لم أجد ما يمنعني في الارتباط بكِ، رغم أنّني كنت لا أزال أعاني من ماضٍ اسمه ياسمين..

أجهشت ياسمين بالبكاء والنواح كالطفل الذي لا يريد أن يوقفه أحد، لم تتدخل نادية بل تركتها تأخذ وقتها لإفراغ تلك الشحنة التي تضيق عليها تنفسها، لتهدأ بعد دقائق طويلة وتسمح دموعها متأسفة فتكمل القراءة من جديد..

-تيقّنت بعد مدّة، أنّني أصبت في اختياري، لكن الشيء الذي جدَ ووقف حائلًا بيني وبينك هو طلبك في تكوني معي حيثما أتواجد. كنت حينها معلّقًا بين السماء والأرض، لم أستطع حسم قراري حينها، بل كانت مجرّد فكرة التحاقك بي هنا بإسبانيا تجعلني أفقد

صوابي، فأتعصّب عليك، حينها لم أكن أفهم لما كل هذا الخوف؟ أمنكِ أم من نفسي؟ أكيد لم يكن الخوف منكِ بل هو رعب من أن أفقدكِ، فبنيت -دون أن أشعر- جدارًا من الخوف البشع بيني وبين حبّك، حتى حلّت هاجر، بإصرارها الفظيع، لتأخذني منكِ إلى رحلة عذاب بألوان نيويوركية سببت لي المزيد من الاكتئاب، حتّى أنّها أفقدتني ما كان بقي لي من ذاكرة ومن حبّ، فهرعت عائدًا إلى صوابي، أرغب في لقائك..

فعلًا لا يوجد قلبًا أحنّ عليّ -بعد أمّ خالد- منكِ، ولا أحبّ على قلبي من رؤيتك وفيروزي إلّا رؤية كرم الله لي. أنا اليوم كالذي وجد نفسه بين الحياة والموت، فكان عليه أن يختار بينهما، لذا اخترت الاثنين معًا، لا أعرف سرّ الخلطة، لكن اخترت حبًا في عينيك. لي شعور غريب يُجبرني، يشُدّني يجرّني لكتابة وصيتي، لأوصل لك كلامي هذا واعتذاري، لتسامحيني على أنانيتي، فلربّما يقع الأسوأ وأنا مسافر إلى عينيك وحضنك».

صرخت نادية بأعلى صوتها..

-لماذا يا الله قد فرّقتني عن من أحب؟

لم يبقَ إلا الوصية الأخيرة التي تخص هاجر، فقرّرتا أن تفتحاها لتكتمل الصورة..

التقطت نادية ذلك الظرف الأخير وهي تتنهّد بعمق، كأنّها قاربت على النهاية من ذلك المشوار الطويل داخل ذاكرة خالد، لتبدأ في القراءة..

«باختصار شديد، وقد عدت من عالمك البائس جدًا بالأمس فقط. قد التقينا في ظروف صعبة جدًا وخانقة، كنت أمرّ بها، كنتُ بحاجة حينها إلى من يسمع صرختي، إلى من يفهم محنتي، إلى من يفهم تعبي وغُبني! ما رأيته منّي في بداية لقاءنا هنا بغرناطة، حين رأيتك لأول مرّة -بحضور صديقي بيدرو- بعد غياب لأكثر من عشرين سنة، كان عبارة على نداء استغاثة طارئة كانت كامنة بداخلي، كنت بحاجة لمساعدة صديق مختلف عن بيدرو الغجري، ربما لأنّه رجل، ولأنّه كذلك من غير بيئتي، كنت محتاج لمن يفهمني ويقدّر متاهتي! أصرّيت حضرتك حينها، بل ظللت تردّدين على مسامعي، فكرة أن القدر يريد جمعنا، لم تكوني تفعل شيئا غير تكرار نفس تلك العبارة المملّة -لقائنا ليس صدفة يا خالد! بل له سر عجيب- طبعًا كنتِ قد فسّرتِ الأمر على هواكِ الأعمى، وكرّرته على مسامعي ألف مرّة، حتى آمنتُ به بلا وعي منّي، فتولّد من ذلك مخاض تجربة مريرة خذناها معا، تزوّجنا في ظروف أقلّ ما يقُال عنها أنّها جُنونية ومُبهمة حتى ربّ السماء! لكن رغم تلك المرارة، كانت قد أفادتني كثيرًا في كوني قرّرت الرجوع أخيرًا-بعد أن طلقتك- لحضن زوجتي نادية وتطليق ماضيك بالثلاث.

لا ألومك، بقدر ما ألوم نفسي في أنّني كنت جبانًا أهرب من ماضٍ لأحضُن ماضٍ آخر، كاد يبقيني مسجونًا أبد الدهر! لكن كلّ هذا لم يعد يفيد الآن، في الأخير بلغي سلامي لابنك الصغير-أحمد، أتمنى أن تهتمي به أكثر، وشكرًا لأنّك حاولتي أن تحبي شخصًا كان على وشك الموت، وبما أنّك تقرئين وصيتي فأكيد لم أصل لأي مكان، غير قبري بعزبة أمّي».

إنّ هذا اللقاء الذي لا عنوان له، والذي جمع بين نسوة ثلاث لهو عجيب جدًا! الأولى تمثّل الماضي القديم لخالد الذي أتعبه والثانية تمثل الماضي الأخير من حياته، والذي هرب منه، ليقع في فخّ الثالثة. لكن شجاعة -نادية وياسمين- وبوحُهما اليوم، وبوح -ذلك الميت الحي- لهما، كان قد أخرجهما فعلًا من نفق مظلم، في الوقت الذي كان فيه قلب ذلك الميت قد بدأ ينتعش، ينبض بشراهة في جسد آخر جديد، فقد خرج ألفونسو لتوه من المستشفى، كله عزم على بدء حياة جديدة ومختلفة، بعد معاناة طويلة مع المرض، كان أول سؤال سأله له طبيبه المتابع لحالته ..

-بماذا تشعر اليوم سيد ألفونسو؟

أجابه بابتسامة عريضة وبريق يضيء من عينيه كبريق عيني خالد تمامًا..

-أريد أن أحبّ وبشدّة!

كانت إجابته تلك، غير متوقّعة بالنسبة لأمّه التي رافقته طيلة سنوات مرضه، تعرف ما يحبّ وما يكره، كان أشدّ ما أدهشها هو أنّه من قبل، لم يكن يؤمن بالحبّ ولا سيرة الحبّ، كانت كثيرًا ما تروي له قصصًا عن الغرام، فينزعج من ذلك! أما اليوم فحتّى هو لا يدرك لماذا يشعر بهذا الشغف الكبير في أن يحبّ بشدّة في المقام الأوّل! طلب التعرف على هوية المتبرع له بالقلب، لكن الطبيب فضّل أن يؤجل الأمر حتى تستقر حالته.

بدأت حياة ألفونسو تستقر شيئًا فشيئًا، تغيرت بعض طباعه، كان معروفٌ عنه قسوة القلب وتحجّر المشاعر، لكنّه اليوم مختلف بعض الشيء، حتى أنّ ذوقه في الطعام بدأ يتغيّر، ابتعد عن لعب القمار والسهر الذي كان يؤرّق أمّه كثيرًا، لكن بالمقابل ما لاحظته عليه، هو انعزاله التصاعدي وظهور بعض أعراض الاكتئاب عليه، لكن الأغرب من كل ذلك، كان في اشتياقه لأشياء كثيرة غير ملموسة عنده، لا يستطيع وصفها أو تحديدها بالضبط، يشعر أحيانًا كثيرة وكأن القلب الذي بين جنبيه يُحدّثه، يخبره عن الحبّ، كما كانت تصفه له أمه من قبل، لكن ما أن يطول الحديث عن هذه الأسطورة الحقيقية، إلّا ويزداد خفقان قلبه إلى درجة شعوره بشيء من الاختناق الذي لا يقدر أن يحدّد مصدره.

بعد مرور أشهر قليلة من ذلك، بدأ يجتاحه سيلٌ من الاكتئاب إلى جانب ألم شديد برأسه، يدوم لبضعة دقائق، حاول معه الأطباء لكن الأدوية لم تكن تنفع أو تداوي صداعه، فنصحه رئيس وحدة الزراعة الطبية للقلب، بأن يزور طبيبًا يتابع حالته النفسية عن قرب.

أول موعد مع الطبيب النفسي..

-اجلس سيد ألفونسو، تفضلي سيدتي بالخارج سوف أتكفل بحالة ابنك لا تقلقي..

خرجت الأم تنتظر بقاعة الانتظار، كلها أمل في أن تستقرّ حالة ابنها النفسية.

حكى له بداية مرضه واستفادته من زراعة قلب متبرع وكيف ظهرت بعض الأعراض على شخصيته وذلك الألم الذي بدأ يظهر يلازمه ..

-اسمع سيد ألفونسو، الطريقة التي سوف أتّبعها معك، هي لحد الآن مجرد نظرية، يؤمن به بعض الأطباء عبر العالم، خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية، لأنّها لحد الآن هي مجرد ملاحظات ودراسة نفسية لبعض الحالات. قبلت متابعة حالتك، بعد توصية من طبيبك الذي شرح لي ظروف عملية الزرع التي قام بها لفائدتك، لذا سوف تكون محلّ هذه الدراسة التي طالما شغلتني، سوف أتابع حالتك خطوة بخطوة، ومرحلة بمرحلة، حتى تظهر النتائج الأخيرة بشكل واضح وجلّي، وهذا يتطلب موافقتك طبعًا!

يبدو متحمسًا لخوض تلك التجربة لربما ينتهي من ذلك الصداع الذي بات يقلقه، وتتحسن حالته العامة.

-لا مانع عندي حضرة الطبيب، فلنبدأ..

-إذًا عليك أن تحكي لي عن حياتك الماضية وما بعد عملية الزرع..

-حسنًا أنا في الأربعينيات من عمري، لم أمارس أية رياضة من قبل، ولدت بملجئ هنا بغرناطة، تبنتني أمّي -هذه السيدة التي رافقتني إلى هنا- سيدة عظيمة، لم تُحسّسني يومًا أنّي لست ابنها، سمتني -ألفونسو لكنّها أخبرتني عند بلوغي بإسمي الحقيقي الذي ولدت به- «فيصل»، أظنّني من أصول عربية، كما تبدو على ملامحي. كانت حياتي عادية في البداية كأي شاب، كثير الأصدقاء لا أفوّت فرصة إلّا والتقي بشلّتي للسهر والشرب، أعمل مرشدًا سياحيًا، ناجح في عملي، أعيش في بيت كبير مع أمّي التي ربّتني، المشكل الوحيد الذي كان ينغّص علي حياتي طوال السنوات الماضية،هو ظهور عيب خلقي بقلبي، عيب بالحاجز البطيني، الذي تم اكتشافه بعد بلوغي، ممّا جعلني أعاني من الشعور ببعض الإرهاق واضطرابات في نُظم القلب، عالجت لمدة سنوات، لكن كان إجماع الأطباء على أن حالتي تستدعي زراعة قلب جديد، قمت بتسجيل اسمي بقائمة الانتظار، لم يمنعني ذلك من متابعة حياتي لكن بشكل مختلف قليلًا..

-ماذا عن علاقتك بأمك-السيدة التي ربّتك؟

-هي كل شيء بالنسبة لي، لولاها لكنت الآن مجرّد متشرد أو من تعداد الأموات، لكن الغريب في الأمر، هو أنّي بعد العملية صرت أشعرُ بها بشكل مختلف تمامًا!

-كيف مختلف؟

-من قبل كنت أرى اهتمامها بي هو شكل من أشكال الشفقة، وكما سبق وأن قلت لحضرتك -قد ولدت بملجأ لا أعرف أصلي- ممّا خلق عندي نوعًا من النفور من أي شيء يحمل سمة ما يسمّى الحبّ، الحقيقة كنت أستقبل ذلك الحنان الذي كانت تمدّني به، لكنّه بالنسبة لي لم يكن يتعدى مستوى الشفقة، كثيرًا ما تحكي لي عن أحاسيس الحب من خلال قصصها، لكنّي كنتُ أنفر كلّ مرّة من مجرد سماع ذلك، كان يصنع بداخلي هيجانًا ورفضًا يدخلني في نوبة عزلة وكآبة تستمر لأيام.

-ماذا كان يحدّثك قلبك عن والديك البيولوجيين؟

-كان ذلك الأمر يؤرّقني كثيرًا، خاصّة عندما بلغت وحُدّد مرضي، فهمت حينها أنّهما تخليا عني لربّما بسبب عاهتي، وربما ببساطة، لأنني طفلٌهما غير الشرعي! لا أدري ما كان منهما بالضبط! كلّ ذلك قد أثّر في نفسيتي مع الوقت! كانت أرى ما

يسمّى الحب، على أنّه مُجرّد خُدعة وصكًا على بياض، أُعطي للفشلة، وللفقراء والمرضى.

-كيف عشت الحبّ مع الجنس الآخر؟

-لم أعشه أبدًا، لأنني كنت لا أؤمن به مطلقًا!

-تقول كنت! هل أفهم من كلامك هذا،أنّك أصبحت تؤمن به الآن؟

-ليس بالضبط، لكن مُنذ أن زُرع هذا القلب بين أضلعي، أشعُر بشيء غريب لا أعرف إن كان هو فعلًا الحب! أو هو شعور من نوع آخر مختلف! لكن هناك كثير من المفاهيم بداخلي تتضارب وتتزاحم لا أستطيع ترتيبها لحد الآن! الإحساس الوحيد الذي ألمسُ أن ملامحه فعلًا.....

توقّف للحظة، يسترجع أنفاسه، وكأنّه يختنق! ليضيف..

-ما تغير بداخلي وفي مفهومي هو صلتي بأمّي، وتقرّبي منها بشكل مغايرًا تمامًا عمّا كان من قبل، تلك التي أعطتني بلا حساب، أظنّه نوع من الشعور الذي يُدعى الحب! وإن كان كذلك، فهو حب بلا مقابل.

بدا جد متأثر بما يرويه ويشعر به..

-أظنك تعبت قليلًا! إذا كنت تحبذ التوقف هنا، نكمل في الجلسة القادمة..

-لا، بل أرغب في أن نتابع، فأنا أشعر بتحسّن بعض الشيء..

-إذًا لا بأس، لنكمل. قل لي ما إحساسك أو لنقل علاقتك بالقلب الذي زُرع لك؟

-صدّقني إن قلت لحضرتك أنّي آنس به، تمامًا كالصديق ..

-كيف؟ وضّح من فضلك..

-منذ أن بُذر بصدري، لم نقف عن التحدث أبدًا، يُخبرني تارة عن ذاكرته وما عاشه، وبالمقابل أحكي له ما عانيته من قبل، كثيرًا ما أجد نفسي أحيا بذاكرتين، تحاولان التعايش بداخلي بشكل سلمي وحضاريٍ مدهشٍ، وكأنّني أعيش تاريخ غرناطة، بكل ما يحمله من تناقضات وآلام وحبّ وشموخ، وربّما صرت مجنونًا كذلك هههه..

- لا بالعكس، أظنّك على الطريق الصحيح، لكن هناك شيء آخر جد مهم!

-ما هو حضرتك؟

-عليك أن تبذل جهدا لتتعرف على حياة المتبرع لك، أهله، أصدقائه، إن أمكنك ذلك! قد يساعدنا ذلك من فهم ذاكرة قلبك الجديد الذي تسميه صديقك.

الفصل الخامس عشر

بعد أسبوع..

اتّصل ألفونسو بإدارة المستشفى لمعرفة بعض المعلومات عن خالد، لم تمانع الإدارة في ذلك بما أنّه لا يوجد ما يمنع ذلك قانونيًا، خاصة وأنّ أهل المُتبرع لم يتركوا أي توصية تمنع إعطاء أي معلومة لصالح المتبرع له. كانت سعادته لا توصف وهو يتحصل على عنوان أرملة خالد. ليقرر الذهاب للتعرف عليهم.

يوم الرحلة..

في ذلك الصباح المعتدل، أخذ ألفونسو مكانًا على متن القطار السريع الذي يوصل مدينة مالقه Malaga الساحلية الأندلسية، يبدو مصمم وجد متفائل، يسرحُ بخياله بعيدًا، ولمدة ساعتين تقريبًا، وصل أخيرًا إلى محطة القطار ليركب بعدها الحافلة المتوجهة للمطار.

بداية الرحلة على الساعة 21 :25ولمدة 15 ساعة و45 دقيقة..

كانت الرحلة غير مباشرة على متن الخطوط الجوية التركية، التوقف بداية بإسطنبول ومن ثمة إلى القاهرة مباشرة. أكيد سيكون

السفر طويلا ومتعبا، لم يكن ذلك ليثبط من عزيمته وإصراره على المضي قدما، ليصل أخيرًا مطار القاهرة الدولي على الساعة12 :1+10.

خرج يجرّ حقيبته الصغيرة يتجول بأرجاء المطار، ينظر يُمنة ويُسرة منبهرًا بمحلات الأسواق الحرّة لطيران مصر، التي تعرض بعض التذكارات من الألبسة الفرعونية المدهشة، وتحف كثيرة على مرمى النظر، وهو يتجول كان يبحث عن مكتب الصرف، ولحسن حظه أنّه يحسنُ بعض اللغات منها العربية والإنجليزية بحكم مهنته، لذا كانت عملية الصرف سريعة، ليتجه مباشرة لشراء شريحة هاتف، تُمكّنه من الاتصال المحلي والخارجي، فجأة شعر ببعض الجوع، فطلب من أحد المارة في أن يدله عن مكان يقدم الأكلات السريعة، نعت له محل يسمى- فوود فيلاجFood village أخذ به أكلة سريعة ليخرج بعدها مباشرة إلى فندق- لوباساج القاهرة، الذي كان قد حجز به قبل سفره، والذي يبعد عن المطار بحوالي كيلومترين تقريبًا..

فور وصوله لغرفته بالفندق، اتّصل مباشرة بنادية عبر شريحة هاتفه..

-ألو نعم؟

-أهلا سيدة نادية..

-أهلا بحضرتك، تفضل، من تكون؟

-أنا السيد ألفونسو من غرناطة، المتبرع له بقلب زوجك المتوفي خالد، بداية تعازينا الخالصة.

صاد صمت للحظات...

-ألو سيدة نادية هل أنت معي؟

-نعم نعم، بماذا أستطيع خدمة حضرتك؟

كأن صوتها تغيّر عند سماع اسم زوجها المتوفّي..

-أريد فقط ملاقاتك سيّدتي، لأشكر لك جميل فعلكم معي، أنا هنا بالقاهرة، قد سافرت كل هاته المسافة الطويلة، لا رجاء لي غير رؤية أهل المتبرع، أظنّك تتفهمين الأمر! آسف لعربيتي المتكسرة..

عاد الصمت للحظات، لتردّ عليه أخيرًا..

-حسنًا لا مانع عندي، مرحبًا بك بمصر..

-هل حضرتك بالقاهرة؟

-نعم، أنا أقيم بالقاهرة، لكن للأسف غدًا مشغولة، بعد الغد يمكننا أن نلتقي في مكان عام طبعًا..

-ممتاز، أشكر فضلك سيدتي..

-العفو، أضرب لك موعدًا بمقهى الحرافيش، بوسط القاهرة، المكان معروف جدًا وجميل، أي سائق تاكسي سيوصلك إليه بسهولة..

-اتفقنا إذًا، شكرًا مرّة ثانية. .

-العفو سيدي.

كانت خطوة جبّارة جعلت قلبه يخفقُ بشدّة، لمجرد سماع صوتها، حتى أنّه شعر بألم خفيف بصدره! أكان القلب الخافق حينها قلبه أم قلب خالد!

أكيد لا أحد يستطيع أن يتنبأ بالإجابة عن سؤال تبدو الإجابة عنه ضربًا من الخيال العلمي، لكن ربّما مع الوقت سنحصل على الإجابة، وربما لن نحصل عليها أبدًا .

صباح يوم اللقاء 10.00 صباحًا..

طلب من خدمة الاستقبال أن يطلبوا له سيارة تاكسي. لم ينم من ليلة البارحة إلا ساعتين تقريبًا، كان طوال الليل مستيقظًا يحاول رسم أو ترجمة ما يوحي له به قلبه، لم ينتظر طويلًا حتّى حضرت السيارة بلونها الأبيض، من نوع فيرنا..

- Welcom يا باشا؟

- مقهى الحرافيش، من فضلك..

-بتتكلم عربي! طب سياحة على ما أظن يا خواجة؟

- ما معنى خواجة؟

- يعني حلو مثلك ههه، أقترح عليك، زيارة الأهرام، المنظر يجنّن هناك!

كأنه يُحاول أن يقنعه بتغيير وجهته..

-لا شكرًا، مقهى الحرافيش من فضلك، وبسرعة إذا سمحت..

-المكان هناك زحمه أوي، لكن لا بأس..

سار به حتى أوصله المكان بالضبط..

-الباب اللي أمام حضرتك هو باب المقهى..

نزل مبتسمًا، منشرحَ القلب، ليعود فيُداعب ذلك السائق المرح..

-شكرًا جزيلًا يا خواجة ههه..

قهقه السائق من خفّة ظل زبونه ليلفظ بصوت خافت..

-يا ابن الّذينَ..

راح ألفونسو يمدّ يده إلى جيبه يُخرج بعض الجنيهات ليعطيها للسائق الذي فرح بعددها ..

-تفضل..

-مارسي يا باشا، الله ينوّر..

ضحك الفونسو من عفوية الرجل في الكلام، ليغيب لثواني يحلم بخياله..

-أخيرًا سوف أرى أرملة خالد!

دخل المقهى..

مكان بطابع ثقافي تقليدي خالص، بديكورات مميّزة، صغير المساحة نوعًا ما، الجو هادئ ومريح بنكهة الشيشة والمعسّل، أخذ مكانًا وجلس ينتظر نادية، لم يتأخر النادل ليحضر..

-أهلًا بحضرتك، تشرب إيه يا فندم؟

-أشرب شاي..

بعد لحظات أحضر له صينية نحاسية تقليدية صغيرة، عليها إبريق شاي صغير أزرق اللون، وفنجان صغير ورحل، فجأة دخلت نادية مبتسمة ابتسامة خفيفة، تحمل حقيبة يدٍ رماديةٍ تناسب هندامها العصري، لكن ما أن سلّمت عليه حتى شعر تغير ت ملامحه، بالكاد يحبس دموعه..

-آسف سيدة نادية، أظنّ المكان به تردد موجات من الزمن قد نقلتني بعيدًا فحركت مشاعري، أرجو ألا أكون قد أزعجتك!

أخذت نفسًا طويلًا لترد عليه..

-لا لم تزعجني أبدًا، الحقيقة أنّي تذكرت المرحوم خالد، فطالما كنّا نأتي هنا هربًا من ازدحام المدينة لتناول بعض الشاي..

لكن الحقيقة أنّ ذكريات خالد حضرت لكن بشكل مغاير لما قالته، لأنّ مشهد ذلك المنام، هو من حضر بذاكرتها يردّد عليها تلك الوصية «سأسافر بعيدًا عنكِ حبيبتي، أبقي على قلبي بجانبك لا تغادريه»!

فجأة شعر ألفونسو بنقر بصدره، انتبهت له نادية..

-ما بك سيد ألفونسو، أبك ألمٌ ما؟

-ليس بالضبط لكن أظن أنّ قلب زوجك شعر بوجودك ههه!

-أراك واسع الخيال سيد ألفونسو!

-نادني فيصل من فضلك، هو اسمي الحقيقي!

-لم أفهم!

- لي أصول عربية كما هو واضح من ملامحي، أمّا اسم ألفونسو فقد أعطته لي السيّدة التي ربتني..

شعرت بشيء يدفعها في أن تطلبت منه أن يحكي لها عن حياته، يجرّها شيء خفي لتتعرّف عليه أكثر، لم تكن تدري ما هو لكنّها فعلت.

حكى لها ما كان من ماضيه بشيء من الحزن والألم، لكنّه أصرّ أن يبوح لها بشيء إضافي ومختلف..

-هل تسمحين لي سيدتي، أن أبوح لك بشيء؟!

-أكيد تفضل سيد ألفونسو، عفوًا سيد فيصل..

-يراودني إحساس غريب تجاهك، وكأنّي أعرفك من قبل! ربّما هو قلب زوجك من يوحي لي بذلك!

-أتعتقد وتؤمن بذلك!

-لا أدري! ولا أستطيع الجزم بذلك، لكن أشعر أنّي وهذا القلب، عالمين مختلفين، يتعايشان بسلام بجسد واحد، لحد الآن طبعًا!

أي قدر هذا الذي يربط الخيوط ببعضها! يُرهن الميّت بالحيّ والماضي بالحاضر! يُوحي لحمراء غرناطة أن تغري أبو الهول!

رجع عائدًا إلى بلده بعد ذلك اللقاء القصير -كان قد قرّر نسيان اسم ألفونسو تمامًا- بنوع من الأمل،شعر براحة غريبة لم يستطع تحديد منبعها! بعض المرّات تغيب عنه ذاكرة -صديقه المزعوم-

وكأنّه يريد أن ينفرد بذاكرته -القصيرة- ولو للحظات، لكنّه يعود مُجبرًا ليجتمع بها، خاصة حين اتّصل بطبيبه يطلعه على آخر الأخبار.

-كيف كان اللقاء هناك سيد ألفونسو؟ من لاقيت من أهل المتبرع؟

-قد التقيت بزوجة المتبرع، كانت جدّ متفهمة وطيبة..

-بماذا شعرت لأوّل وهلة عند رؤيتها؟

-لا أدري! لا أستطيع تحديد الكلمة بالضبط، لكن ضربات قلبي تسارعت حينها، كاد يقفز من بين أضلعي..

-جميل جدًا، تطورٌ مذهلٌ حقًا! لأوّل مرّة تستعمل كلمة قلبي وليس عبارة -قلب خالد- كما كنت تفعل من قبل!

استقام في جلسته ليوضح أمرًا..

-مرّات عدّة، أشعر بحضور هالة خالد بداخلي، خاصّة حين يتسارع نبضي، وقد حصل هذا حين رأيت السيدة نادية! لأوّل مرّة أتلذذ بشيء يسري في كامل جسمي، يُوصل لباقي أعضائي تصوراتي الذهنية الدافئة والمتموّجة كصعق كهربائي، يعطيني الكثير من القشعريرة!

-هو بالضبط ما يسمى بالحب..

-فعلًا !

-أجل، سيد فيصل..

-لكن الحب عند من؟ أنا أم خالد؟

-أظنك أنت، فخالد حسب علمي قد عرف الحب من قبل، أمّا حضرتك فليس بعد.

كانت تلك الحالة بالنسبة لفيصل أوّل كل شيء عنده، الحياة، الحب، الفرحة، لكنّ الهاجس الذي كان يُطارده طيلة رحلة عودته، هو من كان صاحب ذلك الشعور؟! لم يكن الطبيب باستطاعته

إعطائه جوابًا مقنعًا ومانعًا لحالة التردد التي كان يظهرُ بها، لكن نصحه بالاقتراب أكثر من نادية، قد يفده ذلك في تلاحمه مع قلبه، لكن حذّره بتوخي الحذر، وإقامة مسافة آمان بينه وبينها، ليستطيع العودة لذاته، إن لا قدر الله فشل في الاقتراب منها.

ازداد تواصُلهما مع الوقت، صار يأخذ حيزًا مهما من حياتهما، لتتكرر أحاديثهما على شبكات التواصل الاجتماعي، لكن دون أن تأخذ أي شكل عاطفي، فقد كانت نادية غارقة في ذكريات زوجها، لم تعد حياتها تخرج عن دائرة العمل وزيارة أهلها من حين لآخر، تعيش عدوى الوحدة القاتلة، تمامًا كما كان يعيشها خالد حين كان بعيدًا عنها، ليصمّم فيصل بعد مدّة مصارحة طبيبه بقرار جد مهم..

-أريد طلب يد نادية للزواج!

-خطوة جيدة، أشجعك عليها إن كنت فعلًا مقتنع بها!

وكأنّه يُحرّضه على المضي قدمًا، ربّما ليستفز حالته أكثر، فتظهر نتائج جديدة يملئ بها ملف تجربته. فجأة شعر فيصل بألم برأسه..

-ما بك سيد فيصل؟

-ألم يعاودني كل شهر مرّة، جهة رأسي!

-أظنّني أعرف السبب، بما أنّك تبدي بعض الأعراض التي توحي ارتباطك بذاكرة قلب خالد، فمن المحتمل تبعًا، أنّ نفس

تلك الذاكرة ما تزال تحتفظ بمشهد الحادث المأساوي الذي وقع لصاحبها الأوّل، والذي أصيب -كما تعلم- بصدمة على رأسه، فترسل تلك المعلومات لدماغك، الذي يحولها على شكل ألم أو صداع، ليتم فهم لغز تلك المعلومات، لحين تختفي مع الوقت.

بعد أيام سافر إلى القاهرة مجددًا، يأمل في أن توافق على طلبه! اعتذرت والدته على السفر معه بحجة طول الرّحلة المتعبة، لكنّها دعت له بالتوفيق، ليصل أخيرًا مهاتفًا نادية ضاربًا لها موعدًا بنفس المكان السابق ..

-أهلًا بك سيد فيصل، أراك أحببت الجو هنا هههه..

كانت تحاول أن تداري شوقها لنبض زوجها، لكن عينيها فضحتها..

-أكيد، فالمكان هنا مذهل حقًا، لكن ليس هذا ما أتى بي..

-خيرًا إذًا؟!

-أتيت طالبًا يدك للزواج! أنا أحبك يا نادية.

كانت مفاجأة من العيار الثقيل! كيف لهذا الغرناطي أن يطلب يدها وهي ليست من الجميلات فيعشقها، أو ذات مال فيطمع فيها! هنا فقط تأكّدت أن من يجر هذ الرجل إلى هذا المصير ما هو إّلا قلب ذلك الصعيدي الذي رحل عنها بعيدًا، لربما يحاول العودة من

خلاله، قد بات واضح أنّه يؤثّر عليه! تذكرت كلمات وصيته وقراره العودة لأحضانها بعد الذي لاقاه بنيويورك، إضافة لتلك الرؤية التي رأتها يوم وفاته! غابت بفكرها بعيدًا حتى لمس فيصل يدها يحاول التقرب منها لترجع من تلك الغيبوبة القصيرة.

أبعدت يديها بحركة لا إرادية لتردّ عليه..

- الحقيقة لا أنكر أنّك شاب تحلم به أية امرأة، وسيم وطيّب ومثقف، حتى أنّ لك حنان يشبه قلبك، لكن ليكن في علمك، خالد الذي أفتقده، لم ولن يغادرني، ولا أظنك تقبل على نفسك هكذا وضع!

-بلى أقبل، لا مشكلة عندي، المهم أن تكوني بجنبي، وأعدك أن أكون نعم الزّوج لك..

-أقبل لكن بشرط واحد!

-وما شرطك؟

-أن نزور أمّ خالد!

كان الطلب بالنسبة له غريب جدًا، لم يستوعبه، طلب منها أن توضح مغزى شرطها..

- هو شرطي الوحيد، وأكيد سوف تفهم السبب حين نزورها سويًا!

الطريق إلى قرية تونس..

صاد صمت طوال، كل واحد منهُما سارحًا بفكره يجُول به الماضي والحاضر معًا، كانت قيادة فيصل لسيارة نادية جنونية بعض الشيء، كأنّه يريد أن يصل بسرعة لينتهي من لغز الزيارة، حتى وصلا أخيرًا أمام ذلك الفناء الذي كثيرًا ما كان خالد يجالس فيه أمّه، تداعب شعره، تعايره بالصعيدي المجعد، فيقهقه حتى تظهر منه الضرس الثالث[1].

أقبلت نادية تريد دقّ الباب، فإذا بفيصل يمسك يدها يمنعها ذلك..

-ما بك يا فيصل؟ لما منعتني؟!

-لا أدري، لكن قلبي ينبض، بل يهرول يريد أن يخترق جلدي، أرى يدي تهتزّ، تتلهّف لدقّ الباب! لا أدري لِما!

- دقّه إذًا، ليس من اللائق أن نبقى أمامه ننتظر! نحن هنا بالأرياف لا بالمدينة..

كانت يده بدأت ترتجف وحلقه تجفّ، لكنّه تشجع ودقّ أخيرًا، ثمّ تراجع خطوات إلى الخلف! بقيت تُراقبه مُستغربة من ردود أفعاله وتغير مزاجه فجأة! استبطأت الفتح، فراحت تدقّه بدورها، فجأة فتح ذلك الباب، لتخرج أم خالد بعد سماعها ذلك القرع المتكرّر،

(1) أو ما يسمى ضرس العقل.

تصحب كرسيها المتحرك، تستعجله الوثوب أمام البيت، كأنها تبحث عن الطارق، رغم مثول الاثنين أمامها..

-من دقّ بابي؟

تعجّبت نادية لردّة فعلها لكنّها ردّت..

-أنا من دقّه يا خالة، هلّا رحّبتِ بنا!

لتعود أمّ خالد، مصمّمة عازمة لتضيف..

-لا، لست أنتِ، قد طردتّك فعدتِ..

ازداد تعجّبهما، سكنتهُما الحيرة في ما تريد الخالة من معرفتها للطارق!

لتعيد فتكرر سؤالها بعصبية هذه المرّة..

-أقصد من دقّ بابي منكما أوّل مرّة ؟

قرّر فيصل أن يُنهي تلك المهزلة -من وجهة نظره- ليردّ عليها بنفسه..

-أنا يا أمّ خالد.

لم تصدقه، فأجهشت بالبكاء، ثم قامت برمي نفسها من على كرسيها، لتقع أرضًا تحاول جاهدة الوقوق على ركبتيها تجرّهما جرًّا إلى الأمام، تجول بوجهها يمنة ثمّ يسرة، كأنّها تبحث عن شيء ما أو

شخص ما، ليقوما بحملها وإعادتها على كرسيها ثانية، فيدخلونها بيتها تحت صراخها الشديد.

-أين ولدي خالد؟

كان ذلك الموقف مُحرجًا ومحزنًا جدًا لنادية، لم يكن أمامها إلَا محاولة تذكيرها، أن ابنها مات من فترة، وقد دفن هنا بمقبرة هذه القرية، كان فيصل بجانبها، هو كذلك على غير ما يرام، ممّا جعل نادية تمسك بيده تحاول مساعدته، لتعود الخالة تشحنُ المشهد من جديد ..

-أنتِ تكذبين يا نادية! أشعر بوجود ولدي قربي، وقلب الأمّ لا يخطئ أبدأ، فكفّي عن ثرثرتك الرخيصة..

-أؤكد لك ذلك يا خالة!

بقي يراقب شحنائهنّ مُصفرّ الوجه، كأنّ حُمّى أصابته، فجأة استدارت إليه صاحبة البيت تسأله..

-من علّمك قرع الباب بتلك الطريقة؟!

لم يفهم معنى سؤالها، لكنّه أجاب ..

-لا أحد، آسف إن كنت شددت على الباب فأزعجتك!

كانت دقّات قلبه تتسارع، ليشعر فجأة بألم اضطّره لزمّ رأسه بكفي يديه، لتسارع نادية فتسند طوله..

-ما بك يا فيصل هل أنت بخير؟!

لم تفهم الخالة ما يدور حولها، لكنّها سارعت بكرسيها المتحرك لتحضر له بعض الماء لكي يستعيد عافيته. أُدخل بعدها غرفة الضيوف ليرتاح، فراحت تسألها عنه..

-من يكون مرافقك الغريب هذا؟

تردّدت للحظة قبل أن تجيب..

-إنّه الشّخص الذي تبرعت له بقلب ابنك ..

كانت مفاجأة مذهلة بالنسبة لها، جعلتها تغادر تلك العاصفة التي كانت تحرّك عصبيتها، لتعود هادئة فتبوح له أخيرًا..

-إذا أنت من يحمل بين ضلوعه قلب ولدي؟! دقُّكَ للباب فضَحَكَ عندي!

تقرّبت منه واحتضنته بشدّة، حتى أجهش بالبكاء كطفل صغير!

إنّه فعلًا لقاء الأم بقلب ولدها، الذي لم تصدق يومًا خبر موته! كان إحساسها يُلهمها دائمًا أنّه راجع يومًا ما، وها قد رجع بوجه آخر!

لتضيف مبتسمة موجّهة كلامها لنادية..

-إن هذا الفتى يحوي معظم ولدي..

جلس الجميع بعد ذلك التبادل الروحي وتجلّي قلب خالد بالمكان، لتعود أمّ خالد لتتصالح مع نادية، استغلت هذه الأخيرة الفرصة لتعلن لخالتها طلب فيصل الزواج منها، فرحت كثيرًا بالخبر

وباركتهما بزغرودة مدوّية، كأنّها تزفها لابنها مرّة ثانية، فجأة دخل عليهم محمّد بوجه عبوس ..

-أهلًا يا ولدي، حيّ ضيوفك!

قام له فيصل يريد مصافحته، لكنّه أشاح بوجهه عنه، بقي فيصل ينظر إليه بابتسامة عريضة، لتنطق نادية..

-نحن ضيوفك يا ابن الخالة، وهذا الشخص هو من يحمل قلب أخيك خالد، إذا كنت ما تزال تتذكّر أخاك!

-لا أريد أن أتذكر أي شخص!

تقدم منه فيصل يهمس له..

- كان يحبك..

استدار بوجهه العبوس ليرد عليه..

-وما أدراك أنت أيّها الغريب؟!

-قلب أخاك من همس، يخبر عن حبّه واشتياقه لك! أنا أكيد غريب عنك ولا أعرفك، لكن قلبي يرتجف منّي يريد ضمّك إليه!

لتضيف نادية قولًا آخر..

-خذ هذه الكلمات، قد تركها لك خالد، وهذا تنازل منه عن حقه في البيت لصالحك، مسجّل وموثق بأيام قليلة قبل نهاية زيارته الأخيرة لي، تفضّل اقرأ بنفسك ما كتب..

«أخي الغالي محَمّد، أكيد وأنت تقرأ هاته الكلمات قد وصلك تنازلي عن حقي بالبيت العائلي، لأبرهن لك أن حبّي لك، أكبر من مجرّد سقف قد فرّق بيننا سنوات طويلة، الحبّ يا أخي لا يموت بموتنا ولا هو بأيدينا نهديه لمن نشاء، بل هو زرعٌ وذاكرة تُسقيهِ».

فجأة أجهش بالبكاء ليصرخ كالمجنون ..

-أين أخي؟ أريدُ عزوةً لا سقفُ بيتٍ!

سقط مرّة واحدة على الأرض مغميًا عليه، نقله فيصل على الفور إلى أقرب مستشفى، أصابه انهيارٌ عصبيٌ، لكن بعد أيام شفي وعاد لبيته، ليسافر الجميع إلى القاهرة، لإتمام عقد قران فيصل على نادية، بحضور الخالة التي كانت سعيدة بإحساسها عودة قلب ابنها للحياة من جديد.

الفصل السادس عشر

أخيرًا اجتمعا تحت سقف واحد، كان الخجل سيد الموقف، طلبت منه أن يطفئ الضوء، في ظل وجود حفل الشموع هذا، دنا منها، كانت تبدو متوتّرة بعض الشيء، لكن شبه الظلمة تلك، شجّعت فيصل في أن يقترب منها أكثر، كانت ليلة غاب فيها طيف خالد. لكن الأمر لم يكن مشابهًا في بقية الليالي، حيث بدأ فيصل يتحاشاها، يرجع ذلك تارة للتعب وتارة أخرى للألم، فضّلت عدم تضخيم الأمر، بل حاولت تفهّمَ حالته النفسية قدرَ المستطاع، كانت مدّة زيارته قد انتهت، ليغادر راجعًا غرناطة، تستقبله أمّه سعيدة جدًا، لا تسعها الفرحة وهي ترى ابنها تزوّج وعرف الحبّ أخيرًا..

-أخيرًا فعلتها يا بني يا ألفونسو!

-أمي من فضلك، نادني بفيصل!

-وهل الاسم يُغيّر منك شيئًا؟!

-أكيد لا، لكن صرت أرتاح لهذا ويثقل علي ذاك..

-لا بأس بني، المهمّ أن تكون مُرتاح البال، لكن قلّ لي كيف كانت أمورك هناك؟

لم يرد قصّ كل ما حصل له هناك، بل فضّل أن يُطمئنها لكي لا ينشغل بالها، استأذنها في الخروج، ليلتقي بيدرو، كانت نادية قد مدّته برقمه ليتعرّف عليه.

-شكرًا سيد بيدرو لتلبّيتك دعوتي..

-عفوًا سيد ألفونسو، أنا في خدمتك..

-حسنا، لنترك الرّسميات جانبًا، أريدك صديقًا كما كنت للمتوفّي خالد، إذا كان ذلك لا يزعجك طبعًا!

-صداقتك شرف لي..

-أريدك كذلك، أن ترافقني لمنزل طليقة خالد وابنته، لأتعرّف عليهما..

-حسنًا، يُسعدني فعل ذلك.

كان لقاؤهما لساعة تقريبًا، حكى فيها ألفونسو عن حياته وزواجه من نادية ولقائه بأمّ خالد وأخاه..

-مبروك صديقي، قد أحسنت الاختيار..

فجأة شعر بنفس الصّداع الفظيع الذي يتكرّر معه كل مرّة، بدأ يئنُّ بشدّة، لدرجة جعلت كل كان قريب منهم يجتمع حولهم، لكن بعض مرور بضعة دقائق ذهب ذلك الألم الفظيع..

-أرجو أن تكون بخير الآن! قد قلقت عليك صديقي!

-لا تقلق، هي حالة تأتيني مرّة في الشهر، في نفس اليوم ونفس التوقيت من النهار..

رمى بيدرو بعينه لساعته يُدقّق فيها ثم أضاف..

-ألم ترى طبيبًا مختصًّا يصفُ لك دواءً، يُبعد عنك هذا الصّداع الفظيع؟

- لي موعد معه يوم الغد.

رافقه بالفعل حتى أوصله أمام منزل ياسمين وانصرف عائدًا لأشغاله، ليقف أمام بابها، تتزاحم بقلبه الأحاسيس وتتلاحق، فتتدافع بذاكرته، بات يخاف ممّا يشعر به في كل مكان مرّ به طيف خالد، فقد أفسدت عليه تلك الأحاسيس لحظات جميلة كثيرة مع زوجته، لكنّه تشجّع ورنّ الجرس..

خرجت ياسمين لتجد شخصًا غريبًا أمامها..

-من تكون حضرتك؟ وماذا تريد؟!

تسمّر أمامها كالصنم لا ينطق، تكرّر سؤالها له..

- أيّها السيد، من تكون من فضلك؟! وإلّا أغلقت الباب في وجهك!

كان قلبه يخفق بشدّة، شعر بتوهّج حراري يسري في كامل جسمه! قدّم نفسه لها فانهارت لتجهش بالبكاء، لم تستطع تمالك

نفسها لذكر اسم خالد أمامها، استضافته ببيتها تريد معرفة قصّته، سرد لها بعض التفاصيل لكنّه اخفى عنها زواجه من نادية -ربّما رأى أن الوقت لم يكن مناسبًا- لتخرج عليهما الصغيرة فيروز، تجرّ قدميها الصغيرتين بتوازن مهزوز بعض الشيء، بدأ قلبه يهتزّ كمحرك اشتدّ عليه الضغط، تقدّم منها ببطء ملامسًا الأرض بركبتيه، استأذن أمّها في أن يحملها ويسلم عليها، كانت لحظة جمعت بين اللّهفة والتوتّر، في تشكيلة غريبة أبكته رغمًا عنه، لتنتهي الصغيرة بين أحضان من يحمل نبض والدها الراحل.

-المسكينة أكيد تشتاق لوالدها كما يشتاق لها!

-وكيف عرفت ذلك سيد فيصل؟

-قلبي ينبُض بشدّة وما قلبي إلّا قلبه!

لاحظ أن شفتها السفلى ترتجف، لكنّه لم يأبه لها، فتلك علامة لا يعلم سرّها إلّا خالد نفسه، فبعض الأمور تبقى دائمًا غير مباحة مهما حاولنا فكّ لغزها، لكنّه شعر بشيء مماثل كالموقف الذي وقع له مع زوجته، لذا أحسّ بحرج اضطرّه للاستئذان منها ليرحل، قرّر الاتصال بطبيبه لكنّه كان في عطلة ليعود بيته تسكن باله الحيرة والتخبط، تكلّمه أمّه فلا يردّ عليها،تقدم نحو غرفته وأغلق بابه .

كانت لقاءاته بياسمين تتكرر مع الوقت تارة بحجّة رؤية الصغيرة، وتارة يتصنّع الصّدفة، حتى تعلّق بالصغيرة وأمّها معًا، لكنّه تردّد في أن يُصارحها بما يشعر به، رأى ذلك إساءة لزوجته، لم يكن أمامه إلّا طلب رؤية طبيبه لعلّه يجد راحة في البوح له..

-مبروك زواجك سيد فيصل، قد زفّت لي أمّك الخبر السعيد، أتمنّى أنّك وفقت في رحلتك..

-شكرًا جزيلًا، حقيقة قد مرّ كالحلم، في البداية كانت قد اشترطت علي ليتمّ الزواج، أن أزور أمّ خالد لشيء في نفسها!

-هل فعلت ذلك؟

-أكيد فعلت، وإلّا كيف تزوجتها هههه! حين وصلت إلى تلك القرية الساحرة، وذلك الريف الهادئ، أين ولد وتربى خالد، شعرت بإحساس غريب بمجرد أن وضعت قدمي، كأني أعرف المكان! أو كأنّي ولدت به، حتى أنّني حين وقفت على باب الخالة أمّ خالد، ساورني شعور غريب جدًا، لأجد يدي تمتدّ تدقّ بابها، كان طرقي للباب مميّزًا، لم أعتده في حياتي، وحين فتحت الباب، شعرت لحظتها وكأنّي أعود لتوّي من سفر وغياب طويل، تملّكتني لهفة لضمّها، لكن رؤيتي لها -وهي على تلك الحالة كأنّها تبحث عن شخص ضيّعته منذ زمن- منعني عنها، خوفًا من ردّة فعلها، مسكت نفسي عن البكاء، كنت أعيش نِزاعًا بداخلي كاد يذهب بعقلي.

أعاد عليه كامل الأحداث بتفاصيلها حتى وصل لنادية يوصف حالها..

-أحسستها تائهة، نعم هي زوجة رائعة، لكن شعورها الخفي بوجود خالد بيننا كان يُكدّر مزاجي ومزاجها!

-أظنّ أنّ حالتها تلك، تحتاج لرعاية نفسية مكثّفة، لكن قلّ لي، ماذا قررت أن تفعل لتجتمعا وتستقر معها هنا؟

-هناك شيء آخر يفسد علي سعادتي معها!

بدا اكتئابه أشدّ وقعًا من المرّات الماضية، لدرجة أن وجهه كان يوحي بفشل ما! ليكمل بوحه..

-كانت ليلة الدخلة رائعة جدًا، لكن بداية من الليلة الموالية، حصل ما لم أكن أتوقعه!

-ماذا وقع؟

-حالَ قلبي بيني وبينها!

-كيف؟ لم أفهم!

-خلال لقائنا الحميمي مع الليلة الثانية، حَضرتْني خَيالاتِ حميمية تجمعها بخالد، حاولتُ أن أقاومها لكنّي فشلت، وقد تكرّر المشهد معي في بقية الأيام، ممّا منعني من معاشرتها!

-من ناحية الدراسة فالنتيجة جيدة، لكن بالنسبة لك أتفهّم أنّها وضعية غير مريحة على الإطلاق!

-هناك شيء آخر..

-تفضل لا تخجل، حاول أن تفضفض وتخرج ما عندك..

-أنا في وضعية لا أحسد عليها أبدًا!

-وضّح؟!

-كنت قد زرت طليقة خالد وابنتها الصغيرة منذ فترة، وقد تكرّرت اللقاءات صدفة وبغير صدفة، لأجد نفسي قد تعلقت بهما بشكل غير مفهوم؟

-وضح أكثر، ما نوع التعلّق؟

- إحساسٌ يُشبه الحبّ، لكنّه يختلف عن حبّي لزوجتي!

-أظنّك تعيش بشكل أو بآخر، نفس ما كان يحياه ويُعاني منه المتوفّي خالد! فهي كما تعلم ابنة عمّه أوّلًا، ثمّ حبّه الأول ثانيًا، ولربّما ذاكرة قلبك تعمل على إعادة تلك الأحاسيس، دون أن تكون قد عشت القصّة، أو ربّما في الأخير كذلك، يبقى مجرّد تخيّل صنعه خيالك فصدّقته! لا أستطيع أن أجزم لك بشيء بعد.

كان ذلك الكلام قد جعل فيصل، يشُكّ في حالته النفسية والعقلية معًا..

-وما الحل في هذا التخبّط إذًا؟

-لا شيء عش، حياتك طبيعيًا، أنت من يُقرّر من تحبّ ومن تكره! أنا هنا لأصغي لك وأوجّهك بعض المرّات، عندما يستدعي الأمر ذلك.

لم يقنعه ذلك التعليق، فبدأ صوته يعلو بعصبية واضحة، اضطر الطبيب إلى حقنه بمهدئ، ليخفّف عنه وطأة الكآبة التي يمرّ بها، لم يكن يتوقع أن تصل الأمور لهذ الحد! كان ذلك بالنسبة لدراسته للحالة يعتبر اكتشافًا مُهمًّا، وتجربة تستحق الاهتمام، لكن المشكل الأكبر الذي رأى أنّه يحُدّ نوعًا ما من فعالية البحث، هو الحالة النفسية السيّئة لفيصل وكيف سوف يتعامل مع المشهد القادم ككل؟! لذا قرّر وضعه تحت المتابعة الطبية بمصحة الأمراض النفسية والعصبية التي يُديرها، لكي يتمكّن من السّيطرة على حالته، لمنع أي مضاعفات نفسية طارئة قد تفشل عملية الزرع برمّتها.

بعد مرور ثلاثة أسابيع أُخرج من المصحّة أقلّ اكتئابًا، كان تواصله بزوجته نادية قد انقطع طيلة فترة استشفائه..

-تفضل سيد فيصل اجلس، قد تحسنت حالتك النفسية كثيرًا، وهذا ما جعلني أقرّر خروجك من هنا، بماذا تشعر الآن؟!

- أحسن بكثير..

-ممتاز إذًا، تستطيع العودة لحياتك الطبيعية من الآن..

-لكن مشكلتي مع زوجتي ما زالت قائمة!

-وما يدريك، لربّما قد ذهبت تلك الخيالات من رأسك! والأهمّ من ذلك أنّ أمر زوجتك، يخصُّك وحدك، أنت صاحب القرار فيه وفي حياتك كلّها، نحن هنا لمُرافقتك ومُساعدتك إن أمكن..

خرج من عنده تائها لا يعرف ماذا يفعل ولا كيف يتصرف، أصبح لا يعيش اللحظة والحاضر، فكان كل يوم تنسحب منه طاقة يفقد بها إحساسه بالسعادة، والوقت لا ينتظره بل يمرّ هرولةً، قرّر التواصل بزوجته لمعرفة أخبارها والاعتذار منها..

-أخيرًا تنازلت، وتكرّمت علي بالاتصال!

-آسف غاليتي، كنتُ بالمصحّة!

اهتزّ صوتها ..

-لكن لماذا لم تخبرني؟ ألست زوجتك؟!

أجهشَت بالبكاء، كان يبدو من خلال صوت بكائها أنّها تعاني، إمّا من الوحدة أو الاشتياق أو من المشهد ككل..

-آسفة زوجي الغالي، أشعر بمعاناتك لكنّي أنا كذلك أعاني ولو بشكل آخر..

-كيف لم أفهم؟!

-أنا حامل..

كان وقعُ الخبر مفاجئة لم يكن ينتظرها أبدًا، لدرجة أنّه قطع الاتصال معها ليصرخ..

-ما هذا يا الله؟ ما الذي يحصل؟ لم أعد أفهم شيئًا البتّة!

جاءت أمّه تجري مُسرعة، بعد أن وصلها صُراخه..

-ما بك بنيّ؟ أيؤلمك شيء؟ أأطلب لك الإسعاف؟!

-لم أعد أطيق تدابير الحياة يا أمّي!

-ما بك فضفض لي يا بنيّ، لربّما أساعدك..

-نادية حامل!

-مبروك بنيّ، خبرٌ كهذا يُفرحك لا يحزنك!

-أعرف هذا، لكنّي على غير ما يرام، قلبي يُتعبني يا أمّي!

-الربّ سوف يساعدك بنيّ،لا تقلق، أنصحك بالعودة لطبيبك لربّما يخفف عنك هذا.

ذهب مباشرة لمقابلة طبيبه يخبره..

-أهلًا فيصل، صوتك على الهاتف كان يوحي بأمر جلل! ما الأمر؟!

-زوجتي حامل!

-ألف مبروك إذًا!

-لكن حالتي تسوء كل يوم، وحيرتي تزداد معها!

-كيف؟!

-أرى نفسي بين امرأتين! معلّق بينهما، أحببتُهما كما لم أحبّ في حياتي، لكنّي لا أعرف إن كنت أنا فعلًا من يحبّ أم هي ذاكرة قلب خالد!

-أراك عُدت لاستعمال العبارة القديمة..

- القلب الذي جعلني أحبّ الاثنتان، هو نفسه الذي يمنعني عنهما بذاكرته التي عادت مملّة، قد بتّ أخاف من مفاجآتها!

-قد فاتكَ شيء مهمٌ سيد فيصل، أنت ما تزال في العام الأول، منذ إجراءك لعملية زراعة القلب، ولعلمك أنّ أغلب من قاموا بهذه العملية يُعانون دائمًا في عامهم الأوّل، من التوتّر والقلق وحتى من الاكتئاب، إذًا في الأخير حالتك ليست استثناء! بل طبيعية جد، فقط حاول أن تساعد نفسك لتخرج من هذه الحالة، خاصّة وأنّك سوف تصبح أبًا عمّا قريب، وربّما يغير هذا من حياتك إلى الأفضل، كن متفائلًا بعض الشيء لتستطيع الخروج من حيرتك.

كان كلامه هذه المرّة، قد هدأ نوعًا ما من روع فيصل، ليقّرر القيام بزيارة مفاجأة لزوجته، وليثبت لها حبّه وحسن نيّته، قام بدفع ملف الضّم العائلي في ذلك اليوم، ليذهب بعدها للقاء صديقه بيدرو ..

– أين كنت مختفيًا يا صديقي كل هذه المدّة؟ وما أخبار صُداعك المزمن؟!

–آسف كنت بالمصحّة، لم أكن في حالة جيّدة، أمّا أمر الصداع، فقد شرح لي طبيبي النفسي، أنّ الألم ليس لسبب عضوي، بل نفسيّ بحت، مرتبط بقلبي، بالمختصر، لكي لا أطيل عليك، إنّ ذاكرة هذا القلب الذي زُرع لي، تقوم بإعادة وإحياء ذكرى نفس لحظة الصدمة التي تلقاها صاحبها الأول، في نفس اليوم من كل شهر وبنفس التوقيت بالضبط، لكنّه طمئنني بأنّ هذه الأعراض ستختفي في غضون عام على أكثر تقدير.

–ممتازٌ إذًا، لكنّي أحسُّك مرتبكًا بعض الشيء! رغم أنّك منذ ثوانٍ قليلة كنت تعانق الفرح!

–لا أبدًا، لكنّي اشتقت للصغيرة فيروز!

–للصغيرة أم لأمّها هههه! على كل حال، تستطيع رؤيتها أين المانع؟

- ليس هناك مانع طبعًا، سأذهب لرؤيتهما، وسأقترح عليها الخروج للفسحة يوم الغد، بما أنّي سأسافر الأسبوع القادم إلى القاهرة لزيارة زوجتي، فهي حامل..

شرد بيدرو للحظات وكأنّ باله مشغول بشيء ما، حتى هزّ كتفه ..

-أين شردت صديقي؟ أم أنّك مغرمٌ ولم تخبرني ههه..

-آسف يا صديقي، هي فقط بعض الأمور ما يشغلني، ألف مبروك لحمل زوجتك، لكن لما لا تترك يوم الفسحة مع السيدة ياسمين وطفلتها، لِما بعد الغد؟!

- لكن لماذا بعد الغد وليس غدًا؟!

-أتريد حرماني من رؤية الصغيرة أيّها الأناني! غدًا لي موعد يمنعني من مرافقتكم، لذا اقترح عليك بعد الغد، لنمضي السهرة معًا، سوف تكون عَزُومة المساء التفاتة منّي، احتفاءً بحمل زوجتك، ما رأيك؟

-حسنًا، أشكرك بيدرو، أنت فعلًا صديق رائع.

الفصل السابع عشر

يوم الفسحة..

يوم مشمس ورائع، كانت ياسمين قد قبلت العّزومة لكي يمضي فيصل بعض الأوقات مع ابنتها، لكنّها طلبت منه أن يترك لها اختيار المكان فلم يُمانع..

-اختيار موفّق سيدة ياسمين، منظر بانورامي رائع، خاصّة منظر قصر الحمراء هناك!

نعم هو نفسهُ المكان الذي جمعها بخالد في أول لقاء لهما بمطلّ سان نيكولاس ذات مساء، ذلك المكان الساحر، ربّما الحنين إلى الماضي ما جعلها تختار هذا المكان المليء بالذكريات! وربّما شعورها كذلك بتواجد قلب خالد بقربها ليشاركها عبق المكان، كان فيصل لا يملّ من مداعبة طفلتها، لكنّه لم يغفل لحظة عن أمّها..

-أظنّ المكان يمثل لك ذكرى ابن عمّك؟!

صمتت للحظة لتجيبه..

-لا، أبدًا، بل مجرّد مكان أحبّ النزول به لأنه رائع كما ترى..

-أخبرك بسرّ إذا، كلّ الأماكن التي زارها خالد من قبل أشعر بها، بجمالها وبقباحتها، لكن بشرط أن يحضر الطرف الآخر ليرسم لي ذلك الإحساس، والدّليل أنّي لم أجلس هاته الجلسة في حياتي، لكن تفاعلَ وُجداني مع سحر المكان -في وجُودك- يؤكّد لي تواجدكما في نفس المكان، في ذكرى صارت من الماضي..

فاجأها حديثه!

استأذنها في أن يُهاتف بيدرو، ليأتي لرؤية الصغيرة كما كان متّفقًا عليه..

-أهلًا صديقي، نحن بمطل سان نيكولاس، ننتظرك..

تأسّف له بيدرو لعدم قدرته الالتحاق بهم لظرف طارئ، وعده بلقاء آخر بعد عودته من سفره..

- قد اعتذر..

صاد صمت طويل، عادت وارتجفت منها شفتها السفلى فخجلت، استأذنته في أن تغيب للحظة تغتسل ثمّ تعود، الحقيقة أنّ المكان كان مزدحمًا جدًا، لكن ذلك لا يمنع من استحضار جمال المكان وروعة مشهد قصر الحمراء، فجأة رنّ هاتفه ..

-ألو. ألو..

-.....

-ردّ من فضلك من المتّصل؟

قطعت المكالمة فجأة، استغربها لكن بعد مُرور لحظات قليلة، عاوده ذلك الصّداع الفظيع للظهور كعادته، حتّى اجتمع من حوله الناس يُحاولون مُساعدته وإسعافه، وفي خضم ذلك رجعت ياسمين لتجد جمعًا من الناس حوله، انتبهت لخلو العربة الصغيرة من ابنتها، راحت تنظر يمنة ويسرة وسط تلك الضجّة، لكنّها لم تجد أثرًا لها، لتصرخ بأعلى صوتها..

-أين ابنتي؟ أين فيروز

اختفت الصغيرة في ظروف غامضة، تمّ الاتصال بالشرطة فورًا، طُوّق المكان في انتظار حضور النائب العام الاستئناف لغرناطة بعدما تمّ إعلامه، كانت ياسمين في حالة هستيرية كاملة، لا تصدّق اختفاء ابنتها بتلك السهولة، لم يكُن يشفي غليلها إلّا هجومها على فيصل حتى تم إبعاده عنها، والذي بقي مذهولًا ممّا حصل بتلك السرعة.

أخيرًا وصل النائب رفقة كاتبه، ليفتح محضرًا دوّن فيه ما شاهده من آثار الواقعة بعد وضع مسافة أمن حول مكان الخطف، تقرّب من ياسمين التي كانت ترتجف وترتعد لأخذ أقوالها، حاول تهدئتها، لكنّها كانت تردّد جملة واحدة فقط..

– هو من خطف ابنتي. هو من فعلها..

كانت تقصد فيصل طبعًا، ليتقدم منه ذلك النائب العام ليأخذ أقواله، كان واضح من ملامحه أنّه مندهش من اتهام ياسمين له، رغم معرفتها حبّه لطفلتها! أخذت بعدها أقوال بعض الحاضرين، ليقرّر بعدها التحفظ على هاتف كل من ياسمين وفيصل. قبض على هذا الأخير على ذمّة التحقيق وأمر رجال الشرطة بمرافقة ياسمين لأقرب مستشفى، نظرًا لحالتها النفسية السيئة.

لم تكن عملية التحقيق الابتدائي بالشيء السهل لغموض ملامح الجريمة، كانت الصحافة المحلية قد بدأت تكتب عن الواقعة التي لم تُفكَ خيوطها بعد، لتصير قضية رأي عام، تضامن فيها الغرناطيون مع الأمّ في محنتها، أُصدر بعدها أمر بتكثيف البحث عن الطفلة المختطفة، ليُقاد فيصل إلى قسم الشرطة، كان يعيش صدمة حقيقية، أصابته بحالة اكتئاب أشدّ وطأة من أي مرّة، لم يستطع المحقّق مواصلة التحقيق معه وهو في تلك الحالة، ليقرّر عرضه على طبيب نفسي محلّف، والذي طلب في تقريره إدخاله مصحّة الأمراض النفسية والعصبية لتتابع حالته عن قرب.

كانت ياسمين لا تزال تحت العناية الطبية، لحين استقرار حالتها النفسية بعد إصابتها بصدمة عصبية حادّة، أكيد لم تتحمل

خطف ابنتها المعاقة، والتي تعاني من عدة صعوبات صحّية، كانت كل غرناطة تعيش تحت الصّدمة، لكن لحد تلك الساعة لم يعثر عليها. كان وجود أم خالد بجانب ياسمين -تلازمت زيارتها العادية لياسمين وحفيدتها عملية الخطف صدفة- يُخفّف من عبء حالتها، لم يعد لأم خالد- من ذكرى ابنها- إلّا حفيدتها المختطفة، كانت تبدي شجاعة وصبرًا كبيران في موقف صعب كهذا. لم ترد إخبار نادية بما حصل خوفًا على وضعيتها الصحّية وهي حامل، لكن بيدرو كان قد أخبرها الجريمة، لتدخل المستشفى تأثرًا لما وقع لزوجها، ولخطف ابنة زوجها وحبيبها الأول -خالد، كانت حالتها تتطلب متابعة طبية مكثّفة لذا أبقوها الأطباء بالمستشفى.

بعد مرور أسبوع بُلّغتْ الشّرطة عن وجود كرتون أمام باب بيت ياسمين، لتحضر فتجد جثّة الصغيرة فيروز بداخله، ليصل على الفور النائب العام يتفقّد الجثّة، قرّر نقلها لقسم الجثث في انتظار تعرّف الأم عليها، للقيام بعملية التشريح.

كان فيصل خلالها منعزلًا بالمصحّة يحاول فهم ما جرى، تارة يكلم نفسه وتارة أخرى يحاور قلبه ..

-ماذا يجري؟

.. أنا لم أفعل شيئًا يا خالد!

.. ألست تشهد معي؟

.. كيف لي أن أخطف من أحبّ!

..ألست معي يا خالد!

.. ألم تكن حاضرًا!

.. أو ربما فعلت كل هذا دون أن أدري!

بدأ يراوده شكّ في قواه العقلية بعد كل الّذي مرّ به! أحسّ أن زراعته لذلك القلب ربّما كان شؤمًا عليه ولعنة سوف تبقى تُطارده لآخر أيّامه.

بدأت ياسمين تتخطّى مرحلة سوء حالتها، لترجع فتسأل عن مصير ابنتها! تتساءل لما فعل فيصل ذلك وقد وثقت فيه! أكيد هو شيء فظيع، الإحساس بكل ذلك الثقل التراجيدي المرّ، كانت أمّ خالد تحاول تهدئتها فتكرر عليها قولها..

-لا تقلقي بنيتي، سوف تحضر العدالة الإلهية قريبًا..

وصلت أخيرًا نتيجة تقرير التشريح الجنائي، بعد تعرّف -أمّ ياسمين على جثّة حفيدتها، بما أنّ حالة ياسمين، لم تكن تسمح بذلك، والذي وضّح أنّ وفاة الصغيرة، كان منذ ما يقارب اليومين، بسبب تدهور حالتها الصحية كونها تتغذى فقط عن طريق آلة مزودّة

بجهاز ضخ سائل مغذّي، مرتبط بأنبوب موصول بمعدتها. المسكينة كانت دائمًا ترفض أي طعام عن طريق الفم، نظرًا لمرضها وإعاقتها..

بعد استكمال البحث وجمع جميع المحاضر وكل ما يتعلق بالقضية، تم تسليم الملف كاملًا إلى قاضي التحقيق مشفوعًا بادعائه بمشاركة السيد ألفونسو في جريمة الخطف والقتل ضد الضحية.

خرجت أخيرًا ياسمين من المستشفى -كانت قد علمت بموت ابنتها- لتجد الصحافة تنتظرها، لكنّها امتنعت عن أي تصريح لتعود إلى بيتها برفقة أمّها وأمّ خالد، طلب سماعها من طرف قاضي التحقيق..

-تفضلي سيدة ياسمين، أقدم تعازينا الخاصة باسمي وباسم كامل شعب غرناطة المتضامن مع محنتك، أعرف أن الأمر ليس بالسهل تخطّيه، لكن من واجبنا إظهار الحقيقة كاملة، لإنصاف المظلوم المتضرر، والحاق الجاني العقوبة التي يستحقها، لذا أريد أن أعرف بعض التفاصيل عن القضية..

حكت له كل التفاصيل التي تخصّ واقعة الجريمة وأجابت على أسئلته، راجية منه أن يحقق ليأخذ العدل مجراه، وأن ينال فيصل أقصى العقوبة! لكنّها طلبت منه طلب غريب..

-أريد من سيادتك أن تبقي جثة ابنتي بمصلحة حفظ الجثث لحين النطق بالحكم على المتّهم..

قبل طلبها خاصة وأنّ الجثّة كان مقررًا لها أن تدفن بالقاهرة، تّم بعدها إحضار المتهم للتحقيق معه في حضور محاميه..

بعد أن أجرى معه التحقيق الإداري، عاد وأحاط علمه بالشبهات القائمة ضده ليبدأ التحقيق معه..

-سيد ألفونسو، التقرير الطبّي الذي أمامي، يقول أنّك قُمت بعملية زرع قلب منذ أشهر، هل صحيح؟

-أجل سيادة القاضي..

-قلب المتبرع هو السيد خالد، والد الطفلة الضحية أليس كذلك؟

-نعم سيادة القاضي..

-ما علاقتك بأمّ الضحية السيدة ياسمين؟

-علاقة عادية..

-كيف ذلك، وقد كنت معها أثناء وقوع الجريمة في مكان عام رفقة الضحية؟!

-ما جمعني بها هو تعلّقي بالطفلة واهتمامي لأمرها..

أجهش بالبكاء، لم يستطع تمالك مشاعره..

-آسف، سيادة القاضي..

-حسنًا، هل اهتمامك بالضحيّة من باب ردّ الجميل مثلًا! بما أن المتبرع لك بالقلب هو والدها؟

-لا بل أشعر بنوع من الحبّ والاشتياق تجاهها، لربّما كوني -كما قلت سيادتك- أحمل قلب والدها..

-هل لك علمٌ أن السيدة ياسمين، هي قريبة وطليقة المتوفي السيد خالد؟

-أجل..

-إذا تحمل لها هي كذلك، بعض ذلك الشعور قياسًا بما تحسّه تجاه ابنتها؟

-لا أعرف..

-تقرير طبيبك النفسي الذي أمامي، يوضّح تخبّط أحاسيسك تجاه كل من عايش المتوفي السيد خالد؟

-كيف لم أفهم؟

-بمعنى أنّك تحب من كان يحب وتكره من كان يكرهه!

-قد حصل هذا في كثير من المرّات، لكني لم أشعر أبدًا بكره لأحد، وقد لمست من خلال تعرّفي على كل من عاشره السيد خالد، مدى حبّهم واحترامهم له وبلا استثناء..

-ماذا تعرف عنه؟

-ليست معرفة بقدر ما هي حياة، أعيشها وأحسّ بكل ما عاشه وعانى منه..

-كيف كانت علاقته بطليقته قبل وفاته، حسب إحساسك ومعرفتك لطليقته؟

-كانت مضطربة..

-بمعنى؟

- حسب ما قيل لي، كانت كثيرًا ما تمنعه عن رؤية ابنته..

-ألا ترى أن هذا يؤكد الشكوك في أنّك خططت لخطف الصغيرة للانتقام من أمّها؟

-لا، لم أفكر في هذا مطلقًا، فمن يحب لا يؤذي أبدًا..

-قل لي هل أنت متزوج؟

-نعم..

-بمن؟

صمت للحظات..

-أرجو أن تجيبني سيد ألفونسو..

-نادني بفيصل سيادة القاضي من فضلك..

-حسنًا، لا بأس في ذلك سيد فيصل، ما دام ذلك يجعلك تجيب على سؤالي!

-بأرملة السيد خالد..

-لماذا هي بالذّات؟

-أحببتها!

-هي أرملة المتوفي السيد خالد على حسب علمي؟

-أجل..

-وما علاقتك بالسيدة أمّ خالد؟

-علاقتي بها جيدة، أحسّها كأمّي تمامًا..

-أتشعر أنّك مريضًا نفسيًا؟

صمت للحظة ثم أجاب..

- هذا الأمر أترك الأطبّاء يجيبونك عليه، لكن ما أودّ قوله لسيادتك أنّه بفضل هذا القلب الذي زرع لي، تعلّمت معنى الحبّ والوفاء والانتماء.

- أثناء تواجدك بمكان الجريمة، وجدنا من خلال قراءتنا لمحتوى هاتفك النقال، أنّك هاتفت السيد بيدرو عشر دقائق قبل وقوع الجريمة! ما علاقتُك بهذا الأخير؟

-هو في الأصل صديق السيد خالد، كان من الطبيعي أن أتعرف عليه، وهو إنسان جيّد..

-ما كانت طبيعة المحادثة؟

-كنّا على موعد بنفس المكان، ليحضر معي لقائي بالسيدة ياسمين لرؤية ابنة صديقه، لكنّه اعتذر على الحضور لأمرٍ طارئ..

-وما سر المكالمة الهاتفية التي تلقّيتها، تقريبًا خمس دقائقٍ قبل وقوع الجريمة؟ والتي كانت مدّتها عشر ثوانٍ بالضبط؟!

-فعلًا، تلقيت تلك المكالمة من رقم مجهول، حاولت أن أعرف من المتّصل، لكنّه قطع الاتصال فجأةً، بعدها بثوانِي قليلة شعرت بصداع فظيع، لم أفق من شدّته إلّا وحولي جمع من الناس، كانت من بينهم السيدة ياسمين تصرخ في وجهي بشدّة، تكاد تخنقني بكلتا يديها، تسألني بنرفزة مرعبة عن ابنتها المختفية..

-خلال التحري عنك وتفتيش منزلك، عثر على ملابس طفلة، تبيّن من خلال شهادة السيدة ياسمين، ومن خلال تقرير معمل الجنائي أنّها للضحية! ما قولك في ذلك؟

-ليس لي أدنى فكرة! ربّما هي محاولة لتوريطي في الجريمة!

-من له مصلحةٌ في ذلك؟

-لا أعرف..

-ألا ترى أن كل الأدلّة تدينك! وتحوم حولك وحول المتورطين معك؟

أصر على نفي التهمة تمامًا.

تمّ استدعاء الشّهود ليتم الاستماع لأقوالهم..

أم خالد رفقة المترجم..

-تفضلي سيدة أمّ خالد، أظنك تعرفين السيد ألفونسو أو المدعو فيصل؟

-أجل..

-احكي لي من فضلك، عن علاقتك به وما تعرفين عنه..

-قد زارني ببيتي منذ مدّة، ارتحت له لكونه طيب ويحمل قلب ولدي..

-وعلاقته بالجريمة!

-لا أعرف! لكن إن كان هو من اقترفها، فحتمًا سوف تنال منه العدالة الإلهية العادلة!

-بمعنى؟

بقيت صامتة، يبدو على ملامحها الحزن والتأثّر الشديد! لتغادر المكان. ليأتي دور الشاهد الثاني..

-سيد بيدرو قوماز، ماذا تستطيع أن تقول عن السيد ألفونسو؟ وما علاقتك به؟

– جمعتنا صداقة كوني صديق المتوفي السيد خالد، كان دائمًا ما يحاول أن يتقرب من أهل السيد خالد، تزوج بداية بأرملته، ثمّ بدأ يتقرّب من طليقته السيدة ياسمين ومن ابنتها..

–متى كانت آخر مرّة التقيت به؟

–يوم قبل الحادث، طلب رؤيتي، بدأ يتحدث عن اشتياقه لأبنة خالد، صرّح لي أنّه سوف يذهب لرؤيتها بعد يومين. عرض علي أن التحق به عندما يُحدد المكان، فلم أمانع..

–هل اتصلت به لمعرفة العنوان؟

–لا، هو من اتّصل بي، لكنّي اعتذرت كوني كُنت مشغولًا..

–ألم تشك في نيّته خطف الصغيرة مثلًا؟

–لا أبدًا، رغم أنّه كان مضطربًا نوعًا ما..

–ممّا كان اضطرابه؟

–لا أدري بالضبط! كان مجرّد إحساس حينها..

الفصل الثامن عشر

خرج التحقيق بنتيجة واحدة، هو أن السيد ألفونسو متّهم في جريمة الخطف والقتل ليُحال ملفّه إلى النيابة العامة لتبدي فيه مطالعتها النهائية. ليأمر بنقل المتّهم إلى السجن في انتظار البث في قضيته.

قرار النيابة العامة..

لم يمر أسبوع حتى قرّرت النيابة العامة، بإقامة الدعوى العامة، ورفع الملف للهيئة الاتهامية، بعد أن تبيّن لها أنّ الوقائع والأدلّة كافية لاتهامه، بعد أن أعطت الفعل المُسند إليه وصفًا جنائيًا، وأنّ الدعوى مُكتملة التحقيق، ولا جدوى من التوسع فيها، لتقضي في قرارها بإحالة المتهم على محكمة الجنايات لمحاكمته بما اتّهم به.

طلب المحامي رؤية موكله..

-أكيد قد وصلك صورة من قرار لائحة الاتهام وقائمة بأسماء الشهود..

-نعم، إتهام باطل طبعًا..

-أمتأكد من براءتك سيد ألفونسو؟

- أفضّل اسم فيصل! وأكيد متأكد من براءتي..

-إذًا لا تقلق، سوف أدرس القضية جيدًا، ونرى ما يمكن فعله لتنال البراءة الكاملة..

استوقفه للحظة..

-شيء أخير من فضلك، سلّم هذا الظرف لأمّي، به وصيتي!

-أيمكنني أن أعرف لماذا كتبت وصيتك سيد ألفونسو؟

-لا أعرف، أشعر وأنا في هذه المحنة، أنّي محتاج لكتابتها..

يوم المحاكمة..

اليوم هو موعد جلسة محاكمة المتهم، شوهد وصوله داخل سيارة الترحيلات بزي السجن وسط إجراءات أمنية مشدّدة، محاطًا بعدد من أفراد الأمن. شهدت المدينة غلق جميع الطرق المؤدية للمحكمة، وذلك تجنبًا لحدوث أي عوائق أو مشاكل من طرف الجالية المسلمة المتواجدة بالمدينة، والتي تُنادي بإعدام ألفونسو- رغم أن عقوبة الإعدام لم تعد تطبق بإسبانيا منذ فترة- وبالمقابل تجمهرَ عدد قليل من الغرناطيين، الذين يطالبون بدورهم ببراءته، يبدو أن القضية أخذت منحنى آخر بعيد عن الجريمة، كانت أجواء المدينة تعيش الحدث بين تحدّي الجالية التي تبنت قضية الضحيّة، وتحدّي آخر من بعض الغرناطيين المتعصّبين الذين تبنّوا براءة المتهم ألفونسو بحكم تعاطفهم مع أمّه المسيحية.

كان حضور الجمهور بقاعة المحكمة غفير جدًا ومُلفتٌ للنظر، الصحافة بالخارج تنتظر الحكم في قضية الموسم، قضية تشير فيها أصابع الاتهام، للمتهم ألفونسو بالمشاركة في خطف وقتل طفلة معاقة هو نفسه يحمل في صدره قلب والدها! كان المشهد العام خليط بين السخط والغضب، بين إيمان البعض ببراءته، وإيمان البعض الآخر بجرمه.

10 :00 صباحًا..

مع دقات الساعة المنتظرة من الجميع، بدأت جلسة محاكمة المتّهم والذي أصبح يعرف إعلاميًا بصاحب «القلب الغامض»، كانت ياسمين منهارة تمامًا، ظهرت بلباس أسود يعكس مدى حُزنها على فلذّة كبدها، رفقة أمّ خالد، التي دخلت ممسكة بيدها، توحي بمدى قوة المرأة الريفية المصرية، وقوّة تحمّلها، بملامح تبدو جامدة تمامًا.

ليبدأ فجأة المتهم بالصراخ بصوت مبحوح ومخنوق..

-أنا بريء، اسألوا خالدً يُخبركم، اسألوا قلب والدها الذي في صدري! اسألوا أمّي- أمّ خالد..

عمّت بعض الفوضى والغوغاء داخل قاعة المحكمة، حتى أعلن دخول القضاة، لتصعد هيئة المحكمة على منصة القضاء، مُنع الكلام

أثناء المحاكمة، ليسود بعدها صمت كاتدرائلي رهيب، الكلّ ينتظر مجريات المحاكمة ليعرف قرار المحكمة.

فُتحت الجلسة..

توتر كبير يسود القاعة، تبدو القضية للكثيرين لغزٌ كبير، لكنّ الوحيد الذي يرى أنّها مؤامرة، هو المتّهم نفسه، حيث يوظفها على أنّها دسيسة ضدّه، ليس له يدُ فيها، كرّر رئيس المحكمة عليه نفس نمط الاستجواب، ليرد عليه بنفي التّهمة تمامًا، ليعطي بعدها التدخل لممثل النيابة العامة، الذي أوضح ملابسات القضية، في مُرافعة بالغة التّعبير قويّة العرض، تجنّب فيها الحواش البعيدة عن لبّ الادّعاء، بصوت هزّ مشاعر بعض الحاضرين، حاول بسط القضية وعرض أدلّة الاتهام، على نحو يحاول فيه إقناع القاضي ومستشاريه بالثبوت، ودعم ثقة الحاضرين. ليأتي دور محامي الدفاع، الذي حاول بدوره تفنيد أدلّة الاتهام، والتشكيك فيها، طيلة ساعة من الزمن، يتقاسم فيها مع ممثل النيابة، محاولة التأثير على مشاعر الحاضرين، وهيئة القضاء.

الاستماع إلى الشهود،

نودي على الشاهد الأول..

بعد أداء قسم اليمين القانونية، يسأله القاضي..

-اسمك وسنّك ومهنتك؟

-السيد ألمادو، اثنان وخمسون سنة، طبيب نفسي، والمتابع لحالة المتهم السيد ألفونسو..

-ماذا تعرف عن حالة المتهم الماثل أمامك في قفص الاتهام؟

- سيادة القاضي، عندما جاءني السيد ألفونسو المدعو فيصل، لأوّل مرّة، كان يُعاني من اكتئاب وحالة نفسية سيئة، بعد خضوعه لعملية زرع قلب، الأمر جد عادي، كون كل المرضى الذين يخضعون لمثل هذه العمليات المُعقّدة، يُعانون جميعهم في عامهم الأوّل من العملية، من توترٍ واكتئابٍ متفاوت، أكثرهم ينجح في الخروج من هذه الحالة، لهذ اقترحت عليه أن يكون محلّ بحث ودراسة طبية نفسية، لكن الدراسة لم تكتمل، للظروف الحاصلة الآن، وبهذا لا يحقّ لي الحكم عليه طبيًا، بأي شيء سوى أنّه تغيّر للأحسن، أكيد يُعاني من حالة نفسية معقدة، لكنّها دراسة لا تزال قيد التجربة والملاحظة، غير معترف طبيًا بنتائجها لحد الآن. بل هي مجرد نظرية لحدّ الساعة، تُراقب فيها الذّاكرة الخلوية للقلب المزروع، تفترض أن هناك خلايا حيوية في القلب تحتفظ بجوانبٍ شخصيةٍ لنا.

طلب القاضي من ممثل النيابة العامة استجواب الشاهد في إطار القضية..

-هل تعتبر حضرة الطبيب، أنّ المتهم مريض نفسي؟

-لحد الآن لا، بل مريض استفاد من زراعة القلب، وطبيعي أن يكون محتاجًا، لمتابعة طبية نفسية في العام الأوّل للعملية، وإلّا اعتبرنا كل من أجريت لهم هذه العملية بالذات، مرضى نفسيين!

-أكتفي بهذا سيادة القاضي، شكرًا.

محامي الدفاع يتفضّل..

-شكرًا سيادة القاضي، سيد ألمادو، من خلال متابعتك للحالة النفسية للمتهم، هل لاحظت جُنحهِ نحو العُنف والقسوة؟

-لا أبدًا، لكن كل ما أستطيع قوله أنّه تغيّر إيجابيًا من الناحية العضوية والنفسية معًا، مع بعض التوتر والاكتئاب الطبيعي في حالته.

كان فيصل صامتًا، يستمع لتلك المرافعات، دون أن تكون له ردّة فعل، ليأتي دور الشاهد الموالي. .

-السيد بيدرو، ثمان وأربعون سنة، بدون عمل حاليًا..

تسلّمه محامي الدفاع..

- هل تستطيع، سيد بيدرو، أن تقول لنا ماذا تعرف عن المتّهم، وما علاقتك به؟

-هو من بادر بالتعرف عليّ، كوني صديق المتوفّي خالد، كان دائم الاكتئاب ومضطربًا أكثر الوقت.

-كيف كانت حالته، آخر مرّة التقيته؟

-كان متوترًا بعض الشيء، يودّ رؤية الطفلة الضحيّة بأيّ شكل، نصحته بأن يرتّب ذلك مع والدتها ثم افترقنا، وفي اليوم الموالي حصلت الجريمة.

ممثل النيابة العامة يتفضّل..

-سيد بيدرو، بما أنّك كنت صديقًا مقرّبًا من المتوفّي السيد خالد، هل كان هذا الأخير في حياته، قد اشتكى لك من علاقته بطليقته السيّدة ياسمين- أمّ الضحية، بسبب ابنته، وهل فكّر في اختطافها مثلًا؟

اعترض مُحامي الدفاع على السؤال الذي-في رأيه- يوحي بشيء آخر ضد موكّله، لكن القاضي رفض الاعتراض ليترك الشاهد يجيب..

-فعلًا، كان كثيرًا ما يشتكي من أنّها تمنعُه من رؤية ابنته، خاصة من استضافتها عنده، رغم حكم المحكمة، أمّا الخطف فقد كان قد لمّح لي يومًا، رغبته في خطفها والعودة لبلده، لكن لا أعرف إن كان وقتها فعلًا جادّ في قوله أم لا!

-أكتفي بهذا سيادة القاضي، شكرًا.

الشاهد الثالث رفقة المترجم..

-السيدة صفيّة المعروفة بأم خالد، قد سمحت لك بالإدلاء بشهادتك من باب الأخذ بالمعلومة، لأنّ شهادتك وأنت -جدّة الضحية- أي طرف في القضية، لا تؤخذ بعين الاعتبار، لذا تفضلي قولي ما تريدين قوله، لكن قبل ذلك، أراك متوتّرة بعض الشيء! هل أنت على ما يرام؟

-بخير سيادة القاضي شكرًا، كلمتي التي أودّ قولها أمامكم، هي أنّ المُتّهم كما تعلمون يحمل قلب ولدي، وهو نفسه المُتّهم بخطف وقتل حفيدتي، لكن بالنسبة، لي ليس هو الفاعل، لذا أطلب اطلاق سراحه، واتركوا العدالة الإلهية تأخذ مجراها.

كانت شهادتها وموقفها مُحيّر جدًا، اتّجهت مباشرة لباب الخروج، لكن قبل أن تهمّ بالخروج اعترضت طريقها ياسمين، لتتفوه ببعض الكلمات..

-هركحل يا مرطرطه[1].

أكيد لم يفهموا ما قالته لها، حتى المترجم لم يستطع الترجمة، كونها خاطبتها باللهجة المصرية الصعيدية، وكادت تلطمها على وجهها، لولا تدخل بعض الحاضرين، ليحذّرها القاضي من مغبّة إعادة فعلها، وإلّا سجنها بتهمة شتم شاهد في قاعة المحكمة وأمام

(1) عبارة صعيدية معناها «نهارك أكحل أيّتها العجوز الضعيفة».

الجميع، لكن نظرًا لحالتها -كونها أم الضحية- تغاضى عن ردّة فعلها، لتستمر المحاكمة في جو متشنجٍ جدًا.

بدأت مرافعة ممثل النيابة العامة، الذي أدلى بما يراه من أدلّة وحُججٍ تدين المتّهم، ليطلب في الأخير بتسليط أقصى العقوبة على المتّهم، ليأتي دور محامي الدفاع، الذي استغلّ شهادة الشهود، خاصة قول أمّ خالد، الذي كان لصالح موكله، بالإضافة إلى خلو سجلّه الجنائي من أيّة جناية أو جنحة، ليطلب له البراءة الكاملة .

أخيرًا أعطيت الكّلمة للمتّهم ليدافع عن نفسه ويقول كلمته..

سيادة القاضي،

أيها الحضور الكرام، ما أنا إلّا شخص مسكين ولد بملجأ، بعيدًا عن الحبّ والدفء العائلي، تبنّتني وربتني-أمّي، تلك السيدة العظيمة الجالسة هناك، أعطتني كل ما أحتاجه من رعاية وحبّ وحنان، يفوق الخيال، كنت عانيت كثير من ضعف في القلب، لكن القدر سمح لي من الاستفادة بزراعة قلب شخص لا أعرفه، حتّى أنّه غريب عن هاته الأرض، لكنّه من أرض تشبهها في الجمال، وربّما تفوقها جمالًا وسحرًا وتاريخًا..

..في اليوم الأوّل من زراعة قلبه بصدري، شعرت بدفء غريب! لم يكن ذلك إلّا دفء -عزبة تونس المصرية، تلك القرية السياحية

الصغيرة التي ولد بها، أحسست حينها أنّني مقبلٌ على عالم جديد، لا يشبه عالمي، انتابني شعور غريب ورهبة كبيرة، كنت مُجبرًا كأي واحد فينا -قويٌ كان أم ضعيف- أن أتّبع قلبي الجديد، أتعلّم منه أحاسيسًا لم أحسّ بها في كامل حياتي، أصبح لوجودي بعدها ثقل بعد فراغ، تعلّمت منه صبر ذلك الصعيدي المصري البسيط، علّمني الحبّ يا سيدي، بعدها لم يعد يهمّني قلب من هذا؟ قلبي أم قلبه! أم هو نبض كلانا! هو نفسه قلب والد الطفلة الضحية -فيروز، التي تتّهمونني اليوم، بالمشاركة في خطفها وقتلها! وكأنكم تتّهمون خالدًا بقتل فلذّة كبده! كيف تتّهمون قلبَ ابن السيدة الطيبة -أمّ خالد- بأنّه ارتكب بشاعة فظيعة ومقرفة كهاته!..

..هو نفس ذلك القلب المُحبّ، من زفّني بأرملة خالد، تلك التي تحمل في أحشائها خالدًا آخر جديد! صدّقني سيادة، أنا مثلكم لا أعرف من فعل هذا الفعل الشنيع، وجعلني أعيش لعنة ومحنة مثل هاته! أنا سيادة القاضي.. برئ، برئ، برئ.

ارتفعت أصوات الحاضرين وعمّت الغوغاء، ليتدخّل رئيس المحكمة بإعلان ختم المحاكمة، دخل غرفة المداولات، رفقة مستشاريه يتداولون الدعوى، يدقّقون في قرار الاتّهام، وفي التحقيق النهائي، وتلك المرافعات وطلباتها، كانت لحظات حرجة وصعبة

على الجميع، الغريب أن الوحيد بينهم، الذي كان يبدو مرتاحًا هو المتهم نفسه! يبتسم لهم كأنه يقول ..

– المتهم بريء حتّى تُثبت إدانته. وأنا برئ.

كانت نظراتهُ لا تغادر وجه ياسمين، الذي كان يوحي بالقسوة والغضب، وربّما الرغبة بالانتقام! بوجهٍ ثلجٍ لا يعكس إلّا البُرودة والصقيع، جعلته يشعر من مكانه بقشعريرة بشعة، ليشيح بنظره نحو أمّه، تلك المسكينة التي تندب حظه، تأسّف لها في سرّه، كونهُ سبّب لها كل ذلك الحزن والألم، رغم أنّه لم يقصد ذلك أبدًا، فجأة يتحرك نظره تجاه بيدرو، ليبدأ قلبه ينبض بشدة وكأن خالد يودّ قول شيء ما، لكنّ فيصل في هذه اللحظات بالذات، كان مُنفصلًا تمامًا عن لغة القلوب، ينتظر بدَلَهَا، لغة العدالة ورحمتها.

كانت الوحيدة التي لم ينتبه لوجودها أحد هي هاجر، تلك الجالسة في آخر مقعد، أكيد سمع فيصل عنها، لكنّه لا يعرف شكلها، وأكيد كذلك، أنّ حضورها ورؤيتها اليوم، لن يُفده في شيء، فجأة أُعلن عودة هيئة القضاة..

محْكمَة..

–بعد الاطلاع على أوراق القضية وأقوال الشهود، والمرافعة والدفاع، وبعد المداولة، حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم السيد ألفونسو، بالبراءة من التّهم المنسوبة إليه، رُفعت الجلسة.

كانت فرحة فيصل لا توصف، لكن نظره لم يغادر ياسمين وهي تغادر المكان مطأطئة الرأس، كان خبر البراءة خارج المحكمة، قد صنع نوعًا من الاعتراض على الحكم عند الجالية، بدأ صراخهم وندائهم يعلو مردّدين..

«لا لبراءة المجرم» .. «لا لبراءة المجرم» .

الفصل التاسع عشر

قرّرت ياسمين استلام جثة ابنتها، لترحل بها لمسقط رأس والدها، بذلك الريف الذي كان يحضّر صوان العزاء بحزن بالغ، كانت ياسمين طوال الطريق لا تتخيل إلّا وجه خالد وكأنّه يُعاتبها على موت ابنتهما، تبدو جدّ متأثرة، ولا يعكس وجهها إلا ملامح قاسية كالحجر، تنمّ عن ردّة فعل قادمة تكون غاضبة ستلهب قلبها الحزين.

تمّ دفن الصغيرة بجوار قبر والدها، يوم شهد فيه غمامة حزن كبيرة تحوم حول تلك القبب البيضاء لمنازل أهل القرية، مهتزّة قلوبهم لبشاعة تلك الجريمة، تصالحت المرأتان- ياسمين وأم خالد- تفاديًا لقطع صلة الرّحم، وترك روح الفقيدين -خالد وابنته- ترحلان بأمان. لم تستطع نادية حضور ذلك العزاء بسبب حملها، لكنّها عزّت هاتفيًا أهل الفقيدة، لتعود ياسمين وأمّها لغرناطة رفقة أمّ خالد، التي أصّرت مرافقتهما للبقاء بجانب ياسمين، تواسيها في محنتها لبضعة أيام.

بعد ثلاثة أيام من وصولهنّ..

وُجد فيصل مقتولًا ببيته بطعنة خنجر على مستوى البطن، لتتوجه أصابع الاتهام مباشرة نحو ياسمين، التي أُوقفت على ذمّة التحقيق، لتُقام ضدّها الدعوى العامة، ليقرّر محاكمتها بمحكمة الجنايات، تلك المحكمة التي شهدت براءة الضحيّة من قبل، كانت كل الشكوك تحوم حولها، كونها الوحيدة المستفيدة من قتل الضحيّة، وقد اتّهمته من قبل بقتل ابنتها الوحيدة، لكنّ العدالة برّأته حينها، حقيقةً وضعيتها حسّاسة جد، ينتظرها مصير مجهول، خاصّة أن جريمة القتل وقعت بعد عودتها من عزاء ابنتها بثلاثة أيام فقط حسب التحريات، ولم تستطع إثبات وجودها في أي مكان آخر غير مكان الجريمة، حيث حسب أقوالها، كانت ببيتها زمن وقوع الجريمة، لكن مشكلتها، أنّه لم يكن لها شاهد يشهد لصالحها، حيث الشخص الوحيد هو -أمّ خالد- التي من المفترض تواجدها معها، أكّدت في شهادتها غيابها عن البيت، كونها كانت في ضيافة صديق ابنها- بيدرو، والذي أكّد أقوالها.

بقيت ياسمين صامتة وهي داخل قفص الاتهام، تبدو وكأنّها استسلمت لقدرها، أو لم يعد يهمّها الحكم مهما كان! لكن بعيد عن جو الجريمة الفظيع، وقع شيء مشابهٌ تمامًا لما كان قد وقع منذ أشهر، حيث تبرّعت -أم فيصل بقلب ابنها- الذي هو في الأصل قلب خالد- تحقيقا لرغبة ووصيّة ابنها الضحيّة، تلك الوصية التي

كان قد تركها أثناء تواجده على ذمّة التحقيق في قضية الطفلة فيروز، يبدو أنّه كان له نفس مستوى إحساس خالد من قبل، شعوره بأنّه راحل بطريقة أو بأخرى، ليستقر -ذلك القلب الغامض والمتنقل- هذه المرّة بصدر امرأة!

فكيف ستكون حياتها يا ترى، وقد اكتسب هذا القلب ذاكرتين، جلّ ما تحملانهِ، عبارة عن معاناة من فرط الحب!!

فتحت جلسة المحاكمة لتبدأ المرافعات وسماع الشهود، ليأتي في الأخير دور سماع المتّهمة، لكنّها رفضت الكلام أو الدفاع عن نفسها، ممّا أكدّ شكوك ممثل النيابة وهيئة المحكمة، وأكيد أضعف من موقفها في القضية، ليخرج القضاة إلى غرفة المداولات للنظر في الدعوى..

كانت القاعة كما بالخارج، يعجّان بالناس الذين ينتظرون الحكم في أغرب سلسة جرائم حصلت بغرناطة، لتعود هيئة المحكمة لتنطق بالحكم، الذي يبدو من خلال ملامح القاضي، أنّه سيكون حكمًا قاسٍ جدًا، ليتقدم رئيس المحكمة للنطق بالحكم..

-بعد الاطلاع على أوراق القضية وأقوال الشهود ومرافعة الخصمين، وبعد المداولة، حيث تبين لنا أنّه ليس هنالك دليل للبراءة،حكمت المحكمة حضوريًا على المتهمة ياسمين..

فجأة قامت أمّ خالد وقاطعت القاضي..

-مهلًا سيادة القاضي، المتّهمة بريئة وعندي دليل براءتها!

ماذا يحصل؟ الكل مندهش، يسأل ما بها تلك المرأة الأجنبية تعارض النطق بالحكم!

سادت فوضى عارمة بالقاعة، رغم أنّهم لم يفهموا بالضبط ما قالته المرأة، لكنّهم أدركوا أنّ لها شهادة مُهمّة تريد تقديمها لصالح القضية، كانت الوحيدة التي فهمت قولها هي ياسمين، التي استغربت ذلك الموقف.

أمر القاضي من الحضور الالتزام بالهدوء. طلب منها هويّتها، ودليل البراءة ليسمع أقوالها، اعترفت أنّها هي من قامت بقتل الضحيّة، ليأمر القاضي بالقبض عليها، ورفع الجلسة لحين التأكّد من أقوالها والتحقيق مجدّدًا في القضية.

جلست أمام قاضي التحقيق، يرافقها المحامي والمترجم، وكأنّها ليست أمام تهمة القتل، تبدو مرتاحة لا تعكس ملامحها الريفية الصلبة أيّ تعبير.

للوهلة الأولى يبدو الانتقام مجرّد ردّة فعل غاضبة، وقد يعتقد كلٌ منّا أنّه يعرف لماذا ينتقم حين ينتقم! ويفهم تمامًا نتائج انتقامه!

لكن الأمر قد لا يكون بهذه السهولة والبساطة، فالانتقام من أكثر الدوافع البشرية تعقيدًا وغموضًا.

بداية التحقيق..

-قد اعترفتِ بارتكابك الجريمة، وقد تحقّقنا من ذلك بعد التحري ووصول نتائج التحاليل المخبرية التي أظهرت أنّك الجانية فعلًا، من خلال بصماتك الموجودة على آلة الجريمة -الخنجر- وفصيلة الدم الذي كان على نفس الخنجر التي تتطابق وفصيلة دم الضحيّة، هل لي أن أعرف كيف حدثت الجريمة وما كانت دوافعك لارتكابها؟!

أخذت نفسًا عميقًا لتعترف أخيرًا..

-منذ البداية كنت أريده أن يتحصل على البراءة، لأنّ سجنه لم يكن يشفي غليلي منه، لذلك شهدت لصالحه في بداية الأمر، كنت -بعد دفن حفيدتي بجانب قبر والدها- قد وعدتها بأن أصنع العدالة الإلهية في أقرب وقت، ألحّيت على طليقة ابني -ياسمين، أن أرافقها لبضعة أيام، للوقوف بجنبها في محنتها، فرّحبت..

..في اليوم الثاني من وصولنا، طلبت منها أن تتصل ببيدرو -صديق ولدي- بغرض أن يرافقني للخروج لقضاء بعض الوقت بالخارج، فلم تمانع، رجوتها في أن ترى معه، إن كان بإمكانه أن

يكتب لي عنوان بيته، فأنا لا أجيد لغته لأطلب منه ذلك، استغربت الطلب! لكنّي وضحت لها أنّي أريد -بعد عودتي للقاهرة- أن أرسل له هدية. اتصلتْ به فعلًا وجاء لمرافقتي، بقينا بالخارج حتى وقت متأخّر، كانت جلّ حواراتنا بلغة اليد وتعبيرات الوجه، لم أكن مهتمّة كثيرًا بكلامه وثرثرته، ذكّرته حينها بورقة العنوان، فكتبه لي، اقترحت عليه بما أنّ الوقت كان قد أظلم. أن أمضي الليلة عنده، فهم إشارتي ورحّب بالفكرة.

قام لحظتها بمهاتفة ياسمين ليعلمها غيابي، في اليوم الموالي، وأثناء تناولنا لفطور الصباح، غبت لتحضير القهوة، استغليت الفرصة لأضع له منوّمًا بداخل فنجانه، قد كنت أتناول ذلك المُنوّم -من قبل- بوصفة طبية وصفت لي حين أصبت بصدمة خبر وفاة ولدي. وبعد تأكّدي من ذهابه في نوم عميق، خرجت مسرعة، أحمل خنجرًا كنت أخذته من مطبخه، لأستقلّ سيارة تاكسي، أعطيته عنوان فيصل- الذي كنت محتفظة به منذ أن أعطاني إياه في أوّل زيارة له لي ببيتي، بغرض زيارته يومًا ما- أوصلني فعلًا المكان وانصرف، كان المنزل منعزلًا عن بقية البيوت من حوله، ممّا خفّف من توتري وخوفي، لم أفكر حينها إن كانت أمّه متواجدة ببيتها أم لا، لم يكن أمرها يشغلني كثيرًا، وأكيد لم تكن تستطيع منعني من قتل ابنها وإلّا لكنت قتلتهما معًا..

..ما أن سمع قرع الباب حتى خرج، تفاجأ كثيرًا، لكنّه رحّب بي، تأسّف لعدم تواجد أمّه بالبيت، أدركت حينها أن العناية الإلهية تساندني فعلًا، ممّا زاد من تصميمي في قتله، أكيد لم يشُكّ في نيتي بقتله، لموقفي وشهادتي السابقة لصالحه بالمحكمة، حسمتُ أمري، وفي لحظات قليلة، كان يسبح في بركة دمه، خرجت مسرعة أبحث عن سيارة تاكسي. أعطيته عنوان بيدرو، أوصلني أمام العمارة بالضبط، لأعود وأدخل الشقة -كنت قد تركت الباب مردودًا- وجدتهُ ما يزال غارقًا بالنوم، أخذت مكانًا بجنبه على الكنبة الكبيرة ومثّلت عليه النوم، حتى استيقظ، فأيقظني، خرجنا بعدها، وأمضينا بعض الوقت بساحات غرناطة، تناولنا الغذاء ثم عاد أوصلني إلى بيت ياسمين، لكنّنا لم نجدها بمنزلها، وعندما اتصل برقمها، ردّت عليه الشرطة، حينها علمنا أنّها موقوفة في جريمة قتل.

توقف للحظات ثم عادت تكمل..

بداية كنت أظنّها سوف تنال البراءة، لكن أثناء المحاكمة ما أن وقف القاضي ينطق بالحكم، حتّى رأيت تشنّج وجه بيدرو، الذي كان بجانبي، ضغط بقوة على يدي، كأنّه ينبهني أن الحكم سوف لن يكون في صالح ياسمين! في تلك اللحظة أدركت أنّ علي أن أقوم لأقول الحقيقة كاملة، ودون وعي منّي وقفت أصرخ بأعلى صوتي، بأنّ ياسمين بريئة.

كونها من جيلٍ عاش في مجتمع عشائري، يفرض معايير اجتماعية معينة- فالتنازل عن الثأر يعتبر في نظر ذلك المجتمع الريفي الضيق والمتعصّب، عار اجتماعيٌ لا يذهب بمرور الوقت- كانت ترى أنّها مسؤولة عن تحقيق العدالة بنفسها، ما دامت عدالة القانون قد عجزت -في نظرها- على رؤية الصواب وتجريم الجاني. لكن بعد مرور يومين على سجنها، كانت العدالة الإلهية الحقيقية تُطبّقُ بشكل مغايرٍ تمامًا، حين وجِدت ميّتةً داخل زنزانتها، وبعد تشريح الجثة، ظهر أنّها وفاةً طبيعيةً.

كان كل ذلك الزخم من الأحداث قد أسال الكثير من الحبر بالصحافة المحلّية، لكن بقي السؤال المطروح أو اللغز الذي لم يستطع أحدٌ حلّه هو، هل فعلًا أخطأت العدالة في تبرئة فيصل من تُهمة خطف وقتل الطِّفلة الضحيّة فيروز؟! وإن افترضنا أنّه بريء فعلًا، وأنّ حكم المحكمة قد أصاب، فمن يكون الجاني إذًا؟!

بقيت قضية الطفلة الضحية فيروز، مقيّدةً ضد مجهول، لتعود ياسمين للمرّة الثالثة، إلى تلك العزبة البعيدة لتدفن المرحومة أمّ خالد، بجانب قبر ابنها، في مشهدٍ مهيبٍ، تتزاحُم فيه الأحزان والمِحَن، بشكل مُرعب ومُوحش جدًا، فحين تنظر لقبر خالد وهو يتوسط قبري- ابنته وأمّه، يجتاحك بل يخترقك سؤال صعب ..

– أي لعنة هاته التي تسبّبت في كل هذا الأسى والغضب! والتي أكيد تركت –أحداثها المتشابكة– بصمتها السوداء، على أرضين، غرناطة الغامضة، وعزبة تونس الحزينة. لكن على ما يبدو لم ينته مسلسل المفاجآت المرعبة بعد، رغم كل ذلك الكم الهائل، من الحزن والألم والانتقام الفظيع، ليتم القبض بعد أيام على هاجر بتهمة قتل بيدرو، لتقف أمام نفس قاضي التحقيق الذي كان قد استلم القضية من بداية جريمة خطف وقتل الطفلة البريئة.

بداية التحقيق مع هاجر..

–السيدة هاجر، أنت متّهمة بقتل الضحية السيد بيدرو، الذي هو زوجك، بعقد مدني مسجُل منذ أشهر فقط!ما قولك في ما هو منصوبٌ إليك؟

كانت منهارة تمامًا ليس بفمها إلّا قول..

–أقسم أنّي لم أقتله!

ليعود فيسألها مجددًا..

–من فضلك سيدة هاجر حاولي أن تجيبي على السؤال بدقّة لكي نعرف الحقيقة كاملة..

تمالكت نفسها قليلًا، أخذت منديلًا تمسح به دموعها لتردّ..

-أجل سيادة القاضي، صحيح كنّا قد تزوجنا منذ أشهر..

-كيف تعرفت عليه؟

-هو صديق المتوفّي السيد خالد..

-ما علاقتك بالمتوفّي، السيد خالد؟

-ربطتنا قصة حب قديمة بالقاهرة منذ أكثر من عشرين سنة..

-هل لي أن أسمع القصّة باختصار؟

- كانت بدايتي مع خالد من الجامعة، كنت بكلية الطب البشري، وكان هو في كلية الآداب قسم تاريخ، كنّا نلتقي ضمن شلّة أصدقاء، نمضي بعض الأوقات في الأماكن العامة، مع الوقت تكونت بيني وبينه قصة حب، لكن مع آخر السنة سافرت لأمّي بأمريكا، ولم أعد بعدها، ومن ثمّ انقطعت صلتي به تمامًا، بعدها، ومنذ أشهر فقط التقيت به صدفة بنيويورك، تبادلنا بعض القصص وحكينا عن الماضي، حكى لي عن صديقه بيدرو، وعرّفني عليه، ومنها نشأت بيني وبين بيدرو علاقة صداقة تطورت مع الوقت إلى أن تزوجنا، كنت حينها قد خرجت من زواج فاشل مع والد ابني، انتهى بالطلاق.

-ولِما لم تفكري بخالد مثلًا، بما أنّ لكما ماض جمعكما من قبل؟

-كان متزوجًا من سيدة مهندسة بالقاهرة، لم يكن ممكنًا طبعًا..

-هل تعرفينها من قبل، أو تعرفت عليها بعد ذلك؟

-لا أبدًا، لا أعرفها ولم أراها..

-ماذا كان يعمل زوجك الضحية، حين تزوجتما؟

-لم يكن له عمل..

-أترين أنّه من المنطق أن تتزوج دكتورة معيدة بالجامعة مثلك، تُدرّس بأكبر وأرقى جامعة بالعالم، ولها مستوى أكاديمي ومعيشي مرتفع مقارنة بزوجها الضحيّة!

-سيادة القاضي، العقلية الأمريكية تختلف كلّية عن عقليات بقية العالم، خاصة العاصمة نيويورك أين أقيم، وزواجي من بيدرو يعدّ هناك شيء عادي جدًا ومقبول جدًا كذلك، ما دام هناك قبول ورضا من الطرفين..

-هل دفعت ملف الضمّ العائلي الخاص بكما؟

-لا، لم أفعل..

-هل يمكنني أن أعرف السبب؟

-لم يكن هناك سبب معين، ربّما هو تكاسل منّي فقط..

بدأت تحس بتعب مفاجئ، اضطرّ محاميها طلب تأجيل التحقيق مع موكّلته ليوم الغد.

كانت ياسمين قد طلبت سماع شهادتها لتقدم وثيقة لديها، فاستجيب لطلبها..

-تفضلي سيدة ياسمين، قولي ما عندك..

- كان المتوفي طليقي السيد خالد، قد ترك وصية بها ثلاثة أظرفة، من بينها ظرف كان باسم السيّدة هاجر، المتّهمة في قضية قتل السيد بيدرو، كنت أنا وأرملة خالد -السيدة نادية، قد فتحنا الظرف الثالث، رأيت ربما فيه ما قد يساعد العدالة في معرفة الحقيقة، تفضل سيدي..

بدأ يقرأها، بدت عليه ملامح الاستغراب! أخذ أقوالها في القضية، ثم شكر تعاونها.

اليوم الثاني من التحقيق..

-أرى أن حالتك تحسنت، حسنًا، لنكمل ما بدأناه بالأمس، متى سمعت بحادث المتوفي خالد؟

-هنا بغرناطة من طرف بيدرو، حيث كنت في زيارة له..

-هل ذهبت لرؤية السيد خالد بالمستشفى؟

-نعم كنت أوّل من رآه برفقة بيدرو..

-ومن رأيت من أهله؟

-لا أحد إطلاقًا، فقد كنت قد رجعت إلى نيويورك مع ثاني يوم..

-ما قصة اختطاف ابنك أثناء تواجد السيد خالد بنيويورك؟

تغيّر لون وجهها فجأة حتى كاد يغمى عليها!

-لا تستغربي سيدة هاجر، قد تركتك تسردين ما تريدين، لكنّ الذي لا تعلمينه، هو أنّنا قد وجدنا عدة تسجيلات على هاتف زوجك المجني عليه، فيها كل ما دار بينكما من مكالمات هاتفية متكرّرة، وحوارات عديدة، بداية من أول تواجدٍ لك هنا بغرناطة، بالإضافة إلى تصريح كتابي بخط يده يسردُ فيه كل الوقائع التي حصلت منذ تقرّبك منه، حين عرضت عليه عملية تعاونه معك لخطف الطفلة فيروز ابنة خالد، ثم كيفية تنفيذ الجريمة وظروف وفاة الصغيرة، حتى آخر يوم، أين كان ينتظر وصولك إلى هنا بغرناطة. وهو نفس اليوم الذي تم القبض عليك ببيته، متلبّسة بجريمة القتل، يبدو أنّه كان لا يثق فيك مطلقًا، وهذا من حسن حظ العدالة، لكي نصل من خلال ما ترك إلى معرفة الحقيقة، لكن المؤسف أنه رغم كل ذلك الحذر الذي كان عنده، لم يفلت من مصيره المشؤوم!

صرخت فجأة..

-أقسم، أنّي لم أقتله، بل وجدته ميتًا..

- حسنًا، دعينا من هذا الآن، هذا الظرف به وصية باسمك، كان المتوفي السيد خالد قد كتبها لك قبل الحادث الذي تعرض

له-بعد رجوعه من عندك، وهذا واضح من خلال التاريخ والساعة الموضحتان في بداية الوصية، فما تعليقك؟

التقطتها ويديها ترتجفان، غلبتها دموعها وهي تقرأ كلماته حتى أنهت قراءتها، لتردّ ..

-أقسم أني بريئة، والله ما قتلت زوجي..

-أسئلك لماذا أخفيت قصّة زواجك وطلاقك بالسيد خالد؟ سوف أترك لك فرصة الاستماع للتسجيلات وقراءة الاعتراف الخطي لضحيتك، وبعدها سوف أسمع اعترافك كاملًا..

كانت لحظات صعبة وهي تستمع لصوت زوجها، جعلتها تتلون بألف لون ولون، حتى ساد سماء رأسها غيومًا سوداء قاتمة، تنبىء بعاصفة، بل بصاعقة على الأبواب.

-بداية سوف نرجع إلى قضية الطفلة الضحية فيروز، وحيثيات مشاركتك في جريمة خطفها والتسبب في قتلها- بمساعدة ضحيتك طبعًا- القضية واضحة لا غبار عليها، وكلّ الأدلة تدينك، لذا أريدك أن تسردي لي كل شيء حصل وبالتفصيل.

كانت أمام قضيتين، كل واحدة منهما أفظع من الأخرى، لتبدأ سرد روايتها للقصة الأولى..

–حين وجدت رسالة خالد، التي أعلمني فيها أنّه طلقني وغادر نيويورك، عائدًا إلى غرناطة، كان قد دسّ لي مُنومًا جعلني لا أفيق إلّا في المساء، حيث كان هو قد وصل، اتصلت بالشرطة بعد أن اختفى ابني معه، متهمة إياه باختطافه، كنت في حالة هستيرية كبيرة، لم أجد نفسي بعدها، إلّا وأنا هنا بغرناطة، أحاول أن انقض وأعيد ابني منه قبل أن يحصل له أي مكروه، كان أوّل شيء فعلته هو مهاتفته لأستعطف قلبه، لربّما يحنّ ويرجعه لي، لكن القدر سبق وحدث ما حدث، لكن النار المشتعلة بداخلي حينها، كانت أكبر من أن يهدئ لهيبها لمجرد إصابته بحادث أو حتى موته! لم أكن أعرف مصير ابني المختفي! فكرت في الانتقام منه في أقرب الناس إليه، وهي ابنته، لذا فكرت في صديقه بيدرو، الذي كان يعاني حينها من ظروف مالية جعلته يلجأ للشارع لتراكم الديون عليه، اقترحت عليه مبلغ ماليًا مقابل اختطاف الطفلة، لكنّه رفض العرض في البداية..

..عدت بعدها مباشرة إلى نيويورك. بعد مدّة كنت قد تواصلت معه عدة مرّات وساعدته ببعض المال دون مقابل، كان لي إحساس حينها أنّ ابني ما يزال حيًا، لكن لا أعرف أين، ولكي أتقرّب من بيدرو أكثر، عرضت عليه الزواج منّي ليتمكن من الخروج من تلك الظروف المزرية التي يعيشها ويلتحق بي بنيويورك، وفعلًا بعد

إلحاح منّي لفترة طويلة قبل ذلك العرض المغري بالنسبة له، تزوجنا هنا بغرناطة، بعدها كنت قد أقنعته بعملية الخطف، تركته يخطط وعدت إلى بلدي.

-كيف أوقع بفيصل؟

-هاتفني يومًا يخبرني، أنّه أخيرًا وجد طريقة لخطف الصغيرة، دون أن يظهر أحدنا في الصورة، سألته كيف؟ قال لي أنّه أثناء لقائه الأول بفيصل، قد أصيب هذا الأخير بصداع شديد دام لدقائق طويلة حتى اجتمع من حولهم المتواجدين في تلك الساحة، حينها استفسره عن سبب الصّداع، أخبره أنّه صداع يلازمه ويتكرّر معه شهريًا، في نفس اليوم وفي نفس التوقيت بالضبط، ولا يذهب إلا بعد دقائق طويلة، من هنا جاءت خطّة الخطف، حيث قبل يومين من تنفيذ عملية الخطف كان فيصل قد التقى به يريد أن يودعه قبل سفره للقاهرة، لكن لسوء حظّه، ذكر لبيدرو أنّه سيخرج في اليوم الموالي رفقة ياسمين وابنتها، ليمضي معهما بعض الوقت، هنا عاد بيدرو لحساب وقت حدوث الصداع المقبل بالضبط، فقد كان يعرف بالثانية زمن وقوع الصداع الأول الذي كان منذ ما يقرب الشهر..

توقفت لتطلب كأس ماء بعد أن جفّ حلقها، ثم عادت تكمل سردها..

تأكّد من حساباته أن موعد دورة الصداع ستكون بعد الغد، وفي ساعة معلومة لديه، لذا ولكي يضمن حدوث ذلك الصداع بنفس توقيت الخطف، خطّط بالثانية لنجاح العملية، كان فيصل قد رحّب بتواجده معهم، وفعلًا حين وصلوا ثلاثتهم ذلك المكان، كان بيدرو يراقب تحركاتهم عن قريب، أكيد لم تكن نسبة النجاح المائة بالمائة، لكنّه فعل المستحيل كي تنجح خطّته، بعدها تلقّى منه مكالمة هاتفية يطلب منه الحضور بعد أن حدد له المكان، لكن بيدرو اعتذر وتحجج بانشغاله، ولكي يُحبكَ العملية جيدا، طلبه من رقم مجهول، دون أن يحادثه، كان القصد من ذلك في يعطي إيحاءً، بأنّها مكالمة من أحد شركائه، بعدها مباشرة أصيب فيصل بالصّداع، ليتم خطف الطفلة وسط ذلك التجمع من حوله..

..رجع فأخبرني بعد أيام من الخطف أن الصغيرة توفيت نظرًا للمشاكل الصحية التي كانت تعاني منها، حيث رفضت كل أنواع الأكل، طلب منّي أن أحضر على الفور لتسلم الجثة وإلّا كشف الجريمة للشرطة. سافرت إليه في الحين، طلب منّي المزيد من المال مقابل سكوته، وفعلًا أعطيته ما طلب مقابل أن يذهب بالجثّة ويضعها أمام باب منزل أمّها، بعدها عدت أنا إلى نيويورك بعد أن اتّفقنا أن ننتظر ردّ الإدارة الأمريكية على ملف ضمّه، وأن يبتعد قدر

المستطاع عن مسرح الجريمة، لكنّه بعد أسبوع عاود مهاتفتي يطلب منّي المزيد من المال، هنا كنت قد بلغت عتبة من الصبر لم تبقي له عندي أي عذر ممكنٍ، أحسست أنّه أصبح يمثل خطرًا علي فقررت أن أوقع به، هاتفت السيدة ياسمين من رقم سري بعد أن، استعملت برنامجًا يغيّر من طبقة الصوت، همست لها بأن بيدرو هو من خطف وقتل ابنتها، لكنّها شتمتني وقطعت المكالمة في وجهي، تأكّدت حينها أنّه لم يعد لي من اختيار إلا السفر إليه وإرضاءه ببعض المال، خاصّة بعدما ظهر من خلال تحريات الإنتربول، أن ابني كان مخطوفًا من طرف والده ذو الأصول الفرنسية، ليتم إرجاعه لأحضاني وحبس والده، لم أكن أريد أن يكون هناك ما يعكر صفونا أو يُهدّد حياتي وحياة ابني وسعادته..

..حين وصلت غرناطة، اتصلت به لكنّه لم يردّ، توجهت مباشرة إلى البيت الذي كنت قد اشتريته له، فتحت الباب وتقدمت إلى غرفة الصالون، كان مُمددًا على الأريكة، بدا لي في الوهلة الأولى أنّه نائمٌ، لكنّي عندما لم يستجب لندائي هززت كتفه، في تلك اللحظة بالذات سمعت قرعًا بالباب، وصوت يقول هنا الشرطة افتحوا الباب، ارتبكت فعلًا، لكنّي فتح لهم الباب وأنا أرتعش من الخوف، سألوني إن كنت لوحدي، أجبت بالنفي، أن زوجي هنا مستلقٍ على الكنبة،

والله لم أكن أدري أنّه ميت، فعندما لم يستجب لهم، قاموا بهزّه كما فعلت من قبل، هنا فقط تأكدوا أنّه جثة هامدة، طبعًا اُتهمت بقتله، قيل لي حينها أنّهم تلقوا مكالمة مجهولة يخبرهم صاحبها عن سماع صراخ شجار بمنزل الضحيّة، لكنّي أقسم أنّي بريئة من قتله..

-إذًا بماذا تفسّرين تقرير الشرطة والتقرير الطبي بعد تشريح جثّة المجني عليه، والتي أثبتت أن الفارق الزمني بين موت الضحية -الذي توفي بسبب جرعة سمّ حادة قد تناولها مع عصير برتقال- ولحظة القبض عليك لا تتعدى ربع ساعة؟

-لا أعرف لكنّي لم أقتله..

-إذًا سيدة هاجر حضرتك متّهمة بالتهم الآتية، أولًا المشاركة في خطف والتسبب في موت الطفلة الضحية فيروز، ثانيًا قتل الضحية -زوجك، السيد بيدرو قوماز.

استدعيت ياسمين للتحقيق معها، بعدما جاء اسمها في التحقيق مع المتّهمة.

-تفضلي سيدة ياسمين، أرجو أن تتعاوني معنا كما تعاونت في لقاءنا الأول..

-أكيد لا مانع عندي..

-هل لي أن أعرف حجم علاقتك بالمتّهمة المدعوة هاجر، طليقة والد ابنتك المتوفية؟

-أنا لا أعرفها من قبل، أوّل مرّة أعرف بعلاقتها بخالد هي بعد فتح وصيته، كما كنت قد أشرت لسيادتك من قبل.

-قد اكتشفنا من خلال التحريات وتفتيش بيت الضحية، أنّ هذا الأخير وحرمه -المتهمة السيدة هاجر- هما شريكان في ارتكاب جريمة الخطف والقتل ضد الضحية ابنتك، بأدلّة واضحة لا تستدعي الشك..

أجهشت بالبكاء، لتعود فتهدأ..

-إذًا ليس السيد فيصل من فعلها؟

-أكيد ليس هو، كانت المحكمة محقّة في تبرأته، لكن هناك شيء آخر يخصّ قضية قتل الضحية بيدرو، فخلال التحقيق مع المتّهمة التي ما تزال تنكر تهمة قتل زوجها، ذكرت تفصيلًا لفت نظري، تقول فيه أنّها اتّصلت بك من خلال رقم مجهول، وبصوت متلاعب فيه من خلال برنامج حاسوب، أخبرتك بأنّ السيد بيدرو، هو من خطف وتسبّب في قتل ابنتك، لكنّك شتمتها ثمّ قطعت المكالمة في وجهها! ما ردّك؟

-نعم سيادة القاضي، قد حصل معي هذا، وفعلًا شتمت المُتّصل، فقد استفزني ما قاله ولم أترك له الفرصة في أن يكمل محادثته، فقطعت المكالمة.

-ألم ينتابك ولو للحظة واحدة، أنّه ربّما يكون كلامها صحيح؟

-لا، أبدًا حينها لم يخطر ببالي هذا، ولم أهتمّ لذلك مطلقًا! فقد كنت جازمة بأنّ من قتل ابنتي هو فيصل. لكن سؤالك سيادة القاضي فيه شيء من الاتهام!

-لحد الساعة لا، وإلّا لكنت اتهمتُكِ بصفة رسمية، اطمئنّي هو مجرّد استجواب لصالح القضية، أشكر تعاونك معنا، تستطيعين المغادرة.

لم تكن التحقيقات والأدلّة في صالح هاجر المتّهمة في قضيتين جنائيتين، لترفع الدعوى ضدها بتهمتي المشاركة والتخطيط للخطف مع التسبب في القتل للطفلة الضحية فيروز، وقتل زوجها المجني عليه - السيد بيدرو قوماز، ليحكم عليها في الأخير بالسجن مدى الحياة، لينتهي ذلك المسلسل الذي طالما شغل الراي العام الغرناطي والإسباني كله.

لكن وسط كل تلك السّحب السوداء التي ملأت سماء غرناطةَ، من جرّاء تلك الجرائم ومآسي البشر، كانت مصر تحت رعود سماء أنزلت أمطارًا غزيرة، تُغازل شمسها، لتصنع قرصًا من قوس

قزح، ناصع الألوان، نقي وصافي، يؤكد أنّه مهما امتلأت الدنيا بالحزن والمعاناة، ومهما غلبتنا أنفسنا، وضاقت علينا مداخلُها، فهناك دومًا -خَالِدٌ جديدٌ يُولد على الحب الفطرة، حين لم تقبل نادية -تلك الأصيلة- في أن تضع مولوها إلّا بين أحضان أهل عزبت تونس، للأجل أن تبقي على ذكرى حبيبها الصعيدي الذي رحل، وذكرى الخالة- أمّ خالد، وذكرى ابنتهم فيروز. ليكون اسم مولودها البكر... «خالد».

تمّ بحمد الله